ألبيرت بارتلز

محاربة الفرنسيين في المغرب



سي هيرمان



Trans *NBE*

العنوان الأصلي:

Albert Bartels

Auf eigene Faust, meine erlebnisse vor

und während des Weltkrieges in Marokko.

Berlegt bei Koehler und Amelang

Leipzig 1925

الفصل الأول

نحو بلاد مجهولة

في السادس من فبراير سنة 1903، صعدت على ظهر باخرة الشحن "أوتو وويرمان" التي كانت ستقلني، وأنا التاجر الشاب في التاسعة عشرة من عمري، إلى وجهتي على الساحل الغربي للمغرب. لم يكن هناك وقت كافٍ لتوديع أقاربي الذين كانوا واقفين على رصيف الميناء قبل أن تبدأ السفينة في الإبحار.

وكنت حتى ذلك الحين قد تجلدت بشجاعة لأخفف من وطأة الفراق عن أمي وإخوتي وأخواتي، ولكن الآن وقد اختفوا عن الأنظار انتابني شعور كئيب. فذهبت إلى مقصورتي لأختلي بأفكاري. شعرت في الحال بوحشة شديدة. لقد ودّعت لتوي لسنوات - وربما للأبد - كل ما كانت تعنيه لي الحياة حتى ذلك الحين، وتركت شبابي ورائي.

نفضت عن نفسي هذه الأفكار الكئيبة بجهد، وصعدت إلى سطح السفينة. كان هواء الشتاء باردًا على صدغي الذي كان ينبض. وقلت في نفسي مبتهجاً: " إنك ذاهب إلى العالم الواسع نحو مستقبل مثير للاهتمام '، مضيفاً: ' سأصل إلى هدفي على الطريقة الهانزية[1] القديمة '.

أومأ لي القبطان نحو الجسر، وبعد لحظة كنت واقفاً إلى جانب الرجل الصلب الذي أنهكه الطقس؛ ونظرت إلى الوراء إلى المدينة الهانسية القديمة، إلى مدينتي الحبيبة هامبورج، إلى الوراء خلف الأحواض والأرصفة، وفوق الصواري الشاهقة للسفن والبواخر التابعة لمختلف الأمم، وبكل فخر وحزن ودعت مدينتي في صمت.

والآن نحن متجهون إلى الخارج: فالنهر يتسع أكثر فأكثر، والأمواج ترتفع أكثر فأكثر، يبلعنا البحر الواسع - رمزاً الحياة البشرية بأمواجها العاتية، بآمالها ومساعيها، وأهدافها البعيدة وجنوحها نحو بحر اللانهاية.

[1] الرابطة الهَنزِيَّة أو عُصبة هَنزا أو عُصبة الهَنزة أو (نقحرة:هانزه، الهانزِية) هي رابطة ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا) والبلطيق، استمرت من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر. ضمت في البداية ثلاث مدن ألمانية هي : لوبيك، وهامبورغ وكولن، ثم تزايد عدد المدن المنضوية تحت لوائها حتى بلغ 80 مدينة في القرن الـ14 للميلاد. شكلت هذه المدن نواة الرابطة الهَنزية، أقامت لها عدة محطات تجارية في نوفغورود (روسيا)، برجن (النرويج)، لندن وبروج (بلجيكا). بدأت مرحلة الأفول عندما تلقت لوبيك وهي المدينة التي كانت مركزا لها هزائم قاسية على يد الدانمارك سنوات 1543-1535 م.

بعد رحلة استغرقت أسبوعين وصلت السفينة إلى مشارف مازاغان. كانت السفينة تستحق هذه الراحة القصيرة، بعد أن تقاذفتها العواصف العاتية في خليج بسكايا. كان علم أحمر وأبيض وأسود يرفرف بفخر في النسيم ويرسل تحية إلى القارة الإفريقية، كما كان علم المغرب الأحمر بادياً على المباني الحكومية.

كانت المنازل الحجرية المنخفضة في البلدة تتلألأ في شمس الصباح كالأشباح، بجدرانها المربعة الضخمة وسقوفها المسطحة، وترتفع فوقها المآذن النحيلة هنا وهناك.

حدقت في ساحة نشاطي المستقبلي وأنا أرتجف من الحماس. كان المعمار المنخفض، والجدران العارية الخالية من النوافذ، وتماثل أشكالها في البداية قد تركت أثراً محبطاً في نفسي. كانت المدينة العربية تسبح في مخيلتي مثل دير كبير معزول عن العالم الخارجي، أو مقبرة منفردة. ولكن تبين لي أن هذا المكان لم يكن مخصصاً للموتى وأن الحياة النشطة كانت تنبض فيه وحوله، كما اتضح لي من الضجة والصخب على الرصيف حيث كان حشد من الناس يتدافعون في استقبال السفينة الألمانية، ومن حركة المرور في الميناء نفسه الذي كانت تتهادى فيه زوارق عديدة ومراكب كبيرة يجدف فوق كل منها العشرات. كانت باخرة إنجليزية وأخرى فرنسية ترسو أيضاً؛ إذ كانت مازاغان ميناءً تجارياً مهماً غرب المغرب، حيث تلتقي القوافل القادمة من الجنوب ومن داخل البلاد، ولا سيما من عاصمة البلاد.



.الأكواخ المحلية



الشارع الرئيسي في مازاغان

أما خارج السور الضخم الذي أقامه البرتغاليون في القرون الوسطى، فقد كانت هناك منازل ريفية جميلة وسط حدائق واسعة تتراءى لنا: كانت هذه المنازل مقرات لممثلي الأمم الأوروبية وأساطين التجارة.

في مازاغان اكتسبت خبرة في مجال الأعمال التجارية خلال سنوات عديدة من الخدمة لدى شركة براندت وتول التجارية الألمانية.

كان العمل شاقاً يستمر من الفجر إلى غروب الشمس، عندما كنا مشغولين بتحميل الباخرة بمنتجات البلاد. ولكن عندما كان ينتهي الكدح في النهار، وكان صوت المؤذن الرتيب من المئذنة يدعو المؤمنين إلى صلاة العشاء، وكانت الشمس تتوارى خلف الأفق البعيد، وكانت أشعتها الأخيرة تتلألأ كالذهب المصهور على أمواج البحر المتلألئة، كانت المباني الداكنة والمناظر الطبيعية على الشاطئ تتوهج بألوان رائعة يعجز عنها الوصف، من أرق الألوان البنفسجية إلى أعمق الألوان الأرجوانية. كانت مثل هذه الأمسيات مفعمة بالسلام وجمال الطبيعة.

خيم الهدوء على البلدة. وجدت القوافل مأوى لها داخل الأسوار. وبعد أيام من السفر المضني وسط الحر استلقى أصحابها ملتحفين بعباءاتهم إلى جانب دوابهم في شوارع البلدة وساحاتها. إنهم يتحدثون عن رحلتهم وديارهم وهم مستعدون دائمًا للاستماع إلى حكايات راوي القصص.

وكانت الأشكال الملتحفة تتجول في الشوارع بلا ضوضاء تقريباً، حيث تنتشر جلود الماعز والأغنام قبل إرسالها للتجفيف، أو تختفي تحت الأقواس القوطية للأقبية البرتغالية القديمة.

في تلك الفترة كنا نحن التجار الأوروبيين نشتغل معاً في الأعمال التجارية بطريقة ودية، وفي الحياة الاجتماعية كان الانسجام أكثر وضوحاً.

وفي جميع الألعاب الرياضية والوظائف الاجتماعية برز الشباب بشكل خاص. ولم يقتصر هذا التآلف على مازاغان؛ فقد امتد إلى المدن الساحلية الأخرى، ولا سيما الدار البيضاء، حيث كانت الشركات التجارية الألمانية والإنجليزية الكبيرة تباشر أعمالها التجارية الكبرى منذ سنوات عديدة.

كان تكاتف الأوروبيين معًا ضرورة حتمية في هذه الأرض الغريبة، نظرًا لتعصب سكانها. وفي ذلك الوقت لم يكن من الممكن أن يغامر أي كافر بالخروج من المناطق الساحلية إلا تحت حماية أحد السكان المحليين ذوي النفوذ. ولا أزال أذكر كيف أن القنصل الإنجليزي في مازاغان، وهو بحكم منصبه رجل معروف ومحترم للغاية، أراد ذات مرة أن يحضر كمتفرج مهرجان تكريم ولي البلدة "سيدي موسى بن عمار" الذي كان يقام أمام أبواب البلدة.

وكان أولاد فرج، وهم أبناء المنطقة المجاورة، أناساً أشداء غير خاضعين للسلطان، قد قدموا في حشود. ممتطين جيادهم العربية النبيلة ومرتدين برانسهم البيضاء الجميلة، ملوحين ببنادقهم الطويلة فوق رؤوسهم. انطلقوا في " فنتازيا " وهم يهتفون " الله" وسط تصفيق الجمهور. وفور رؤيتهم للمسيحي، هجموا عليه بصيحات مسعورة. كان مدينًا لحصانه العربي الأصيل الذي مكّنه من الوصول بأمان إلى البلدة.

وفي إحدى المرات، كادت رحلة إلى مدينة أزمور الجذابة الواقعة على مقربة من مصب نهر أم الربيع أن تجلب على بعضنا نحن الأوروبيين كارثة. كنا قد نصبنا للتو خيمتنا في بستان البرتقال الشهير، عندما انهال علينا وابل من الحجارة قذفها سكان عش القراصنة القديم، مما اضطرنا إلى الفرار على الفور.

أذكر هذه الوقائع الصغيرة من أجل توضيح العداء الذي أظهره آنذاك المسلمون تجاه المسيحيين. هذه الكراهية التي قوامها اختلاف العقيدة يصعب القضاء عليها. فالعربي مثله في ذلك مثل التركي يمتلك شخصية فذة. وكما أظهرت الحرب ضد أسبانيا، فإن شجاعته الشخصية تتحول إلى تعصب شرس عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن وطنه وعقيدته.

وإذا كان قد تسنى لي مع ذلك أثناء الحرب العالمية (الأولى) كمسيحي، ملقى على عاتقي أن أعيش سنوات في داخل البلاد وأن أقود القبائل في حملة خطيرة ضد فرنسا وأن أجد بين السكان المحليين أصدقاء أثبتوا إخلاصهم حتى الموت، فإن السبب في ذلك يكمن فقط في موقفي الشخصي من هؤلاء الرجال الذين كانوا فخورين ويغلب عليهم في نفس الوقت شغف الحرية.

ومنذ اليوم الأول لوصولي إلى المغرب اغتنمت كل فرصة للتعرف على عادات هذا الشعب الفريد من نوعه.

وسعيت قبل كل شيء، وقد ساعدني في ذلك إجادتي للغة العربية إجادة تامة، أن أطلع على نفسية هذا الشعب. وبهذه الطريقة اتضحت لي أشياء كثيرة صدمتني أو أدهشتني في البداية كأوروبي، وبدا لي أن المناخ والعنصر البشري وخاصة الدين هو الذي يفسرها ويحددها.

وعلاوة على ذلك فقد أدركت أن الصفات الأخلاقية العالية لهذا الشعب الشرس كثيراً ما كانت تقارن في كثير من الأحيان بالصفات السطحية لحضارة متخمة.

وقد أتاح لي موقعي هذا فرصة كبيرة للتعرف على الشعب المغربي في دياره وفي أعماقه، إذ كثيراً ما كانت علاقاتي التجارية الواسعة تأخذني بعيداً عن الساحل إلى داخل البلاد وإلى عاصمتها مراكش وإلى أعظم جبال المغرب; الأطلس الكبير.

مراكش في شهر غشت سنة 1903. في رحلتنا إلى إقامة السلطان الأولى التي تبعد عن مازاغان بحوالي 180 كلم، وجدنا أنفسنا سالكين طريق القوافل القديم الذي كان عند مغادرتنا الساحل يمر في البداية عبر شريط ضيق من أرض صخرية لا تكاد تصلح للزراعة. ويبدو كما لو أن الأطلس الشامخ، سيد البلاد، قد أخرج لساناً طويلاً من الصخور ليصرخ في وجه التيار الأبدي للمحيط الذي يحمل اسمه، وكأنه يقول له "هذه الأرض ملك لي! ابقي في مملكتك أيتها الأمواج".

وإذا كان المحيط العريض، في غضبه العنيف، قد قذف برماله في نقاط معزولة على الساحل، فإن إعصار الأطلس قد ضمن ألا يجد هذا المتطفل موطئ قدم دائم، بل يبقى في حركة أبدية.

إنه امتداد بري موحش؛ لا يُرى سوى عدد قليل من أشجار الدوم.

سرعان ما يتغير طابع البلد؛ حيث نجد أنفسنا وسط سهل واسع وخصب للغاية، حزام الأرض السوداء. شاءت الصدف أن يكون وقت حصاد الخريف.

ورأينا السكان المحليين منخرطين في سوق خيولهم لدرس الحبوب والذرة والفول في الحقول المحصودة، أو نقل المحصول على الجمال والبغال إلى المساكن المختلفة. وعلى بعد 59 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مازاغان وصلنا إلى سوق " السبت " الكبير. كانت محلة السلطان تخيم هناك لجباية ضرائب ' الرحامنة ' المحليين .

وكان هناك الكثير من الولائم والضحك، حيث أستهلك لحم الضأن، ولكن لا أثر للضرائب إلا فيما ندر.

على طول طريق القوافل قابلنا قوافل كبيرة من الإبل في رحلتنا التالية. لم تصدر الحيوانات أي صوت وهي تشق طريقها. وغالباً ما تأتي من مسافات بعيدة يرافقها رجال مسلحين لحمايتها من هجمات الحيوانات المفترسة. الدواب محملة بأثقال يصل وزنها إلى ربع طن - أكياس وصناديق تحتوي على منتجات البلاد مثل اللوز والصمغ والصوف والشمع والجلود والبيض، والتي تجد طريقها إلى أوروبا.

وفي مقابل هذه المنتجات ترسل أوروبا ما لا تستطيع هذه البلاد الفقيرة صناعياً أن توفره لسكانها: وعلى رأسها القماش والحديد والخردوات والورق والسلع القطنية والسكر.

ثم ينتهي الحزام الزراعي الخصب؛ نحن نعبر الآن منطقة تقودنا إلى سفوح جبال الأطلس وكلما صعدنا إلى أعلى، يكتسي المنظر الطبيعي طابعاً شبيهاً بالسهوب الباردة، ويستمر حتى مشارف العاصمة تقريباً.

من وقت لآخر، تكسر الأكواخ المصنوعة من القش أو البيوت الطينية المحلية، والتي تشبه خلايا النحل، رتابة المشهد. ثمة عدد قليل من أشجار التين بالقرب من التجمعات السكنية، ولكن فيما عدا ذلك لا يوجد سوى بعض الأشجار المتناثرة التي تخفف من كآبة السهل.

لكن عندما تمنح أمطار الشتاء أو أمطار الربيع المبكرة التربة الجافة الرطوبة التي تتوق إليها، سرعان ما تصبح مغطاة بآلاف الزهور ذات الألوان الزاهية.

وبالقرب من مراكش جبل من الصخور الجرداء تعين علينا تسلقه. ثم صعدنا جبل " جيليز ' الذي يقع قريباً جداً من المدينة، ويشرف على إقامة السلطان التي تسمى ' الحمراء ' أو السمراء. يمتد على مسافة طويلة وواسعة بحر هائل من المنازل التي تشكّل المدينة. وتعادل مساحتها ما كانت عليه من الازدهار في عهد المنصور السعدي.

وقد قدر عدد سكانها آنذاك بأكثر من 300,000 نسمة؛ وفي السنوات 1904 - 1905، عندما أتيحت لي الفرصة لزيارة المدينة عدة مرات، انخفض عدد السكان إلى حوالي 150,000 نسمة.

وفوق الأسطح البنية للمنازل المنخفضة ترتفع المئذنة الشبيهة بالبرج لمسجد " الكتبية " الرائع الذي يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وكذلك المئذنة الضخمة لقصر السلطان.

يخترق نهر " تانسيفت" الجزء الشمالي من المدينة كشريط فضي ضيق، حيث تأتي مياهه الشفافة من جبال الأطلس وتروي بواسطة قنوات عديدة الحدائق الواسعة التي تحيط بالمدينة مثل طوق أخضر. تتناوب زراعة البرتقال والخوخ والتين مع بساتين النخيل. كما ينتج السهل الخصب أيضاً نبيذاً ممتازاً.

وعلى مسافة بعيدة إلى الجنوب تتلألأ مرتفعات الأطلس الضخمة التي تصب مياهها الصافية من الثلوج الذائبة في عدد من الأنهار العظيمة التي تجلب البركة والرخاء للسكان على ضفافها في مسارها الطويل إلى المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط.

عبرنا من خلال إحدى البوابات القديمة العديدة التي ترصع جدران المدينة السميكة والمغلقة عند الغروب إلى داخل المدينة نفسها. لا تكشف جدران المنازل إلا عن نوافذ مزخرفة من حين إلى آخر؛ ولكن كم يندهش الزائر وينبهر عندما يدخل أحد تلك القصور المتواضعة في مظهرها الخارجي التي شيدها عظماء البلاد.

هناك رواق مزين بأروع الفسيفساء والنقوش الجدارية ومزخرف بأروع الرسوم ومزين بكؤوس مزخرفة ببراعة يحيط بالفناء المستطيل الذي يلمع داخله سجاد فخم بألوان زاهية.

وفي وسط الغرفة نافورة مزينة بالنباتات المزهرة تضمن برودة منعشة؛ ولا تزال مراكش تمتلك مورداً مائياً يعود تاريخه إلى قرون مضت، وهو لا يزال مستخدماً حتى يومنا هذا.

الساعات التي تشرفتُ بقضائها في منزل القائد الأمازيغي، الهادي التهامي الكلاوي، لا تُنسى. كانت غرفة استقباله تشبه قبة السماء التي تتكون من مئات القباب الصغيرة.

أما الفضاءات الداخلية للمنازل فهي مخصصة أكثر للحياة العائلية والتواصل مع الأصدقاء من أبناء القبيلة. هناك سكون شبه مهيب يغلف هذا العالم؛ ولكن في الخارج، في الشوارع الواسعة والساحات المفتوحة تنبض

الحياة بحيوية أكبر. حيث يجلس الحرفيون في الدكاكين المفتوحة، ويعرض التجار بضاعتهم، ويتدفق سكان المرتفعات البدويون للبيع والشراء؛ ويختلط بعض اليهود بالسكان المحليين. في ذلك الوقت كان يعيش في مراكش أكثر من 16000 يهودي، وهم محصورون في حي خاص من المدينة يسمى "الملاح" باللغة الدارجة المغربية.

ويتعين على هؤلاء أن يتوخوا الحذر الشديد من المتعصبين من السكان، وفي مقابل ذلك يستطيع اليهود أن يجتازوا حتى أكثر مناطق البلاد عزلة دون قيد أو خطر. فاليهودي أكثر مرونة وأقل حساسية تجاه العنصر الحاكم من الأمازيغ والعرب. لم يكن بإمكان أي يهودي أن يمتطي دابة أو يمشي بالنعال في المدينة في تلك الفترة.

وعندما تغيب ظلال المساء تبدأ هذه المدينة الإسلامية الأصيلة في نشر سحرها بالكامل. وكثيراً ما يتسلل إلى آذاننا صوت الكمبري الحزين المكتوم، وهو قيثارة صغيرة ذات وترين؛ من على الأسطح المسطحة؛ وفي الساحات المفتوحة تنتشر المقاهي الشعبية المكتظة بأناس كثيري الإيماءات ومتيقظين عقلياً. على النقيض من التركي الفاتر إلى حد ما، فإن المغربي مفعم بالحيوية ومهتم بكل ما يحدث في العالم.

في الشقق الصغيرة التي تقع على الجانب الآخر من الشارع، والتي تفرش عتباتها بالحصير الملون، غالباً ما يتجمع المشعوذون والراقصات.

إن حظ هذه الراقصة لا تُحسد عليه. فغالباً ما تختطف الفتاة وهي طفلة من قبيلة بعيدة، وعادة ما تنشأ في بيئة تسودها القسوة والخشونة حتى تتمكن من مساعدة مالكها في كسب قوته. عليها أن تقدم عروضًا في ساعات الليل المتأخرة وسط ضوضاء تصم الآذان لتستعرض مهارات الرقص الشرقي وسحر جسدها اليافع. ولا أزال أذكر " شطاحة " صغيرة؛ كانت ترقص أمامي ذات ليلة قائظة وأظافرها مطلية بالحناء، وأقراطها الرائعة وفستانها الحريري القصير المزين بأبازيم فضية، وكيف ألهبت قلبي الغض.

كانت قد لفت حول رأسها الوسيم قطعة من الحرير الملون؛ وكانت خصلات شعرها الأسود قد أطالتها خيوط صوفية ملونة؛ وكانت المشابك الذهبية تلمع على أطرافها الرقيقة. كانت قدماها الصغيرتان في حركة مستمرة. وكانت وتيرة رقصها تتزايد أكثر فأكثر تحت صرخات سيدها، حتى سقطت على الأرض وسط تصفيق المتفرجين مطلقة صرخة خاطفة. سقطت المسكينة ضحية الإدمان المبكر الناجم عن تدخين الكيف أو معاقرة المشروبات الروحية المقطرة من الشمع وتين الصبار المستمر. أما حياة الشعب المغربي السريع الانفعال فلا تسير بسلاسة، ولا سيما في عاصمتهم: فكثيراً ما يؤدي التعصب الديني والعوامل السياسية إلى إشعال نار الفتنة.

وذات مرة كنت مع تاجر يهودي على وشك عبور سوق جامع الفنا الواقع داخل المدينة، سمعنا فجأة موسيقى غريبة وبعد قليل رأينا حشداً من الناس يصرخون ويهتاجون أمامنا على بعد حوالي 90 متراً. وكنت لا أزال أحدق في المكان، وعلى وشك أن أسأل اليهودي عما تنذر به هذه الضجة، عندما شحب لونه فجأة واندفع مبتعداً. وقد كان موفقاً في فراره، لأن طائفة " عيساوة " الدينية هي التي أثارت مشاعر الناس بمرورها في الشوارع - أشخاص شرسون بنظرات شرهة وإيماءات شهوانية كانوا في هيجانهم يمزقون الخراف الحية إلى قطع ويلتهمون لحمها الدامي النيء، ويرقصون لساعات في حرارة الشمس الأفريقية الحارقة، ويهشمون

الرؤوس بالسكاكين والحجارة. الويل للمسيحي الذي تصادف وجوده في طريقهم أثناء هذا الاحتفال. لذلك لحقت باليهودي وطلبت الخلاص في الهروب.



بلاد الريف



قلعة القائد الكلاوي

شهدتُ هذه المدينة ثورة يوم 20 يناير 1904. لم يقبل السكان العملة الجديدة التي تم إصدارها. وأُلقي اللوم على اليهود في إصدار وسيلة الدفع الجديدة هذه. فنهب المتظاهرون المتاجر واعتدوا على اليهود. ولم ينج الحي اليهودي من الاحتراق في ذلك الوقت إلا بفضل تدخل القائد بن داوود ذو النفوذ الواسع.

وفي شهر أبريل سنة 1904 غادرت مراكش مع الدكتور ألبريخت ويرث المنحدر من مدينة ميونيخ، مصحوباً بخادمين، في رحلة إلى جبال الأطلس التي لم يخترقها حتى الآن إلا حفنة من الأوروبيين.

وكان من حسن حظنا أننا حملنا في هذه الرحلة عبر بلاد مجهولة تسكنها قبائل جبلية شرسة رسائل أمان من نائب السلطان عبد الحفيظ إلى القائدين القويين الكلاوي والكندافي. وكانت قلاعهما المبنية على التلال بأبراجها الصخرية تهيمن على البلاد لمسافة عدة كيلومترات.

مررنا بقصر السلطان الواقع في وسط حدائق واسعة على التخوم الجنوبية لمراكش، وصلنا أولاً إلى تامصلوحت، وهي مزار الولي الشهير المولى إبراهيم، حيث أقمنا بضعة أيام. وأذكر بامتنان هذه الإقامة التي تجولت خلالها لساعات في بساتين الزيتون الشاسعة وقد أتيح لي أن أقطف التين والعنب والتفاح الرفيع في الحدائق الواسعة.

ثم تقدمنا بعد ذلك عبر السهل المرصع بالنخيل نحو جدار جبلي يتلألأ بياضاً بالثلوج، وهي الجبال التي تفصل الصحراء الكبرى عن الأراضي الرئيسية للمغرب. على سفوح التلال التي تتخللها الصدوع وغابات

الأرز والبلوط، يعيش السكان الأمازيغ المحليون في استقلال شبه تام تحت قيادة أمرائهم وقوادهم المختارين، الذين يعينون الشيوخ كزعماء للقبائل المختلفة.

يتمتع القواد، وهم رجال مسنون ذوي حكمة ووقار، بثقة قبيلتهم كقضاة. يضطلعون بجميع المهام الإدارية الهامة ويصدرون الصكوك المتعلقة بالبيع والشراء وعقود الزواج وما إلى ذلك، وهي وثائق منجزة في بعض الأحيان بطريقة بديعة.

في وقت متأخر من مساء أحد الأيام وصلنا إلى قلعة القائد عمر السكتاني، الذي كنت على معرفة شخصية به. وهناك وجدنا مسكناً للضيوف، ولم يساورنا شك في أننا لن نرى القلعة المهيبة مرة أخرى.

في الساعة السابعة مساء قمنا بفك سروجنا وبتنا ليلتنا في إحدى القرى. وفي الصباح الباكر أوقدت نار في الموقد المغربي الصغير، وفي أقل من عشر دقائق تمكنا من ارتشاف الشاي اللذيذ المعطر بأوراق النعناع. إن من لا يعرف "ارتشاف الشاي" المطول المعتاد عند المغاربة بعد تناول الطعام هم غرباء عن المتعة الحقيقية في هذا العالم.

ابتعدنا بسرعة ووصلنا إلى قرية غوروغو عند سفح جبال الأطلس قبل الساعة السادسة. كم كان الجو رائعاً في الغابة! كانت الطيور تهدل وتغرد فوق رؤوسنا على الأشجار، وكانت شمس الصباح الباكر تدفئنا، وكم كان رائعاً أن يكون المرء على قيد الحياة.

أصبحنا بسرعة في قلب المناظر الجبلية الرائعة. جدران صخرية هائلة زاخرة بالوديان الوعرة ترتفع إلى حوالي 1500 م، وشلالات تنحدر إلى الوادي في الأسفل. صعدنا إلى أعلى أكثر وأكثر وسلكنا طريق الأغنام ذات الشعر الطويل واكتشفنا بينها آثار فهد حاولت عبثاً مطاردته ببندقية ماوزر.

أصبحت البرية مستعصية على الاختراق، وكان الطريق تتجه نحو الأعلى، على مسار البغال الضيق بجانب جدران صخرية شاهقة؛ وكانت حوافر بغالنا الصغيرة بالكاد تجد موطئ قدم على حافة الهاوية السحيقة. كان الدكتور ويرث قد ترجل أمامي وترك دابته تتقدمنا. وفجأة توقف. كان يجثم على صخرة جبل مخروطي الشكل يرتفع بشكل حاد من الوادي على بعد حوالي 50 م نسر ضخم يستمتع بالشمس. استولى على رفيقي شغف مفاجئ بالمطاردة وصوب بندقيته. انحنيت في الوقت المناسب وضربتُ الدكتور ويرث على ظهره. فاستدار - وارتفع ملك الهواء المذعور بجناحيه الثقيلين. تبعناه وهو يحلق وحيداً فوق الجبال والوديان. كان جيداً أنه فعل ذلك، وإلا كنت بالتأكيد سأسقط في الهاوية السحيقة مع البغال المذعورة.

وفي المساء استقبلنا بحفاوة في قلعة القائد الأمازيغي الكندافي التي يطل منها على غابات داكنة من أشجار اللوز الممتدة على جانبي مجرى النهر الهادر.

وفي صباح اليوم التالي قابلنا في الممر قافلة متجهة إلى تمبوكتو، وقد دعاني قائدها إلى مرافقته في الرحلة. وبقدر ما كان يجذبني العرض الذي عرض عليَّ لنزول منحدرات الأطلس الحادة المؤدية مباشرة إلى الصحراء وزيارة المركز التجاري القديم، فقد كانت هناك دواعي هامة تحتم عليَّ العودة إلى مراكش.

وفي طريق العودة واجهتنا عاصفة ثلجية ونصبنا خيمتنا على ارتفاع 1900م. وقد عكر صفو راحتنا الليلية معاداة الأمازيغ للمسيحيين الذين رشقوا خيمتنا بالحجارة. نهضنا وأسرعنا بالخروج، ولكن وسط الظلام

والعاصفة الثلجية الهوجاء لم نستطع رؤية أي شيء. كانت تجربة مزعجة، وفي الساعة الثانية ليلاً استأنفنا رحلتنا.

وبعد عدة أيام من السفر، وصلنا مرة أخرى إلى هضبة مراكش ورأينا لهولنا قلعة القائد عمر السكتاني تحترق. وعلمنا في المساء أن الحصن الصخري الشامخ قد دمر بأمر من نائب السلطان عبد الحفيظ. كان صاحبها قد صمد لمدة يومين؛ غير أنه نجح قبل سقوط القلعة بقليل في الإفلات من انتقام السلطان. وبعد سنوات من ذلك عاد إلى الحظوة مرة أخرى.

هكذا، فكما كان هؤلاء القواد يتحدون السلطان وهم في قلاعهم الصخرية في كثير من الأحيان، كذلك كان النزاع في جميع أنحاء البلاد تقريباً يتواصل لتحقيق استقلال السلطة الحاكمة. ويجد دافع الحرية هذا تفسيره في التقسيمات الطبقية الخاصة للشعب وفي الخصائص الطبيعية للبلاد. وكما هو الحال مع جميع الشعوب الفطرية، فإن الأفراد في المغرب يرتفعون بحكم قدراتهم الشخصية عن سواد الشعب، ويصبحون زعماء قبائل تقدم الطاعة المطلقة لشيوخها وقوادها. وتفصل بين أراضي القبائل المختلفة الأنهار والجبال والغابات بشكل عام. وتؤثر الصداقة أو العداوة بين مختلف الزعماء تأثيراً حاسماً في موقف القبائل التي نادراً ما تتعاون على العمل المشترك ما لم تضطرها الظروف السياسية الخاصة التي تؤثر فيها جميعاً إلى ذلك. وهذا التشتت القومي الناجم عن السعي وراء المصالح الخاصة هو المسؤول الأول عن عدم تمكن الشعب حتى وقت قريب من التخلص من نير المحتل الأجنبي.

ويمكن الحكم على مدى اعتزاز القواد والشيوخ بالحكم إلى أي حد يشعرون بأنهم أسياد في دائرتهم الضيقة من الحادثة التالية:

في سنة 1906 سعيت إلى مصالحة أحد القواد مع الشيخ أحمد الفرشي الذي كان مهاباً حتى في مدينتي مازاغان وأزمور بسبب سلوكه الفظ والقاسي. وعندما التقيت به بعد رحلة تسع ساعات من مازاغان، خرج من خيمته وصاح بصلف: "ماذا تريد هنا؟ أليس من الوقاحة أن تغامر بالدخول إلى بلادي؟ "

فأجبته : " أنا لا أريد أن أغزو بلادك. لقد جئت إليكم أنتم الذين نعرف قدرتكم وكرمكم".

ثُمَّ شَرَحْتُ لَهُ سَبَبَ مَجِيئِي وَرَجَوْتُهُ أَنْ يَرْكَبَ مَعِي إِلَى الْقَائِدِ. لم يكن عليه أن يخشى أن يعتقله هذا الأخير؛ كما عرضت عليه مسدسي الذي يستطيع أن يطلق به النار علي إذا كان ما قلته زوراً. فنظر إليّ باستعلاء وأجابني بابتسامة متعجرفة: "لست بحاجة إلى مسدسك، فبندقيتي جاهزة دائماً".

ولدى وصولنا إلى منزل القائد، استقبلنا هذا الأخير بكلمات: "آه، مساء الخير يا شيخ أحمد، ألستم قادمين إلى عرين الأسد". فأجاب الشيخ: "أنتم أسد واحد فقط، وأنا قد قتلت اثني عشر أسداً". سأل القائد، الذي بدت على وجهه الآن تعابير أكثر شراسة، عما إذا كان سي أحمد غير نادم على إطلاق النار على أحد أصابعه قبل يومين. فأجابه الشيخ: "الحمد لله، ماذا كنت ستقول لو كنت قد فجرت رأسك!".

بدا الوضع خطيرًا. استفسر ممثل القائد في حالة من الانفعال عما إذا كان ينبغي ألا يعتقل الشيخ. ثم اندفع الأخير إلى إحدى زوايا المنزل وصوب بندقيته وصاح: " أول من يقترب سأرسله إلى العالم الآخر! "

أسرعت بينهما وهتفت: " هذا عيب منك يا سي أحمد - لقد اجتمعنا هنا للصلح: القائد يعرض عليك الصداقة، وأنت تبدي الصرامة والعداء! " قال القائد " إنني أكن لك احتراما كبيرا، فهل ستجبرني على استعمال القوة؟ .أَلاَ تَرَى أَنَّ الطَّعَامَ قَدْ أُحْضِرَ؛ أَلاَ تُشَارِكُنِي طَعَامِي؟ أهلاً وسهلاً " وتمت المصالحة

جلسنا الآن على السجادة لتناول الطعام، الذي يقدم بشكل مختلف تمامًا عن وجبات الطعام عندنا. أولاً أحضر أحد العبيد وعاءً نحاسيًا وإناءً من الماء الساخن وقطعة قماش لغسل اليدين والفم. ثم وُضع وسطنا طبق به ذرة خشنة وقطع صغيرة من اللحم. كان القائد كمضيف هو أول من يغمس أصابعه في الطبق ليختبر أن الطعام جيد ويثبت أنه ليس مسمومًا، وكان يشكل كرة صغيرة من الذرة ويضعها على لسانه مع عبارة: ."“باسم الله

ثم تم تمرير الطبق إلى الضيوف بالتناوب. وسرعان ما يتغلب الأوربي على نفوره من الأكل بالأصابع، عندما تكون نظيفة كما يحافظ عليها المسلمون. وتبع ذلك فخذ من لحم الضأن مغطى بالبقدونس والبطيخ المنعش النادر. ثم قدمت مرة أخرى كؤوس وسرعان ما استمتع الجميع بالشاي الأخضر المنكه بالكثير من .السكر وأوراق النعناع

وامتناناً لجهودي الموفقة، أهداني الشيخ أحمد - تبعاً للعادة الممتازة التي يتميز بها المسلمون في إسعاد .الآخرين بالهدايا - حصاناً عربياً أصيلاً

إن التناقضات المذهلة في تشكيلة البلاد بسلاسلها الجبلية العالية ووديانها الطويلة وهضابها وسهوبها .وسهولها والمنطقة الساحلية تولد بالضرورة تنوعاً معيناً في شخصية السكان وطريقة عيشهم

فالهواء العليل للجبال ومياهها الصافية، فضلاً عن قساوة الحياة فيها، قد جعلت من سكان الجبال رجالاً أقوياء شجعاناً معتمدين على أنفسهم، يحبون بلادهم بحماس ويعيشون إيمانهم. وكلما كانت المرتفعات أكثر شموخا، كلما امتلأت رئتهم بحرية أكبر، وكلما كانت البلاد منيعة أكثر مما يسهل صد الغازي الأجنبي. سيجد الكافر .صعوبة كبيرة في التوغل وحده في هذه البلاد الحرة

وقد سألت مرة أحد سكان منطقة جبالة عن سبب مقابلة الأجانب بمثل هذه الريبة، فتلقيت الجواب: "إننا نعلم ."جيداً أن أول أوروبي سيتبعه الآلاف من الأجانب، وعندئذ لن تعود البلاد ملكاً لنا

ولا يريد إنسان المرتفعات أن يتعامل مع الحضارة الأوربية؛ فبلاده لا تعطيه الكثير، ولكنها توفر له ما يكفيه لنمط معيشته البسيط. وكلما انحدرت الجبال إلى السهول ووديان الأنهار، كلما أصبحت التربة أكثر خصوبة (باستثناء مناطق السهوب) وكلما وفرت لسكانها المزيد. وإذا كنا كثيراً ما نجد في المرتفعات بيوتاً وأكواخاً حجرية متواضعة، بائسة، باردة وعارية، فإن القرى الصغيرة في الأجزاء المنخفضة من البلاد تكسوها الخضرة. الطرق والقرى محاطة بأسيجة كثيفة من الصبار الأحمر المزهر الكثيف. والقبيلة تزداد ثراءً .وقوة، وتكثر الماشية والماعز والأغنام والخيول

يعيش الفلاحون، وهم سكان السهول الخصبة، في رخاء كبير، ولا سيما في المناطق الساحلية التي تحتك بالحضارة الأجنبية، وينظرون إلى سكان المرتفعات أو الجبالة بنوع من الاستعلاء. ويؤدي المناخ الملائم .المقترن بالتربة الخصبة إلى حصاد مضاعف، ولكن كثيراً ما تتلف بركة الحصاد في رمشة عين

انطلقت ذات يوم بصحبة صديقي السيد يونغفوغل من مازاغان قاصدين (تيط) وهي مدينة فينيقية قديمة تقع على ساحل البحر بين مازاغان وأسفي. ومن خلفنا كانت حدائق المدينة الفسيحة تعبق الهواء برائحة زهر البرتقال. وكان نسيم خفيف يهب في وجوهنا من المحيط الأطلسي، الذي كان يتلألأ تحت أشعة شمس الصباح. كانت جيادنا الممتلئة بالحيوية لا تكاد تكبح جماحها. كانت سنة خصبة بشكل خاص.

كانت رحلتنا تقودنا عبر حقول الذرة التي يصل ارتفاعها إلى قامة الرجل. يا له من مشهد غريب قابل أعيننا! كان أمامنا على الأرض خط من الألوان المتلألئة في حركة دائمة. كلما اقتربنا، وجدنا أنفسنا وسط حشد من الجنادب الصغيرة الزاحفة. فوضعت خيولنا الأصيلة رؤوسها للحظة على الأرض ثم رفعت خياشيمها لكي تتخلص من هذه الرائحة الكريهة غير العادية. دفعنا الخيول إلى الركض حتى نهرب بأسرع ما يمكن من هذا الفيضان الكريه؛ ولكن الأرض كانت زلقة حيث غاصت حوافرها الدقيقة في الكتلة الحية الكثيفة. لم نتمكن من التقدم إلا بصعوبة.

وأخيراً وصلنا إلى وجهتنا. ترجلنا، ولكن - يا للهول - كانت هذه الحشرات قد غزت المنزل الذي دخلناه. كان من المستحيل البقاء هناك، كانت الجنادب تزحف في كل مكان، وسرعان ما غطت ملابسنا وأغطيتنا وحتى الطعام الذي أخذناه معنا؛ فامتطينا صهوة الجياد مرة أخرى وتوجهنا إلى شاطئ البحر، وطهرنا أنفسنا من الحشرات بالاستحمام.

عدنا إلى مازاغان. لم يكن هناك شيء آخر يمكن رؤيته من حقول الذرة. كانت المدينة في حالة من الاهتياج الشديد، حيث كانت أسراب الجنادب قد اجتاحتها. كان السكان مذعورين. تم حفر خنادق عميقة على عجل؛ وتم تثبيت شرائح من الصفائح المعدنية على جوانب الخنادق والجدران حتى لا تتمكن الحشرات من التقدم على جوانبها الملساء بحيث يمكن القضاء عليها. تم سحقها وحرقها أو رميها في البحر، حيث كانت الأمواج تقذفها إلى الشاطئ لتسمم الهواء لأيام.

إن هذه الجنادب الصغيرة الزاحفة السريعة النمو أخطر بكثير في عملها التدميري من أسراب الجنادب المنعزلة التي تحجب الشمس فجأة كالسحب الداكنة وتنزل على الأرض كالعواصف الثلجية العنيفة. ليس هذا هو الطاعون الوحيد الذي يهدد الحصاد. فكثيراً ما يتأخر المطر الذي طال انتظاره شهوراً وتستقر الحرارة الحارقة في البلاد؛ أو أن أنفاس ريح الشرقي الصحراوية الحارة تقضي على آخر شيء حي في الحقول.

عندما لا يملك الفلاح الأرض أو البذور، فإن خمس المحصول فقط هو الذي يعود إليه. والضرائب التي تدفع للقواد والشيوخ مرتفعة، وفي السهول يذهب جزء كبير من المحصول إلى السلطات الحكومية. أما الملكية الخاصة للرجل العادي فغالباً ما تكون صغيرة؛ وهي عبارة عن بيت صغير مع رقعة من الأرض أو زاوية من الغابة، ولكنها كبيرة بما يكفي لإطعام المالك البسيط. أما الأغنام والماعز فترعى في أرض مشاع أو أرض الدولة أو النايبة. ولا يكاد يعثر على أي فقر، حتى في المناطق الجبلية. ولا يوجد فقراء إلا أولئك الذين يُطلق عليهم اسم "الشُرَفاء". وهم نوع من النساك الذين يرجع نسبهم إلى الشرفاء الذين فروا يوماً ما إلى الجبال من اضطهاد أعداء الإسلام. وهم يعاملون معاملة الأولياء؛ يتنقلون من قبيلة إلى قبيلة ويعيشون على الصدقات التي يقدمها لهم السكان.

تتجلى في الحياة العائلية وفي أخلاق السكان وعاداتهم نزعة أبوية. فالرجل هو السيد المطلق في البيت، ومشيته المنتصبة وتسلحه الدائم ببندقية طويلة أو بندقية قصيرة وخنجر يعطي المواطن مظهر الاعتداد بالنفس والفخر والكرامة والنبل. وهو يجد جنته على صهوة جواده، ولا سيما عندما ينطلق مع رفاقه من أبناء القبيلة تحت قيادة الشيخ في حملة ضد قبيلة معادية، أو عندما ينطلق في "فنتازيا" وهو مسلح تسليحًا كاملاً ومرتديًا ملابس أنيقة.

أما المرأة فهي خادمة زوجها؛ وإذا نطق الأخير بكلمة في حضور شخص ثالث عن فسخ عقد الزواج، يحصل الطلاق. يقع العبء الرئيسي من الأعمال والمتاعب على عاتق المرأة. فهي تعتني بالأطفال والمنزل والحقول والماشية؛ وهي التي تنسج خيوط ملابس الأسرة.

وعلى الرغم من أن القرآن يبيح الزواج بأربع نساء، إلا أن تعدد الزوجات نادر نسبياً ولا يحصل إلا عندما يكون الرجل قادراً على تحمل ترف تعدد الزوجات أو عندما يحتاج إلى قوة عمل إضافية.

وكثيراً ما يحدث أن الرجل عندما يطلق زوجته لا تغادر الأخيرة في حالة من السخط، بل تبقى خادمة في البيت. ولا يكاد يوجد أي تعليم بالمعنى الذي نقصده نحن بهذه الكلمة، باستثناء تعليم القرآن الكريم، الذي يلقن للأطفال بمجرد بلوغهم سن الرابعة من العمر. وبالتالي، فإن الشيخ وحده هو الذي يستطيع القراءة والكتابة كقاعدة عامة، وهو أيضاً يعفى من هذا الكدح الذي لا داعي له بواسطة كاتب القرية الذي تدفع له القبيلة أجراً مقابل كل ما يتعلق بفن القراءة والكتابة.

كما هو الحال في أماكن أخرى في العالم، تلعب مراسم الزواج دورًا كبيرًا في حياة هذا الشعب. فهو يختلف إلى حد كبير عما هو مألوف في البلاد المسيحية، ونظراً للمكانة الثانوية للمرأة، يصبح الزواج صفقة تجارية لا يكون للعروس فيها نسبيا رأي يذكر. أقارب الخاطب يتوجهون إلى أهل العروس من أجل الحصول على موافقتهم. لا يتقدّم الأب أبدًا بطلب نيابة عن ابنه، بل يتولّى هذا الأمر بالأحرى العمات وأبناء العمومة. وفي المفاوضة لا يستقبل الرجال إلا من قبل أفراد جنسهم، والنساء من قبل النساء فقط. تسبق المفاوضات وجبة طعام مشتركة في منزل والدي الفتاة. وبعد محادثة طويلة حول مواضيع غير مهمة، يقتربان تدريجيًا من السبب الحقيقي للاجتماع. يمنح والد الفتاة يد ابنته أو يرفضها، بعد أن يكون قد ناقش الأمر مع زوجته.

إذا تم الاتفاق، يقرأ الرجال معًا الفاتحة، وهي أول سورة من القرآن الكريم. ثم تستمر المناقشات فيما يتعلق بحجم هدية العريس، والتي تتكون من بقرة وذرة وثياب، حسب أملاكه. وبالطبع، النقود مرحب بها أيضًا. يقدم العريس أيضًا هدية لأقارب العروس ويعدهم بمبلغ من المال، وهو مخصص لتوفير المهر. ويتكون هذا من كتان وملابس، ويتم الاحتفاظ به في علبة تسمى " الصندوق".

وفي اليوم الأول من الاستعدادات للزواج، يقوم العريس، وسط موسيقى صاخبة وإطلاق العديد من طلقات البنادق بجلب الزبد والحبوب والحناء إلى بيت خطيبته. ثم يدخل العريس إلى بيت أهل زوجته. ويفتتح مهرجان الزواج الذي يستمر ثلاثة أيام بوجبة طعام يفصل فيها بين الجنسين، وتتكون من العسل واللحم والحلويات، حيث يكافأ فقيه القرية أيضًا مكافأة سخية على تحرير عقد الزواج.

وفي صباح اليوم التالي، تقوم العروس بتزيين مظهرها عن طريق طلاء يديها وقدميها بالحناء التي أهداها لها العريس، بحيث تبدو وكأنها ترتدي قفازات وحذاء بلون الكستناء. ولا يبدأ الزفاف نفسه حتى اليوم الثالث.

على بغلة، مسرجة بكرسي مغطى بستائر من القماش أو بأوراق الشجر، تُنقل العروس وسط الموسيقى وطلقات البنادق التي لا مفر منها، إلى منزل زوجها المستقبلي، حيث تستقبلها النساء ويقدنها إلى غرفة العريس. وفي صباح اليوم التالي تجلب القرية بأكملها الهدايا. ولا تغادر الشابة غرفتها إلا في اليوم السابع، لتناقش مع أقاربها أمر الزفاف الجميل، وفي النهاية تتولى أعباء الحياة اليومية وكدحها. هل هي بداية الحلم أم نهايته؟

أن يرزق الإنسان بأولاد يعتبره المغاربة من فضل الله تعالى؛ فالمرأة التي لا تنجب أولاداً غالباً ما تُهمل. إذا وُلد ابن، تُذبح دجاجة؛ وعند ولادة بنت يُذبح ديك لإعداد حساء مغذٍّ للأم. في اليوم السابع، وهو يوم العقيقة، يُحتفل بالحدث السعيد في تجمع يضم جميع الأقارب.

الفصل الثاني

الحالة السياسية في المغرب قبل الحرب العالمية (الأولى)

بينما كنت مقيماً في عاصمة البلاد مع الدكتور ويرث وقع حدث سياسي كان له أخطر العواقب على بلاد المغرب وعلى الدول الأوربية المهتمة به سياسياً واقتصادياً.

في أبريل سنة 1904 عقدت فرنسا وإنجلترا اتفاقاً تنازلت بموجبه إنجلترا عن نفوذها في المغرب للفرنسيين، وفي مقابل ذلك حصلت إنجلترا على حرية التصرف في مصر.

وكنت يومئذ صغير السن بحيث لم أستطع أن أدرك الآثار المترتبة على هذا الاتفاق، أما اليوم بعد الحرب العالمية فأهميته واضحة بما فيه الكفاية. فقد كانت فرنسا يومئذ تسعى وراء السيطرة السياسية على شمال أفريقية وليس وراء المنافع الاقتصادية فقط: فقد كان الهدف الرئيسي لسياستها التوسعية في المقام الأول ذا طابع سياسي وعسكري. فقد كانت تحتاج فرنسا في سبيل تحقيق أهدافها الإمبريالية إلى العنصر البشري الذي لم يعد في وسع الوطن توفيره بالقدر الكافي. ومن المؤكد أن الناس كانوا يتحدثون علناً عن التغلغل السلمي في البلاد. أما ما إذا كان النجاح على المدى البعيد سيصاحب محاولة إخضاع البلاد التي يعيش فيها هذا الشعب الحر والمعتمد على نفسه، والذي تعرف على الأسلحة الأوربية وعلى آفات الحضارة الأوربية أثناء الحرب العالمية، فهو أمر مشكوك فيه جداً.

ولا ريب أن ثنائية السيطرة على القارة الأفريقية ستؤدي يوماً ما إلى مشاكل بين الدولتين: إنكلترا وفرنسا، ولن يستطيع حلها إلا السيف رغم كل ما يسود في الوقت الحاضر من مزاج مسالم.

فهل للمغرب إذن من الأهمية السياسية والاقتصادية ما يجعل امتلاكه يؤثر في موازين سياسة الدول الأوربية الكبرى؟ وكيف كانت طبيعة الإمبراطورية الشريفة نفسها؟

إن المغرب ليس بلداً حديث العهد، كغيره من أجزاء القارة الأفريقية، كالكاميرون مثلاً أو دولة الكونغو. إنه يمتلك حضارة قديمة. ولا يفصله عن أوروبا سوى مضيق جبل طارق، وكان حتى في العصور القديمة محل أطماع سياسات التوسع. انجذب الفينيقيون والقرطاجيون إلى هذه البلاد الغنية.

وباعتبارها مقاطعة موريتانيا، فقد كانت لعدة قرون تابعة لروما. وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، نرى الوندال يغزون البلاد في النصف الأول من القرن الخامس. ثم غمرت البلاد أمواج الفتح العربي العاتية. دخل السكان الأمازيغ في الإسلام وظل المغرب حتى يومنا هذا مملكة إسلامية. وعلى هذا النحو شهدت عظمة وانحطاطاً خلال قرون من الصراعات الداخلية. مرة واحدة فقط في العصور الوسطى تمكنت قوة أوروبية، البرتغال، من الحصول على موطئ قدم في البلاد. وحتى يومنا هذا يمكن العثور على أطلال العديد من المباني والتحصينات، خاصة في المناطق الساحلية.

توّج الملك البرتغالي سيباستيان حملة الغزو هذه بمقتله في ساحة المعركة في عام 1578.

كانت البلاد حرة حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما استولت إسبانيا بعد معركة تطوان على أجزاء من الساحل الشمالي للبلاد.

تعهد السلطان الحسن الأول خلال مؤتمر مدريد سنة 1880 بحماية الأوروبيين، ولكنه كان يفتقر إلى القوة التي تمكنه من إنفاذ إرادته في حفظ السلام في هذه البلاد الواسعة التي تساوي تقريباً في مساحتها الإمبراطورية الألمانية.

كانت خصوصية الشعب وطبيعة البلاد من العوائق الدائمة التي تحول دون ذلك. فالسلطان اسميًا هو الحاكم المطلق، وبلاده مقسمة إلى مقاطعات يعين مسؤوليها الإداريين (القواد) بنفسه؛ ولكن القبائل نفسها كثيرًا ما تختار زعماؤها وتعترف بالسلطان، إذا اعترفت به أصلاً، كزعيم روحي لها.

علاوة على ذلك، فإن التركيبة الجغرافية تجعل من الصعب جداً فرض سلطة حكومية مركزية صارمة. فجبال الأطلس تندفع مثل حزام عريض في اتجاه الشمال الشرقي عبر البلاد كلها من أكادير على الساحل الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن هذا الأخير تمتد من الشرق الى الغرب سلسلة جبال الريف التي لا تقل وعورة. والريف الذي أبدى سكانه - الريفيون - المحاربين الأشداء مقاومة عنيدة ضد الغزاة الإسبان. توفي السلطان الحسن الأول عام 1894.

في عهد خلفه الشاب عبد العزيز الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره والذي أذعن للنفوذ الفرنسي، دخلت البلاد في حالة من الفوضى. وأدت الأعمال العدائية التي ارتكبت ضد الأوروبيين في سنة 1897 إلى قيام القوى الأوروبية باستعراض مشترك للقوة، اشتركت فيه ألمانيا بإرسال فرقاطة.

وازداد نفوذ فرنسا، بسبب الحظوة التي كانت تحظى بها لدى السلطان الشاب المتحمس للفرنكوفونية، أكثر قوة.

وبعد الاتفاق الذي تم بين إنجلترا وفرنسا في سنة 1904، شعرت الأخيرة بأنها حرة في أن تفعل ما يحلو لها في البلاد. وقد هاجم وزير الخارجية الفرنسي ديلكاسيه الحكومة المغربية في خطاب شديد اللهجة. كما أثر تقدم النفوذ الفرنسي تأثيراً خطيراً على عمل الرواد الألمان في المغرب الذي بدأ بداية ناجحة على الساحل الغربي للبلاد، كما سيأتي بيانه بالتفصيل فيما بعد.

ثم خرجت ألمانيا من قوقعتها.

ففي أواخر شهر مارس سنة 1905 قطع الإمبراطور الألماني رحلته إلى كورفو ونزل بطنجة ليظهر للعالم اهتمام ألمانيا الاقتصادي بالمغرب المستقل. وقد استبشر جميع الألمان في المغرب بالغرض من زيارته. ومن كان منا ممن له صفة رسمية للقيام بذلك توجه إلى الميناء لتحية عاهلنا. وكان لي أنا شخصياً شرف المشاركة في الاستقبال مع شخصين آخرين من السادة المحترمين كممثلين للجالية التجارية الألمانية في مازاغان.

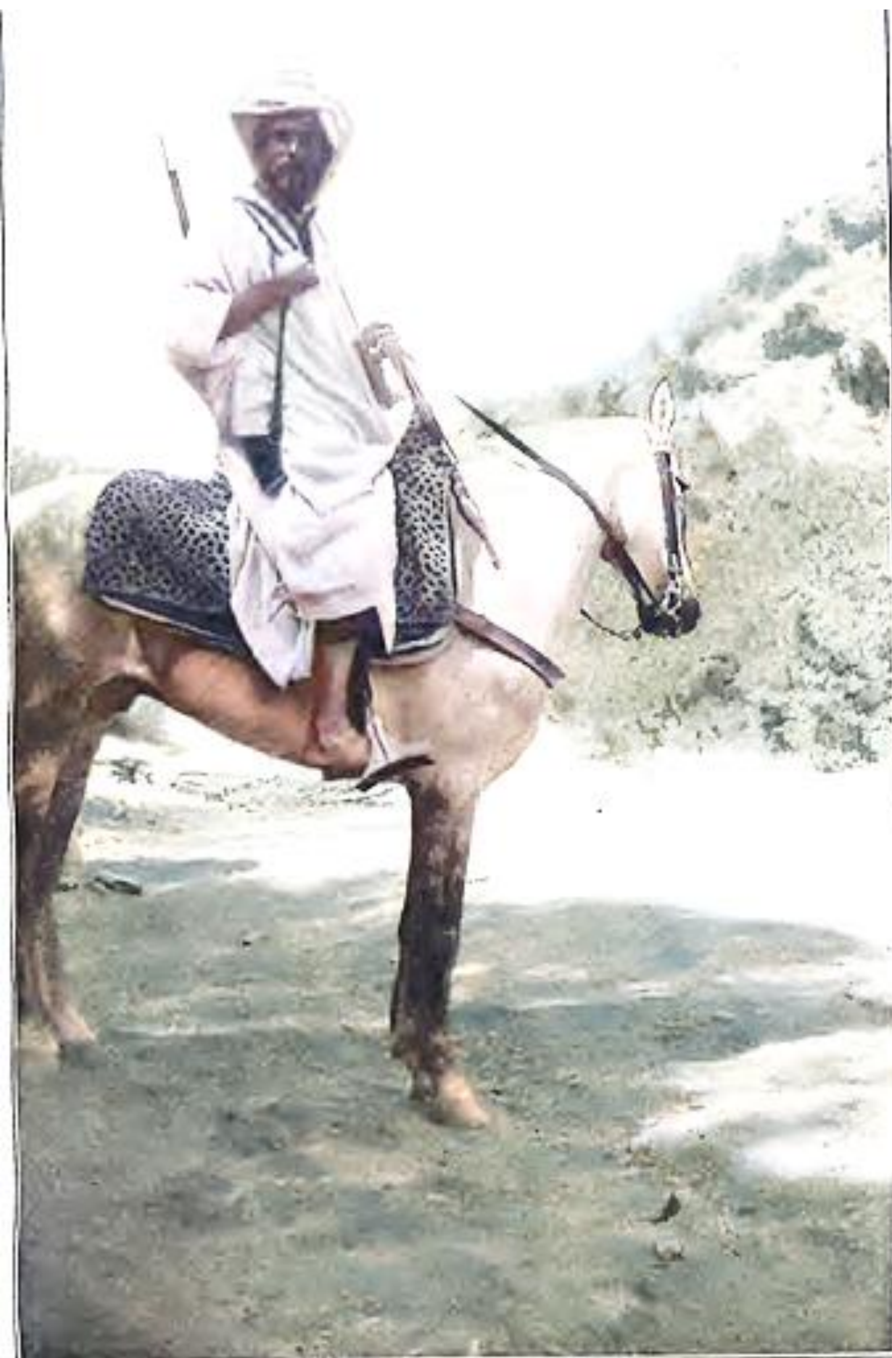




استقبال القيصر الألماني في طنجة



المؤلف



هرمان



ريفيان أمام أثمون



جبارنة 1916/01/27



خيمة عبد المالك الجزائري



معسكر عبد المالك بن محي الدين

"وقرابة الساعة الثامنة تقريباً، اقتربت سفينة هامبورغ ترافقها السفينة "فريدريش دير غروس.

وأطلقت السفن الحربية الفرنسية والإنجليزية والإسبانية طلقات التحية على شرف القيصر. كما دوّى وابل من الصافرات من حصن طنجة القديم. وجاء الرد الألماني أجوف، كما لو أنه قادم من عالم من بعيد. كان ميناء طنجة محجوباً بكثرة الزهور، فقد زينت الجالية الإسبانية المدينة. ومن كل إكليل مزين بالأعلام الألمانية والإسبانية كانت تتدلى لافتة "يحيا الإمبراطور الألماني". كان الرصيف مغطى بأروع السجاد. وساد حماس لا يوصف بين الألمان والإسبان والمغاربة. كان البحر هائجاً. وكان الأعيان المجتمعون للاستقبال قد انتظروا على الرصيف من الثامنة إلى العاشرة. ثم انتشرت شائعة مفادها أن القيصر لن ينزل إلى اليابسة بسبب مؤامرة من طرف الفوضويين ضد حياته. انسحب الأعيان. وحدث ضجيج مفاجئ - كان القيصر قد خطا على بساط الرصيف. دفعت جانبا مصورا فرنسيا كان قد شق طريقه إلى الصف الأمامي. وأسرع الجميع إلى الأمام لرؤية القيصر. أطلق عدة مئات من المغاربة، بما في ذلك مبعوثون من الريسولي، بنادقهم في الهواء. وأحدثوا ضجيجًا يصم الآذان. رافقنا القيصر في شوارع المدينة الضيقة التي كانت مكتظة بالناس وبصفوف القوات الشريفية إلى السفارة الألمانية لحضور حفل الاستقبال الكبير.

ورحب القيصر بوزراء الدولة الشريفة، والممثلين الأجانب، وقبل كل شيء نحن الألمان. لن أنسى أبداً كلماته الودية البليغة. ملأ صدورنا شعور بالفخر. أدركنا أن ألمانيا ستحمي أبناءها في أرض أجنبية.

وكان الحماس عظيماً عندما قال القيصر بصوت جهوري لرئيس الوفد المغربي ممثل السلطان: "إن ألمانيا تعتبر السلطان حاكماً ذا سيادة وستدافع عن استقلال الدولة الشريفة". فاجتاح هذا الكلام البلاد كلها كالشعلة التي ألهبت عواطف الشعب المغربي تجاه ألمانيا وعاهلها.

ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب نقد الملاءمة السياسية لزيارة القيصر لطنجة والتلميح العلني لوجهة النظر الألمانية على لسان القيصر. لقد كان تدخل حكومتنا بالنسبة لنا نحن الألمان تعبيراً عن عظمة وطننا، وهو أمر لا يقدره إلا أولئك الذين كانوا يعيشون ويعملون في أرض أجنبية من أجل رعاية المصالح الألمانية وتقدم ألمانيا الاقتصادي.

وقد كان من دواعي سرورنا العظيم أن السفير الألماني السابق في طنجة الكونت تاتنباخ أرسل في مهمة خاصة إلى السلطان في فاس، حيث عمل بنجاح في سبيل تعزيز المصالح الاقتصادية الألمانية التي ضمنتها معاهدة الجزيرة الخضراء اللاحقة والاتفاق الفرنسي الألماني.

عكرت الاضطرابات الكبيرة صفو الأمن في البلاد في عامي 1907 و1908.

قُتل الدكتور موشان السفير الفرنسي في مراكش بينما كان يرفع العلم الفرنسي. وعندها احتل الفرنسيون مدينة الدشيرة. اجتاحت شعلة الاستياء البلاد بأكملها. وهرب السلطان عبد العزيز المتحمس للفرنسيين من فاس إلى حماية المدافع الفرنسية في الرباط. ونجح السلطان عبد الحفيظ، الأخ الأكبر للسلطان الشاب، في فرض مطالبته الشرعية بالعرش. وبعد أن ألحق هزيمة نكراء بجيش السلطان عبد العزيز الذي أرسله ضده من الدار البيضاء، والذي دعمه الفرنسيون بالمدفعية والضباط، دخل فاس كسلطان.

أسر بو حمارة، وهو ثائر مأجور من قبل الفرنسيين كان قد عكر صفو الأمن الداخلي، وحبس في قفص وعُرض على السكان. وقيل إن جثته ألقيت للأسود.

لم يعترف الفرنسيون في البداية بالسلطان الجديد، وركزوا على إخضاع المنطقة الساحلية. وفي أثناء تقدم مفاجئ للجنرال دماد من الدار البيضاء إلى أزمور، أبيدت في الطريق فرقة من الشرطة أرسلت من مازاغان.

استعاد السلطان عبد الحفيظ السلم والنظام بيد من حديد، ولكن الفرنسيين أجبروه على التنازل عن العرش بعد ذلك. وحل محله في منصب السلطان أخوه يوسف الخانع الذي تولى الحكم بعد ذلك من الرباط كأداة طيعة في يد الجنرال ليوطي والحكومة الفرنسية.

أما السلطان عبد الحفيظ، الذي صادر الفرنسيون أملاكه في نهاية الحرب، مع أن أسرته بقيت مقيمة على الأراضي الخاضعة لفرنسا، فقد ترك البلاد متجهاً إلى إسبانيا. كتب يقول: "أتنازل عن العرش لأستعيد حريتي، فلا أحد يتنازل عن العرش ليعيش بعد ذلك عبدًا. لقد حكمت عائلتي البلاد لثلاثة قرون ونصف. وأرى أنه لا يليق بجنسنا أن نحكم تابعين للفرنسيين. وأنا لا ألوم أولئك الذين يستطيعون فعل ذلك، ولكن بالنظر إلى نسبي الرفيع لا أعتقد أنني أستطيع أن أقبل مثل هذا الذل. وقد عُرض عليَّ 35 ألف دورو لكي لا أتنازل عن العرش: أربعة ملايين لنفقات الأسرة، ومليونان لدفع أجور الجنود والموظفين. كما وعدوني بعدم التدخل في حياتي الخاصة. لم أوافق، لأن ذلك كان يعني ضمناً الخضوع لنظام أجنبي. وبدلاً من أن أخدع شعبي تنازلت عن العرش. أفضل الفقر على الغدر بقومي. سيعرف المسلمون كيف يقدّرون سلوكي. أنا مدمر وأعرف أنني لن أرى عائلتي مرة أخرى. الأمر سيان لقد أديت واجبي كما يتطلبه شرفي وديني".

كانت كلمات فخر واعتداد بالنفس لأمير لم يكن من السهل عليه بالتأكيد أن يترك سهول المغرب حيث كان السلطان والقواد على جيادهم الأصيلة وصقورهم وكلاب الصيد يطاردون الغزلان؛ بلاد حقول الأرز والذرة التي لا حدود لها، والغابات وأشجار اللوز والحدائق التي ينمو فيها البرتقال والرمان والعنب والجوز والبطيخ والتمر بوفرة. وكان الفرنسيون يدركون جيدا ما كانوا يفعلونه عندما قايضوا مصالحهم في مصر باستغلال هذه الأرض الغنية أيضا بالذهب والفضة والحديد والنحاس.

وهكذا كان لا بد للمغرب أن يصبح فرنسيًا، وذلك لضمان نجاح الحرب التي كان يجري الإعداد لها ضدنا. إن مغرباً معادياً لفرنسا، كان سيجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل الاحتفاظ بالجزائر أثناء الحرب. كما أن فرنسا كانت ستمنع من تحويل أعداد غفيرة من المغاربة إلى أوربا للعمل كجنود وعمال في المصانع والحقول. كما أن فرنسا لم تكن لتحصل على إمدادات غير محدودة من الذرة.

الفصل الثالث

المصالح الاقتصادية الألمانية في المغرب قبل الحرب وموقفي الشخصي

على الرغم من الفوضى الداخلية التي ذكرتها والمنافسة الفرنسية، فقد ازدهرت التجارة الألمانية في المغرب بشكل ملحوظ في الفترة ما بين زيارة القيصر والحرب العالمية الأولى.

تزايد عدد السفن التجارية الألمانية في الموانئ الغربية للإمبراطورية الشريفة، ولا سيما في مازاغان، الدار البيضاء، الرباط، أسفي وموغادور، حيث كانت أعمال دور التصدير والاستيراد التجارية الهامة تزداد عاماً بعد عام. وكان لشركة مانسمان، على وجه الخصوص، دور كبير في نشر روح المبادرة الألمانية كقوة حضارية.

كان الدكتور راينهارد مانسمان أول أوروبي يحصل على امتياز التنقيب عن المعادن من السلطان عبد الحفيظ.

وفي أثناء تنفيذ هذا الامتياز تم اكتشاف العديد من مناجم الخام من قبل العديد من الفرق التي أرسلتها الشركة للتنقيب في المناطق الداخلية، وغالباً ما كان يتم ذلك في ظل أصعب الظروف، سواء من حيث التضحيات المالية أو من حيث المخاطر التي تهدد الحياة. كما حققت الشركة نجاحاً كبيراً في أعمالها الزراعية.

وبمناسبة زيارتي لإحدى المزارع النموذجية استطعت أن أقنع نفسي بالاهتمام البالغ الذي كان الأخوان مانسمان يوليانه لتنمية البلاد.

كانت المزارع مجهزة بالكامل على النمط الأوروبي. ففي عام 1908، أحضر السيد ألفريد مانسمان الذي كرس نفسه بشكل رئيسي للمزارع الكبيرة من بين أشياء أخرى شحنة كاملة من الحيوانات من أوروبا إلى المغرب، وتبع ذلك العديد من الشحنات الأخرى. وهكذا تم إدخال الفحول وثيران التوليد السويسرية والهولشتاينية، وأغنام الميرينو والخنازير والدواجن بجميع أنواعها. وأدى تهجين الماشية بالحيوانات المحلية في بعض الأحيان إلى نتائج مذهلة.

كانت مساحة الأراضي التي تعود ملكيتها للأخوين مانسمان وشركة مانسمان، والتي كانت منتشرة في جميع أنحاء المغرب وشملت أيضًا مناطق حضرية وموانئ مهمة، تساوي تقريبًا مساحة بافاريا. وعلى كل هذه الأراضي التي كانت تسقى جزئيًا لم يكد ينقص أي نوع من الفاكهة.

بالإضافة إلى ذلك، تم القيام بأعمال التشجير على نطاق واسع. وزراعة القطن والكرمة في مزارع مختلفة. وفي السنوات الأخيرة قبل الحرب تم إنشاء عدد من المشاريع الصناعية، مثل طواحين كبيرة للذرة والزيت، وورشات النجارين، ومحلات التصليح الميكانيكي، وكذلك ورشات السرّاجين.

ثم دخل التاجر الألماني بعد ذلك في منافسة سلمية مع الشركات التجارية الإنجليزية الكبرى مثل لامب برازرز وموردوخ وبتلر وشركائه وفيرنان وشركائه. وأخص بالذكر هذه الشركات التجارية الإنجليزية، لأنها أظهرت بعد اندلاع الحرب موقفاً طيباً تجاهنا يتناقض بشكل ملحوظ مع موقف الآخرين، وتدخلت بشكل خاص لصالح الألمان المسجونين.

أما بالنسبة لي، فإن أنشطتي في مازاغان ومراكش خلال هذه السنوات لم تخل من فوائد. فقد مكثت في المغرب بشكل شبه متواصل لمدة عشر سنوات تقريباً، وأصبحت على دراية تامة بالبلاد والعباد.

وكثيرا ما كنت أتمكن من التوفيق بين الأوربيين والسكان المحليين في داخل البلاد التي لم أعد غريباً عنها. وفي سنة 1912 تزوجت بامرأة إنكليزية هي ابنة القنصل في مازاغان، وزرنا معاً أخي في الكاميرون وسافرنا إلى لندن، ثم نويت العودة إلى المغرب لأقيم بيتي الخاص. وبقيت زوجتي في البداية في لندن.

وتحت حماية خاصة من رجال فرنسيين وإنجليز ذوي نفوذ، بدأت مشروعاً تجارياً خاصاً بي في الرباط والقنيطرة على الساحل الغربي للمغرب، وبفضل معرفتي بالبلاد، تكلل مشروعي بالنجاح سريعاً. كنت، بالإضافة إلى ذلك، وكيلا لخطوط البواخر، وكنت على وشك طرق ابواب الملاحة النهرية.

ومن خلال علاقاتي الممتازة حصلت على أراضٍ ومنازل ومقرات. كنت في علاقة جيدة مع الإنجليز والفرنسيين، بحيث بدا لي أن مشروعي في الرباط كان يستند إلى أسس متينة. كان هذا المكان في ذلك الوقت ميناءً مهماً، وهو يقع على الجانب الأيسر من مصب نهر أبي رقراق مقابل مدينة سلا على بعد 50 كلم شمال شرقي الدار البيضاء.

إن شريط النهر ضحل وخطير للغاية ولا يمكن عبوره لعدة أيام. ومن المعالم البارزة التحصينات القديمة للمدينة وكذلك المنشآت الساحلية التي بنتها روتنبرج الألمانية، ومن المعالم الأخرى الجديرة بالمشاهدة القناة التي يبلغ طولها 24 كلم وصومعة حسان الشهيرة التي تشبه الخيرالدا في إشبيلية.

وغير بعيد عن الرباط توجد أطلال شالة حيث استقر القرطاجيون ذات يوم.

بلغ عدد سكان الرباط حوالي 40.000 نسمة، منهم 4000 يهودي وبضع مئات من الأوروبيين دون احتساب القوات العسكرية الفرنسية. وقد اشتهرت المدينة بصناعة السجاد والحصير الأصيل، وكذلك النعال الجلدية المغربية المطرزة بالذهب والفضة.

وقبل الحرب كان الجنرال الفرنسي ليوطي قد اختار الرباط الجميلة بحدائقها الرائعة مقراً لإقامته، وأقام فيها مضماراً رائعاً لسباق الخيل.

تقع مدينة سلا قبالة الرباط على الضفة اليمنى للنهر، وهي حاضرة قديمة للقرطاجنيين. كانت المدينة في السابق مشهورة بالجهاد البحري حيث كان المجاهدون يجدون فيها ملجأً آمناً. وحتى سنوات قليلة مضت لم يكن مسموحاً لأي أوروبي أن يعيش في سلا، لأن البلدة كان يسكنها مغاربة متشددون. عدد سكانها حوالي 20,000 نسمة.

كانت العلاقات بين الأوروبيين ذات طابع ودي؛ وبدا لي أن كل خططي المستقبلية في طريقها إلى التحقق.

ثم جاءني خبر مقتل ولي العهد النمساوي كالقنبلة الموقوتة. كنت أعتقد أن إنجلترا ستحل المشكلة. غير أننا سرعان ما رأينا من خلال تصرفات الفرنسيين أن اندلاع حرب عالمية لم يعد من الممكن تفاديها.

ووصلتنا الأخبار المثيرة الواحد تلو الآخر. بذلت مساعٍ رسمية لطمأنتنا. كانت الشوارع مليئة باللافتات التي تقول "التعبئة ليست حرباً". لكن سفن القوات الفرنسية كانت راسية. تم إنزال أول 30 ألف رجل. ورأيتهم قادمين إلى الميناء؛ وكان من بينهم العديد من جنود اللفيف الأجنبي. عدت بأفكار خطيرة جداً إلى مكتبي للصلاة من أجل وطني.

ومن المسجد صدح نداء المؤذن: "الله أكبر".

الفصل الرابع

الأسر والخزي الفرنسي

حلّ فجر الحادي والثلاثين من يوليو 1914. كان العالم يترنح. حتى في الرباط، طغى اندلاع الحرب على كل شيء آخر. " تحيا فرنسا! " ومرة أخرى "تحيا فرنسا! " كانت هذه هي الصرخة التي تعالت في الشوارع .مرارًا وتكرارًا

وجدت نفسي مع نحو ثمانية من الألمان في مقهى كان مكتظاً بالضباط والمدنيين الفرنسيين. صاحت في " !اتجاهنا سيدات إنجليزيات: "حظاً سعيداً لألمانيا

فضّلنا أن نعود إلى منازلنا تفادياً للنزاع. فكرت فيما يجب القيام به. لن أستطيع الوصول إلى ألمانيا. وكان .الشيء الوحيد الملائم الذي يجب القيام به هو التوجه إلى داخل البلاد، ولكن حدث خلاف ذلك

وفي اليوم التالي عزمت على أن أرتب أموري التجارية حتى أتمكن من الفرار في ليلة الثاني والثالث من .أغسطس

ذهبت في المساء إلى سلا لمقابلة تاجر مغربي كنت على معرفة جيدة به، وكنت أنوي أن أطلب منه أن .يعتني بوثائقي أثناء غيابي

أثناء وجودي معه كنا حتمًا نتطرق إلى الحديث عن حالة الحرب. كنا نشرب الشاي عندما انضم إلينا تونسي كنت أعرف منذ سنوات أنه عميل للشرطة الفرنسية. أول ما قاله كان " ألمانيا المسكينة! " أجبته : " مسكينة فرنسا ! " وسألته عما إذا كانت الحرب قد أعلنت بالفعل. فأنكر ذلك؛ ولكن الفرنسيين كانوا قد استولوا في أول غشت على البريد الألماني وهو في طريقه من فاس. وزعم كذلك أن ألمانيا ستُسحق ككتاب منسوخ، .وأنه لا توجد ثغرة يمكن أن نتسلل منها. ضحكت عليه

وتجمع المزيد من العرب حولي وأعربوا عن آراء مختلفة. ولكي أضع حداً للنقاش قلت لهم: "ماذا تريدون " ! أيها المسلمون؟ لقد كان الألمان أصدقائكم منذ وقت طويل! هذا الكتاب المنسوخ سيكسر أي مطبعة

.ثم نهضت من مكاني وذهبت إلى منزلي لأستعد لرحلتي، ولم أكن أظن أن هذا الحديث سيجلب عليَّ كارثة

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كنت أكتب رسالة الوداع إلى زوجتي في لندن، سألني خادمي إن كان في وسعه أن يدخل ضابطاً فرنسياً. ففكرت على الفور في كلماتي غير المؤذية التي قلتها بالأمس في حضور أحد عملاء الشرطة. لم يكن هناك خيار آخر سوى دعوة الضابط إلى غرفتي. عرضت عليه كرسياً وسألته .عما يريد. فظل واقفاً وأمرني بلهجة مهذبة أن أرافقه إلى رئيس الشرطة الفرنسي

."وعندما سألته عما إذا كان يعرف القنصل الألماني، أجابني بضحكة ساخرة: "القنصل الألماني لا وجود له

أخبرته أنني سآتي حالما أنتهي من رسالتي. وهذا ما لم يكن ليتحمله. تم اقتيادي بعيداً تحت الحراسة. وبعد وصولي إلى مكتب رئيس الشرطة بفترة وجيزة بدأ التحقيق. تم استدعاء عربي وتونسي كشاهدين. تمت الإشارة إلى المحادثة التي جرت في سلا. أكد التونسي أنني قلت: "إن ألمانيا ستدخل الحرب بسبب المسلمين". وعندها تم استجواب العربي كشاهد. فنفى أقوال التونسي نفياً قاطعاً. وحتى عندما هدده رئيس الشرطة بسجنه، أصر الرجل الصادق على أقواله. ثم اقتيد إلى خارج غرفة الفحص، وبذلت جهود كبيرة لحمله على الشهادة ضدي.

وبعد ربع ساعة أُحضر مرة أخرى؛ وبُذلت مرة أخرى محاولة لإجباره على الشهادة ضدي، فصرختُ بسرعة في حضور قاضي التحقيق "يجب أن يقول الحقيقة كاملة وليس لديه ما يخشاه".

طُلب مني أن أمسك لساني إن لم أرغب في أن يتم اقتيادي فوراً. وبما أنهم لم ينجحوا في انتزاع أي شيء منه، فقد تم صرف الشاهد العربي وجيء بشاهد آخر.

وتكرر نفس المنظر، إلا أن هذا العربي بعد أن تم تعنيفه خارج غرفة التحقيق، شهد ضدي.

فَغَضِبْتُ وَصَرَخْتُ: "إنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ عَارٌ. إن التونسي لا يريد إلا أن يكسب رزقه من الشهادة، أما أنت فتستطيع أن تطلق عليَّ النار دون كل هذه المهاترات! لا يمكنني العودة إلى ألمانيا، ولكن هذا في حد ذاته ليس خسارة كبيرة، لأن فرداً واحداً مثلي لا يمكن أن يحدث فرقاً في أمة قوية قوامها سبعون مليوناً".

فأجابوني مستهزئين بأنني يجب أن أدرك أن ألمانيا قد ضاعت، لأن : "أنجلترا، والأمة الكبيرة، وفرنسا، وروسيا"، كانوا ضدنا.

فما كان مني إلا أن رددت على ذلك: "لقد نسيتم أمريكا والخويخوئيون[2]".

وعلى هذا النحو تم اعتقالي وأنا أرتجف من شدة الغضب من احتجازي بهذه الطريقة الحقيرة.

وبعد ساعة بدأ الاستجواب الثاني؛ وكان هذا الفصل الثاني من مسرحية هزلية تم التلاعب فيها بحياة إنسان بطريقة مشينة. وفي حوالي الساعة السادسة قال قاضي التحقيق: "أربعة شهود حاضرون هنا، وهذا يكفي". أدركت في الحال أن حياتي على المحك وأجبته: "شاهدان لي وشاهدان ضدي! " وعندها قال : ' سوف نرى".

ألقي بي مرة أخرى في السجن.

وفي اليوم التالي تم اقتيادي إلى قصر العدالة، حيث تم تحرير المحضر. وقيل لي بلهجة ودية أن أعترف بكل شيء؛ ولن يترتب على ذلك أي شيء آخر. كنت حريصاً جداً على عدم الاستجابة لهذه الدعوة.

ثم حدث ما لم أسمع به من قبل. فقد عُرضت عليَّ مذكرة توقيف مع صورة فوتوغرافية زُعم أنها تمثلني: يفترض أني قتلت ضابطاً فرنسياً في باريس سنة 1912.

[2] هم مجموعة عرقية من الخويسانيين يتواجدون في جنوب غرب أفريقيا في ناميبيا بالتحديد، عاشوا كمجموعات رُحل تعتاش على تربية المواشي.

وأبلغت قاضي التحقيق أنه صحيح أنني في السنة المذكورة، بصحبة حماتي، وهي سيدة إنجليزية محترمة جداً، أقمت بعض الوقت مع قبطان فرنسي، ولكن الزعم بأنني قتلت ضابطاً فرنسياً هو أكثر الافتراءات جنوناً.

ثم كان علي أن أوقع على وثيقة طويلة، وبعد ذلك اقتيدت بعيداً.

تم اقتيادي إلى قصر العدالة، حيث تمت تسوية الأمر مؤقتاً.

لم تعد صور زوجتي وطفلي في زنزانتي عندما عدت.

وبعد بضعة أيام، بصحبة ألمان آخرين من سكان الرباط وفاس، أحضروني إلى الدار البيضاء، حيث كان العديد من مواطنيّ في منزل السيد كارل فيكي وحديقته. وهنا للمرة الأولى تم نهبي علناً، وتم اقتياد الدكتور هولزمان على وقع إهانات جسيمة. وبعد أيام قليلة حشرنا جميعاً على متن باخرة كانت ترافقها باخرة ثانية تحمل ألمان من مازاغان وأسفي وموغادور، وترافقها طرادتان، ثم انطلقت من الرباط إلى وهران في الجزائر.

وخطر ببالنا فكرة الاحتيال على قبطان الباخرة في الطريق، والهروب عبر المنطقة الأسبانية إلى مالقة أو مليلية، عندما غادرتنا الطرادات المرافقة بعد اجتياز مضيق جبل طارق.

وكان في وسعنا أن نتغلب بسهولة على الحراس القلائل الذين كانوا على متن الباخرة؛ ولكن ضخامة المسؤولية تجاه العدد الكبير من النساء والأطفال الألمان اضطرنا في النهاية إلى التخلي - مع الأسف - عن هذه الخطة المعقولة.

وضعت أملي الأكبر على الجزائر. وقبل الساعة العاشرة صباحاً بقليل وصلنا إلى ميناء وهران الفرنسي. ورأينا باخرة بعد الأخرى محملة بالجنود تغادر الميناء، وأدركنا بغضب مكتوم أن هذه الآلاف من الجزائريين السكارى الذين يصرخون "تحيا فرنسا" قد أرسلوا إلى فرنسا من أجل محاربة وطننا الأم.

عند الظهيرة غادرنا الباخرتين. كان علينا أن نصطف في طابور من أجل أن يتم نقلنا إلى محطة السكة الحديدية. وقد أمرنا صراحة أن نأخذ معنا جميع أمتعتنا المحمولة وخاصة مجوهراتنا وأموالنا. قد تعرَّضنا للسخرية والإهانة من قبل الجنود وسائقي سيارات الأجرة والضباط وعمال النظافة، وحتى الحراس الذين كان من المفروض أن يحمونا من غوغاء وهران.

بعد عشر دقائق من المسير توقفنا، على ما يبدو لإعطاء الغوغاء المزيد من الوقت للتجمع، وألقيت علينا أول حجارة. كانت هذه بداية الرشق بالحجارة والنهب العام.

حملت محفظة السيدة أوبيتز القادمة من الدار البيضاء. مرت عربة تحمل امرأة فرنسية. ضربنا السائق بسوطه. لم يعد بالإمكان كبح جماح الغوغاء فاندفعوا نحونا.

تلقى رفيقي لكمة في الوجه، ثم ركلة في البطن، كانت عنيفة لدرجة أنه لم يستطع الوقوف من شدة الألم.

كان العلم الفرنسي مرفوعاً أمامي، وقد دُعيت بصوت عالٍ لأصرخ "تحيا فرنسا! " لكن ضغط الذين كانوا يضغطون من الخلف أنقذني من الامتثال لهذا الطلب المقبول.

تلقى الرجل الذي كان أمامي ركلة في بطنه وضربة على رأسه من هراوة. حافظنا على اصطفافنا، مستسلمين رغم الغضب الشديد.

ثم تم سحب مسؤول ملفنا بعيدًا. كان من المستحيل مساعدته. أنا نفسي ضُرِبتُ على وجهي بحجر كبير كالصفيحة، وعلى يساري كنت مشغولاً بدرء الركلات والهراوات. وقد اضطررت للتضحية بمعطفي وقبعتي.

وبعد لحظات رأيت كارل فيكي القادم من الدار البيضاء ملقى على الأرض، وهو مثخن بالكدمات والدماء.

ثم بدأت معركة شرسة: وتساقطت الضربات بالهراوات والقبضات بشكل كثيف كالبَرَد. وكانت أواني الزهور تتساقط من الأسطح. كانت هناك كومة من الحجارة ملقاة في الشارع، مخصصة لأغراض البناء. تقدم الغوغاء نحوها واستخدموا الحجارة كقذائف ضد السجناء العزل.

أصبح الممر الذي اضطررنا إلى المرور عبره وسط الغوغاء المتجمهرين أضيق فأضيق. لم نتمكن من العبور إلا فرادى؛ كان الأمر أشبه بعملية اعتوار! وفي النهاية أصبحت محطة السكة الحديدية على مرمى البصر، ولكن الغوغاء أسرعوا في المقدمة وسدوا طريقنا وهم يصرخون: "لا يجب أن يصل أحد منهم إلى المحطة حياً!"

اندفاعة يائسة أخيرة واختراق. وصلنا أخيرًا إلى المحطة ونحن ننزف من جروح عديدة ومتعبين للغاية. ولكن حتى هذه اللحظة كان المطاردة مستمرة، على الرغم من أن جميع الرجال ما عدا ثلاثة منهم كانوا ممددين على الأرض من شدة الإعياء.

ودُفع اثنان من الذين بقوا واقفين جانباً وأُجبروا على غناء النشيد الوطني الفرنسي. أما السيد جيزه فقد تحطمت أسنانه وتورمت شفتاه لدرجة أنه كان من المستحيل سقيه الماء.

أما السيد فيدر، وهو برليني، فقد فقد عقله مؤقتًا. وظل يناديني بـ "عزيزي الطبيب"، وظن أننا في محطة سكة حديد برلين.

كان السيد يوليوس بوك، المنحدر من هامبورغ، يرقد وهو يحتضر بين ذراعيّ أنا والسيد فوك. وخلفنا في عربات النقل، جاءت النساء والأطفال الذين تعرضوا أيضاً لأفظع الإهانات وسوء المعاملة في الطريق. لم نتمكن من تقديم أي مساعدة لهم في محطة السكة الحديدية حيث كانت تفصلنا عنهم حراب عسكرية مدببة.

اعترضني ضابطان وقالا لي إنني لم أكن قد أصبت بعد بما فيه الكفاية؛ وعندما رددت عليهما بأنهما كانا شجاعين جدا ضد أسرى ونساء عزل، ولم يرتدعا عن سوء التصرف إلا مجبرين. وكان السبب في ذلك هو النقيب الذي كان قد وصل لتوه وكان ساخطًا حقًا على ما حدث في وهران. ومع ذلك، فقد كان، على أية حال، استثناءً بين مواطنيه.

بعد ساعة كنا جميعاً مجمعين في شاحنات نقل الماشية في طريقنا إلى ناحية تلمسان الواقعة داخل الجزائر.

أثناء الرحلة اضطر قنصل الدار البيضاء براندت إلى النزول في محطة سيدي بلعباس، ولاحظت أن الرجل العجوز كان مصفد اليدين. وعلمت فيما بعد أنه حكم بالسجن لمدة عشر سنوات أو الإعدام، وهو المصير الذي لحق بالعديد من التجار الألمان الآخرين من الدار البيضاء.

ولدى وصولنا إلى تلمسان تم إيواؤنا في إسطبلات حيث بحثت عدة نساء عن أزواجهن دون جدوى.

بعد ثلاثة أيام تم نقلنا في شاحنات إلى سبدو، حيث تم احتجازنا في معسكر للأسرى، ونهبنا بطريقة مخزية للغاية من قبل الملازم توبييه.

صحيح أننا كنا في مأمن من سوء المعاملة، لكن فترة معاناتنا لم تكن قد انتهت بعد.

وُضعت في زنزانة انفرادية لأنني رفضت تنظيف مدخل مسكن القائد. تملكني الغضب والكراهية - خطوت خطوتين إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء في الغرفة الصغيرة حتى تعبت واستلقيت على السرير الخشبي لأنام. من نومي المضطرب أيقظني رفقاء الزنزانة، الفئران التي كانت تبحث عن فتات الخبز. سخرية القدر المريرة! كتبت إلى حماتي في لندن أن الفرنسيين بمجاملتهم المعروفة قد وضعوا قلعة تحت تصرفي الخاص، حيث لا يمكن لأحد أن يزعجني. فتمتعت بهدوء مبهج للغاية، كان طعامي يؤتى به إلى القلعة، وكان يزورني يومياً فأر صغير.

لم تفهم السيدة الطيبة روح الدعابة التي كنت أتحلى بها وصدقت هذه الشهامة الفرنسية!

في النهاية تحررت من هذا الحبس الانفرادي وانضممت إلى الآخرين في الثكنة الكبيرة.

كنا نشتغل في جميع أنواع الأعمال؛ كان علينا أن نقطع الأشجار ونقيم الأسوار ونكنس الشوارع.

وكم من مرة كنت أستعرض في الشوارع كـ"حصان عربة القمامة" وأنا مقيد بلجام مع السيد فونكه البرليني بصحبة ألمان آخرين مزودين بالمكانس والمعاول ويرافقهم الزواف[3] المدججين بالسلاح! ومع ذلك لم يكن هذا العمل أقذر الأعمال؛ فقد كان يحسدنا بالتأكيد في عملنا الطبيب الألماني كوبيرس الذي كان يرافقنا بالمكانس والدلو وهو في طريقه لتنظيف المراحيض.

توفي الدكتور دوبرت، وهو طبيب كان يحظى باحترامنا جميعاً، بعد ذلك بوقت قصير، نتيجة لسوء المعاملة التي تلقاها. تم نقله إلى الدار البيضاء مع العديد من السجناء الآخرين. وهنا تم إطلاق النار على السادة فيكيه وغروندلر وموظف بريد شاب دون وجه حق.

وأجبر القنصل الألماني المسن على جمع الحجارة في الحر الشديد.

ولكن هل كان من الممكن توقع معاملة أفضل من هذه المعاملة من فرنسا، تلك الأمة التي يقال عنها أمة الشهامة والتي كانت تتباهى بأنها الحاضنة الوحيدة للحضارة؟

---

[3] الزواف تسمية أطلقت على فئة من أفواج المشاة الخفيفة في الجيش الفرنسي خدمت بين عامي 1830 و 1962 وارتبطت بمنطقة شمال أفريقيا الفرنسية بالإضافة إلى بعض الوحدات من الدول الأخرى التي تشكلت على نفس النمط. كانت الزواف جنبًا إلى جنب مع السكان المحليين (يشكلون فرق الرماة الجزائريين).

في الكاميرون، كانت قد أصابتني حمى الملاريا التي تفشت فجأة في سبدو. أرسلت طلبًا إلى الطبيب العسكري الفرنسي للحصول على الكينين.

فجاءني في غضب شديد وسألني ساخراً إن كنت أميراً. فأجبته بالنفي وقلت له: (أنا نفسي نادم على ذلك)، وأضفت إلى ذلك أن ارتفاع درجة حرارتي يمنعني من الذهاب إليه بنفسي. فأجابني بأن مرضي ليس خطيراً، وأنه يجب أن آتي إليه كل صباح؛ وإلا فإنه سوف يأمر بمعاقبتي. وفي النهاية أرسل لي بعض الكينين.

وبعد ثمانية أيام أصبت بنوبة حادة من الإنفلونزا. ذهبت هذه المرة إلى الطبيب بنفسي للحصول على الأسبرين. استقبلني بطريقة ودية للغاية. كان عليّ أن أكشف عن صدري لفحصه. وما كدتُ أفعل ذلك حتى أخبرني دون أن يفحصني أكثر من ذلك، بأنني لا أعاني من شيء وأنني لستُ مريضاً. فشكرته على عنائه وعدت إلى مسكني وركبتاي ترتجفان لدرجة أنني بالكاد استطعت أن أبقى واقفاً.

كانت نتيجة زيارتي للطبيب عقابًا لي بالحبس الانفرادي لمدة أربعة عشر يومًا في غرفة مساحتها ستة أقدام مربعة فقط، بدون نافذة.

في هذه الزنزانة المظلمة اتخذت خطتي للهروب التي فكرت فيها طويلاً شكلاً واضحًا، وعزمت على تنفيذها دون تأخير.



معسكر الأسرى في سبدو



ميناء مليلية

الفصل الخامس

الهروب

وما كدت أعود من الحبس الانفرادي إلى المقر العام حتى شرعت في تنفيذ الخطة التي كانت ستحررني من هذا الجحيم.

في إحدى الليالي غادرت المعسكر سراً وتناولت العشاء في قرية مجاورة مع أحد الجزائريين، الذي أطلعني على الأحداث السياسية الأخيرة، وأخبرني من بين أمور أخرى عن الثورات المقموعة في الجزائر.

وبعد أن بقيت معه بضع ساعات تسللت عائداً إلى المعسكر دون أن يلاحظني أحد. كنت أقضي كل لحظة فراغ في ممارسة التمارين الرياضية من أجل تحضير جسدي للتعب القادم.

كنت قد ناقشت أمر الهروب مع عشرة أسرى ألمان آخرين، لكنهم كانوا مترددين وأرادوا الاستمرار في تأجيل المحاولة. لقد أدركت بوضوح خطورة التأجيل، فقد كان من المحتمل جدًا أن يصبح حراسنا أكثر صرامة في الرقابة، أو أن يتم نقلنا إلى معسكر آخر.

في 2 أكتوبر 1915، دعوت الرجال للفرار معي في الحال. وكان في حوزة أحد النمساويين بوصلة وخرائط، وكانتا من أثمن الأشياء للفرار في بلد أجنبي. توسلت إليه للحصول عليها، لكن دون جدوى. فقد كان يخشى أن يقبض عليَّ أثناء فراري فيقع في ورطة خطيرة بصفته صاحب الأدوات.

ولم يكن هناك سوى شخصين فقط هما غوستاف فوك وثيلو ميلر اللذين أعلنا استعدادهما للفرار معي في الليلة القادمة بقصد الوصول إلى الأراضي الإسبانية. يجب أن ترشدنا الشمس والقمر والنجوم إلى الطريق.

كنت مرة أخرى مصابًا بالحمى وضعيفًا جدًا لدرجة أنني كنت أقف بصعوبة. عندما حل المساء كنت جالسًا أمام مسكني. كانت الخطوط العريضة للجبال البعيدة مغرية؛ وكان الدّب الأكبر يسطع واضحاً في السماء. نهضت من نومي، ودخلت إلى مسكن أحد زملائي السجناء، وطلبت منه كأساً من النبيذ، فتجرعته وشعرت بتحسن. لم يؤخذ عزمي على الهرب على محمل الجد، ونُسبت إليّ أفكار مجنونة بشأن الهروب. لم يعرف سوى أربعة سجناء فقط أنني كنت أنوي تنفيذ قراري.

في الساعة التاسعة مساءً، نفخ البوق للاستعراض. عدت إلى مسكني. وقفنا جامدين. مر بنا الرقيب ونادى علي : " إنتبه يا بارتلز "

عندما ذهب دخلت إلى غرفتي التي كانت مقسمة بالقماش، وذهبت إلى النافذة. كانت ثكنات الزواف على بعد أكثر من ثلاث أمتار بقليل. رميت من النافذة كيساً معداً مسبقاً كنت قد خبأت فيه بعض الملابس ورغيفين من الخبز وزجاجة نبيذ ممزوجة بالماء.

ضحك الزواف الذين كانوا واقفين أمام ثكنتهم، لأنهم ظنوا أن الكيس سقط من النافذة بسبب الإهمال، وسمحوا لي بالخروج لاسترجاعه.

وبدلاً من أن أعود من الباب إلى الثكنة، ركضت مباشرة عبر أرض المعسكر، وفي الظلام مررت لحسن الحظ بأحد الحراس المرابطين في الزاوية. ألقيت بنفسي على الأرض بينما كان اثنان من الحراس يمران من المكان على بعد بضعة أمتار فقط.

لم يكد وقع أقدامهما يتلاشى حتى بدأت أتحسس طريقي على طول السياج الذي يحيط بالمعسكر، وبعد وقت قصير تسللت من خلال فتحة كانت قد شقت في الحظار[4] إلى الخارج.

في هذا المكان كان هناك خندق قديم. زحفت، مرة أخرى على أربع، إلى قاع الخندق، حيث كان من المقرر أن أنتظر رفيقيّ في السفر، فوك ومولر.

ومرت نصف ساعة ولم يتحرك أي شيء، ما عدا الحراس الذين رأيتهم يمرون أمامي عدة مرات، وقد بدت لي ملامحهم في الظلام. وأخيراً سمعت صوتاً في الخندق ورأيت ما يشبه رجلاً مستلقياً بجانبي. ضغط على يدي. كان حليفي مولر. وكنا قد استلقينا حوالي عشر دقائق عندما ظهر شخص فوق الخندق ثم هرب مسرعاً بعد أن رآنا.

فظننا أننا انكشفنا وأن كل شيء قد ضاع؛ وبصعوبة كبحتُ جماح موللر من التسلل إلى المعسكر، ولا سيما أن كلمة (أطفئوا الأنوار) كانت قد دوت للتو في المعسكر، فظنها من فرط انفعاله إنذاراً، كما توهم شهاباً عجيباً أضاء المكان كله كقذيفة مضيئة.

ثم سمعنا نداءً خافتاً وصافرة.

سحبت مولر للأعلى. ركضنا على طول الخندق؛ ظهر فوك، وانتهى خوفنا من الخيانة.

تشاورنا همسًا على عجل ثم انطلقنا! واتجهنا في البداية مباشرة عبر الحقل نحو منزل لم نكن قد رأيناه، ولكن الكلاب التي كانت تحوم حوله طاردتنا.

عبرنا الغدير بجانب المنزل ووصلنا إلى طريق عام سلكناه بأسرع ما يمكن.

بعد مرور بعض الوقت توقفنا لفترة قصيرة. ارتدينا أحذيتنا القماشية. غيّر فوك ملابسه القماشية لكي يترك انطباعاً جيداً لدى الإسبان الذين كنا نتجه إلى منطقتهم في اتجاه الشمال الغربي.

وبعد أن ركضنا نصف ساعة أخرى، اكتشف فوك لرعبه أنه ترك قميصه ملقى في منتصف الطريق: وهي مصيبة قد تحبط مخططاتنا منذ البداية، إذ كنا مضطرين إلى افتراض أن فرارنا واتجاهنا سيكتشف قريبا، وأن الفرنسيين سيلاحقوننا بأسرع ما يمكن.

كان الطريق يؤدي إلى نهر تافنا؛ وكانت على يميننا ويسارنا جبال شاهقة؛ كان الطريق ممهداً تماماً كما لو كان مشيداً للركض. وعندها فقط أشرق القمر فوق الجبال. فارتفعت معنوياتنا وواصلنا الهمس بكلمة: الحرية! تحررنا قبل كل شيء من النير الفرنسي! كانت الأحلام بمستقبل عظيم لوطننا تملأ ذهني.

---

[4] هو نوع من التحصينات، وهو خط دفاع متكوّن من الأشجار والأشياء الحادّة لردع العدو. ويستخدم الحظار عوائق من الأشجار مقطوعة، مرتبة بشكل صفوف (في العصور الحديثة) وكجذوع مقطوعة ومسننة، يسد به الطريق وحدها أو بالاشتراك مع التشابكات من الأسلاك وغيرها من العوائق.

خفتت الحمى. تقدمنا بجرأة إلى الأمام، ولكن سرعان ما واجهتنا العقبة الأولى. وصل الطريق إلى نهايته. لم يكن قد تم الانتهاء من بنائه بعد. وجدنا أنفسنا واقفين على حافة هاوية وسط الجبال. وفي أسفلنا على اليسار سمعنا هدير النهر، كانت الصخور العملاقة تعترض طريقنا من الأمام، وعلى اليمين كانت هناك جدران جبلية لا يمكن الوصول إليها تقريباً.

جلسنا وتناولنا من مخزوننا الضئيل من المؤن. وناقشنا مواصلة رحلتنا ولم نخف عن أنفسنا الصعوبات والمخاطر الكبيرة التي كانت تعترض طريقنا. على أقصر تقدير، كانت أمامنا رحلة خمسة أيام قبل أن نصل إلى نهر ملوية، وهو النهر الذي يفصلنا عن المنطقة الإسبانية. هل يمكننا الصمود؟ لقد أصاب أحد رفاقي الوهن وفكر في أنه من الأفضل أن نعود إلى سبدو، لعلنا إذا عدنا لن يلاحظ أحد هروبنا.

!لتذهب هذه الأفكار الجبانة إلى الجحيم**!** إلى الأمام

هبطتُ إلى نهر تافنا لأتأكد من إمكانية المضي قدماً على ضفافه، ولكنني وجدت أنه من المستحيل أن أتقدم أكثر من ذلك. لذلك صعدت مرة أخرى إلى أعلى، حيث وجدت في النهاية ممرًا يسلكه رعاة الغنم.

دعوت رفيقاي إلى المكان، لكن كان عليهما أولاً العودة إلى مكان استراحتنا، لأن المنظار كان قد تُرك هناك.

اختفى القمر وأصبح الظلام دامسًا. اندفعنا واحدًا تلو الآخر إلى أسفل سلسلة من التلال، واقتحمنا فجأة بستانًا جزائريًا.

اندفعنا في طريقنا عبر القنوات والأحراش، وفجأة رأينا رجلاً يركض بعيداً عنا.

في الظلام ربما ظن أننا قطاع طرق من مظهرنا الرثّ. ركضنا خلفه ووصلنا إلى طريق قادنا إلى تافنا.

بقي مولر في الخلف على ضفة النهر العالية كحارس. هرعنا أنا وفوك إلى الأسفل، وملأنا قواريرنا بالماء، وعند عودتنا، بعد أن تلمسنا طريقنا في الظلام، وجدنا حارسنا موللر نائماً مثل دب.

بعد استراحة قصيرة واصلنا طريقنا. وقرابة الساعة الثالثة صباحًا عثرنا على جزء ضحل من النهر، كان مغطى بالكامل بالنباتات. هبطنا إلى أسفل الضفة، وألقينا أوراق الشجر في الماء لنتأكد من خلال تيار النهر اتجاه رحلتنا، وبعد عبورنا المجرى وجدنا على الضفة الأخرى طريقاً في الغابة بحالة جيدة فأسرعنا على طولها. كان فجر اليوم الأول من الحرية قد بزغ.

عبر أدغال كثيفة شققنا طريقنا إلى أعلى الجبل، واستلقينا تحت أغصان الأشجار الكثيفة المتشابكة لنستريح ونستطلع المكان.

ومما أثار رعبنا أننا اكتشفنا فجأة أن أمامنا قرية على بعد 180 متر تقريباً، كان علينا أن نتوارى عن الأنظار في هذه المنطقة بأقصى سرعة ممكنة. كان النوم غير وارد الآن. وبينما كنا لا نزال نفكر فيما يجب القيام به، لمحنا تحتنا عند سفح الجبل أول فرد من الشرطة الأهلية يرافقه كلبان كان يتلفت يميناً وشمالاً. ولحسن الحظ سرعان ما سلك طريقاً آخر، وتمكنا من إعداد فطورنا في سلام.

أما الآن، فقد اقترب خطر آخر على شكل ظبي اقتحم مكمننا. فكرنا في قتل الحيوان، لكن ظهرت أعداد متزايدة من الماعز، وترددت بين الصخور أصوات الرعاة وهم يحاولون قيادة حيواناتهم باستخدام الحجارة. مرّ كل شيء على ما يرام، وانطلق الماعز مبتعدًا دون أن يكتشفنا أحد.

بينما كنت على وشك النطق بـ (الحمد لله) بدأ كلب حراسة ينبح في اتجاهنا. لم يتحرك من جوارنا رغم كل صيحات (الله نعل باك) (لعنة الله على أبيك) التي قُصِفَ بها. لم يهرب الكلب إلا بعد أن رشقه صاحبه بعدد من الحجارة، والذي لم يكن بالطبع على علم بسبب نباحه تجاه الأحراش، حتى هرب الكلب.

استمر الشيطان في التلاعب بنا. وعلى مسافة غير بعيدة من مكاننا جلس سائقان من سائقي الحمير للصلاة وتناول فطورهما. ثم لاحظت إحدى الأتانين رفيقنا موللر؛ ومن المحتمل أنها لم تر قط إنساناً يرتدي نظارة طبية، لأن الدابة بدأت فجأة تركل وتركض وهي تنهق إلى أسفل التل، وجرّت السائق وراءها.

لم نعد نشعر بالأمان في هذه البقعة فتوغلنا داخل الغابة، وفي نهاية اليوم وجدنا الراحة التي كنا في أمس الحاجة إليها.

بعد غروب الشمس استأنفنا مسيرنا في اتجاه الشمال الغربي عبر التلال. كان الظلام دامسًا. وبينما كنا ننحدر من جانب أحد الجبال رأينا ضوءاً قادماً نحونا، في الجوار سمعنا أصواتاً تتهامس. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بساعتين. اقتربت الأصوات أكثر فأكثر، وكذلك الضوء الذي كان بالنسبة لنا علامة على الفرار الفوري. تدافعنا إلى أسفل الجبل، حتى وصلنا إلى السفح ولم نسمع أو نرى شيئاً آخر. كان أمامنا خندق عميق مغطى بالكامل بالنباتات، كان من الممكن أن يكون مكانًا مناسبًا جدًا للاستراحة أثناء النهار، ولكن بسبب خطر الثعابين والعقارب لم نجرؤ على المغامرة بالدخول إليه في الظلام.

كنت أرتجف في الصقيع؛ فقد سيطرت علي الحمى مرة أخرى. عندما طلع الفجر، بحثنا عن الخندق المذكور أعلاه، ووجدنا فيه مكانًا مناسبًا ومخفيًا للمبيت في اليوم التالي.

كانت الليلة الثالثة من رحلتنا من أصعب اللحظات التي مررنا بها. فأثناء تجوالنا تعثرنا فجأة في غابة من الأشواك التي حاصرتنا مثل الأسلاك الشائكة. خرجنا من متاهة شائكة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار تقريبًا لندخل في متاهة أخرى. كلفنا ذلك ثلاث ساعات من الجهد اليائس لنشق طريقنا. فقدنا اتجاهنا تماماً. في نهاية المطاف، عند منتصف الليل تقريبًا، نجونا من متاهة العذاب هذه؛ وكدنا أن نفقد الوعي من شدة العطش. وجدنا أنفسنا على هضبة. كانت الصرخة الآن: ماء، ماء.

كان أمامنا وادٍ ثانٍ محاط بجبال عالية. كان الدب الأكبر يسطع في الشمال الغربي فوق قمة جبلية عالية اتخذناها هدفاً لنا. وفجأةً صادفنا طريقاً مطروقاً جداً يقودنا تحت أشجار عالية. وبينما كنا لا نزال نفكر في المكان الذي يجب أن نجد فيه الماء في اليوم التالي، رأيت شيئاً فضيّاً يلمع على الأرض، فانحنيت إلى الأسفل - كانت همهمة من الفرح! كان نبعاً يتدفق من الأرض! شربنا وشربنا، وملأنا قواريرنا وشكرنا العناية الإلهية على هذه الرحمة!

بعد أن نجونا بصعوبة من خطر السقوط في حفرة عميقة في مسيرتنا اللاحقة، استلقينا على صخرة بارزة لنستريح ونتشاور.

استلقينا منبطحين على الأرض لساعات، وفجأة في ظلام الليل الدامس وجدنا أنفسنا محاطين بعشرين إلى ثلاثين ضوءاً. ولكننا عرفنا أن هذه الأضواء هي عيون الضباع وبنات آوى المتوهجة التي كانت تحدق بنا من مسافة 8 أمتار. فوقفنا على أقدامنا وأفزعنا تلك الجماعة الجبانة في ظرف وجيز باستخدام حجارة مصوبة جيداً. وواصلنا سماع عوائها الصاخب المشؤوم في الأفق.

بزغ صباح اليوم الثالث من رحلتنا. أمامنا الوادي الواسع في جماله الموحش. حزمنا أمتعتنا واكتشفنا بسرور لا يوصف شجرة "السسنو" الشمال افريقي بالقرب من نبع ماء، وهو نوع من الفراولة الذي كان طعمه رديئاً، ولكنه بالنسبة لنا لم يكن يقدر بثمن، إذ لم يكن قد بقي لدينا أي طعام.

بعد هذه المرطبات النفيسة تسلقنا جبلاً. يا له من منظر رائع انفتح أمامنا عندما وصلنا إلى قمته! كانت أمامنا مباشرة، ولكن على مسافة بعيدة، مدينة للا مغنية، وعلى اليسار مدينة وجدة، وكلتاهما تقعان على خط السكة الحديدية الممتد بين وهران وفاس. كان أمامنا السهل الكبير وخلف المدينتين المذكورتين أعلاه جبل مرتفع.

على الجبل، التمسنا الحماية من أشعة الشمس ومن أعدائنا تحت الأشجار المنخفضة. نظرنا حولنا مرة أخرى واكتشفنا الطريق المؤدي إلى وجدة. يمكنك أن تتخيل مدى الخوف الذي انتابنا عندما لاحظنا أن دوريات من الجيش الأهلي الفرنسي كانت تحرسه، ولعلهم أرادوا أن يضمنوا المكافأة التي عرضت للقبض على الفارين. وبما أنني كنت قد مثلت أمام محكمة عسكرية، فقد كان القبض عليّ يعني موتي. تسللنا عائدين إلى أحراشنا، وتناوبنا على الحراسة. كانت الشمس حارقة. تسللت الأفكار الكئيبة إلى عقولنا. هل ستنجح الرحلة؟ كنا قد بلغنا نقطة متقدمة لدرجة أننا كنا نرى الخلاص يلوح لنا من المنطقة الإسبانية.

كان مولر محبطاً بشكل خاص: وتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل أن نتجه إلى مدينة للا مغنية ونستسلم للسلطات المحلية. تمكنا من مواساته. اقترب اليوم من نهايته. وكانت ساعتنا تشير إلى الخامسة والنصف عندما اكتشف فوك عند سفح الجبل تحتنا مباشرة أربعة فرسان يحدقون نحونا بإمعان. لم يكن هناك أدنى شك في أننا قد اكتشفنا، وقد تبدأ المطاردة الآن.

شاهدنا فارسين يتجهان إلى اليمين لكي يصعدا إلينا من منحدر أسهل، بينما بقي الفارسان الآخران في مكانهما على ما يبدو لكي نبقى تحت أنظارهما باستمرار. لم نتحرك وعزمنا على انتظار حلول الظلام.

مع قدومه شعرنا بالراحة وصفّرنا " حيّاك الله أيها الليل البهيج! " ثم ركضنا في الظلام الدامس. كنا ننحدر إلى الأسفل، على طول الطريق، حيث كان علينا أن نبتعد قدر الإمكان عن محيط المراقبين. كان يجب علينا تجنب كل حجر وكل ضوضاء. أسرعنا وانزلقنا وشعرنا وكأن الشياطين تلاحقنا.

اضطررنا للتوقف من حين لآخر حتى لا نفقد مولر ضعيف البصر.

هبطنا فجأة في مجرى جاف، مغطى بالنباتات، تعثرنا فيه كما لو كنا في حفرة. استلقينا هناك، لكن كيف كنا سنخرج! بما أن جوانب الضفة شديدة الانحدار كانت مغطاة بشبكة من الأحراش، لم يكن التسلق أمراً وارداً. ساعدتنا شجرة دفلى؛ فتسلقناها، وتمكنا من الخروج من الحفرة بأمان رغم أننا كنا نرتجف بعض الشيء.

بعد السير لمدة ساعتين أخريين وصلنا إلى نهر لم نصل إلى قاعه إلا بعد صراع لا يوصف مع شجيرات شوكية كثيفة، بملابس مهترئة وأحذية ممزقة تمامًا. ارتوينا من السائل الثمين وانتعشنا بحمام نشّط أجسادنا وعقولنا. ثم داهمنا إرهاق شديد؛ وتحت أدغال كثيفة استلقينا لننام نوماً عميقاً.

في اليوم الرابع، وقبيل الساعة الثالثة بقليل، غادرنا المكان مرة أخرى وبعد نحو ساعتين وصلنا إلى طريق في الغابة، لا بد أن الخيول قد مرت عليه منذ عهد قريب. وعلى مقربة منا كان يمر طريق عام كان الجزائريون يسلكونه على ظهور الخيل وعلى الأقدام.

كان علينا الآن أن نكون حذرين بشكل مضاعف. صعدنا بعض الأراضي المرتفعة، لكي نتأكد من موقع الشمس التي كانت قد اختفت خلف سلسلة من التلال، ولكي نحدد مسار تقدمنا اللاحق، وكذلك لكي نتفحص المناظر الطبيعية عن كثب.

وقد لاحظنا أمامنا إلى اليمين مدينة للا مغنية. وبالتالي، فإن العقبة الخطيرة التي كانت تعترضنا، وهي سكة حديد وهران - فاس، لا يمكن أن تكون بعيدة جداً.

وعند حلول الظلام عدنا إلى المسير مرة أخرى، وبعد أن اجتزنا بيوت الأوروبيين وصلنا إلى مرج منخفض، جُمع فيه حوالي مائة ثور. ثم مرّت أمامنا على الطريق سيارة، وعلى متنها أخطر أعدائنا من الرجال.

وأسرعنا نحو خط السكة الحديدية الذي كان يلمع أمامنا الآن بوضوح. كانت محطة لالة مغنية مضاءة بشكل ساطع وبدت لنا وكأنها قصر عظيم. أصبح الليل قاتما تماماً؛ غير أن السكة الحديدية لم تعد قريبة، وفي النهاية غابت عن أبصارنا تماماً، ولا بد أننا ضللنا طريقنا في هذا المشهد الخادع. اختلفت الآراء حول الاتجاه الذي يجب أن نسلكه. تمددنا على الأرض لأخذ قسط من الراحة؛ وكانت هذه هي المرة الثانية والأخيرة التي أشعر فيها بالإرهاق خلال هذه الرحلة.

كنت أنا وفوك نشعر بعطش شديد، ولكن لم يكن لدينا ماء، فقد تقاسمنا آخر قطرة مع موللر. لكن لم تكن هناك فائدة في الاستلقاء ونحن عطشى، كان علينا أن نمضي قدمًا وننفض عنا التعب. عبرنا مجرى نهرين، لكن لم يكن هناك ماء في أي منهما. كدنا نقترب من نقطة الانهيار عندما تعثرنا في طريق السكة الحديدية التي كنا ننشدها بشدة ونخشاها في نفس الوقت. عبرنا على أربع، دون أن يكتشفنا أحد والحمد لله!

أصبح الطريق الآن مفتوحاً أمامنا عبر السهل باتجاه الجبل البعيد. كان لا يزال علينا اجتياز طريقين. لحسن الحظ، ابتعدنا عنهما أيضاً. ثم توقفنا فجأة، فقد لاحت على مقربة منا مجموعة من أشجار البلوط الجيدة التنسيق بجوار منزل، كان يسطع منه ضوء ينيرنا بالكامل، ومن عتباته كان ينزل شخص فرنسي يصفر لكلبه. انعطفنا يميناً في اتجاهات شتى، ولتحاشي أن يكتشفنا أحد أسرعنا الخطى.

بعد ساعة وصلنا إلى إحدى القنوات التي أنشأها الفرنسيون، وهناك وجدنا الماء أخيراً. شربنا وشربنا بدون توقف، وأعدنا ملء قواريرنا، ثم مضينا قدماً بقوة متجددة.

وفي الحال سمعنا على مقربة منا صراخ "محمد"، "يا شعيب"، ودوس الخيول، ونباح الكلاب، فاندفعنا إلى سياج. قفزنا الواحد تلو الآخر. ركض كلب حراسة يعوي. مرّ أمامنا رجال وخيول ترعد. ثم ركضنا عائدين إلى القناة، والتففنا حول قرية، وسقطنا في نهر؛ وأخذ كل من فوك وموللر حماماً اضطرارياً.

ثم تقدمنا مرة أخرى. في الساعة الرابعة والنصف كان الضوء قد بزغ لكن الجبل كان لا يزال بعيداً. لم يكن هناك أي غِطاء في السهل الواسع والمفتوح، لكن حظنا لم يتخل عنا. اكتشف فوك أمامنا على بعد عشر أمتار مطمورة فارغة لتخزين الحبوب، اختبأنا فيها دون تردد. ثم أكلنا قطعة من الخبز ومحتويات آخر علبة من المعلبات.

أخرج فوك رأسه بحذر من الحفرة لكي يستطلع المنظر.

وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً أزعجتنا عنزة كانت تحدق فينا من خلال فتحة المطمورة، وعندما اكتشفت وجودنا قفزت مبتعدة.

ظللنا جالسين في الحفرة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً، عندما أظلمت الحفرة فجأة. فنظرنا إلى الأعلى مذعورين، ولاحظنا رجلاً من السكان المحليين كان يحدق فينا بذهول وأنفه الطويل يغوص في الحفرة؛ ثم انسحب كما لو كان قد لدغته دبابير وهرب وهو يصرخ.

ومع ذلك، كان علينا الآن الخروج من الحفرة بكل سرعة. تسلقنا على أكتاف بعضنا البعض؛ وكان آخر رجل منا قد تم سحبه من قبل الرجلين الآخرين. ركضنا باتجاه الشمال حتى وجدنا مجرى نهر يوفر لنا بعض الغطاء، ثم اتجهنا جنوبًا.

وكانت جماعة من السكان المحليين كباراً وصغاراً يركضون خلفنا؛ أما نحن فقد تقدمنا نحو الجنوب أكثر فأكثر، وعندما توارينا عن الأنظار اتجهنا إلى طريق قابلتنا فيه ثلاث نساء أعربن عن دهشتهن. لم يكن الانطباع الذي تركناه بملابسنا الرثة يبعث على الثقة.

وقرابة الساعة الخامسة أدركنا أن دورية فرنسية كانت تراقبنا على يميننا ولكننا لم ندع ذلك يزعجنا. واصلنا سيرنا بهدوء، وجلسنا على مرأى من الدورية على حافة الحفرة المكشوفة وكأن الدورية لا تعنينا في شيء.

بعد ذلك بقليل، اندفعنا عبر تجويف صغير في السياج واتجهنا إلى غابة تقع غرباً، حيث بقينا مختبئين حتى حلول الظلام.

حلّت الليلة السادسة. وقرابة الساعة السابعة مساء تركنا المخيم، واتبعنا مجرى الوادي، ثم اتجهنا نحو الجبل. في هذه الأثناء كان الظلام قد حلّ لدرجة أننا كنا بالكاد نرى أيدينا أمام أعيننا. فجأة ظهر أمامنا ضوء، وبعد فترة وجيزة سمعنا همساً. وفي الحال انبطحنا على الأرض؛ ثم سمعنا مغربيا يقول إن الحاكم (الضابط) قد أمرهم أن ينطلقوا في الساعة الثالثة صباحاً. وكانت الساعة الآن الثانية وعرفنا في الحال أن الدورية الفرنسية كانت في أثرنا.

تسللنا بهدوء إلى الخلف، وانعطفنا بشكل واسع، وانطلقنا نحو الجبل. وبعد أن اجتزنا عدة قرى، عند عتباتها أنذرنا نباح الكلاب، وصلنا إلى منحدر جبلي دون مضايقة، واستلقينا بين الصخور وخلدنا إلى النوم في الحال. كنا ثلاثتنا منهكين تماماً.

عندما بزغ فجر اليوم السادس من رحلتنا، تركنا المكان على الفور لأن قرب الناس كان ينذر بالخطر المحدق بنا. فجأة صادفنا منزلًا ظهر صاحبه على سطحه. اقتيدت الماعز والثيران إلى خارج المزرعة، ثم اختفى المالك داخل مسكنه. حاولنا التسلل بحذر شديد، لكننا سرعان ما صادفنا منزلاً آخر وانكشف أمرنا.

اعترض طريقنا رجل يحمل بندقية وسألنا إلى أين نريد الذهاب. قلنا له: إلى مركز سيدي بركان الفرنسي. انضم إليه اثنان آخران من المغاربة. لم تصدقنا الجماعة ورفضوا السماح لنا بالمرور.

سأل شاب مغربي حسن الملبس موللر عن الوقت، فأخرج ساعته على الفور كرجل مهذب. فانتزعها الوغد منه وأدخلها في جيبه. ثم أشار إلى القصبة، بيت القائد، التي كانت تقع على بعد 3كلم تقريباً على سفح الجبل، وأضاف أنه ذاهب لتسليمنا. فرددت عليه بأننا نحن أيضاً نريد أن نؤخذ إلى القائد، حتى يجبره هذا الأخير على إعادة الساعة والألف دورو التي أعطيناها إياه. كان يعلم جيدًا أنه إذا لم يقم بإعادة الساعة والمال فإن القائد سيضربه ضربًا مبرحًا حتى الموت.

لم يلاحظ المغربي أننا كنا متفوقين عليه في الفن الدبلوماسي، لأن موللر لم يعطه سوى عشرة دورو وساعة واحدة. وكان المغاربة الآخرون قد اختفوا في هذه الأثناء. واختفى السارق الأنيق أيضاً، ولكنه عاد بعد وقت قصير مع مغربي آخر كان يتناقش معه همساً في جوارنا حتى لا نشعر بالراحة.

في هذه الأثناء كنا قد احتمينا خلف الصخور لكي ندافع عن أنفسنا بشكل أفضل. وقد ساعدتنا يقظتنا الذهنية، فضلاً عن روح الدعابة، على تخلصنا من هذا الموقف المحرج. وبعد نقاش، نهضنا بتأنٍ شديد، وبدأنا الحديث معهم ضاحكين. كنت في غاية الامتنان لموللر لأنه لم يفرط في كل ما معه من المال، إذ كان من المحتمل أن نكون في حاجة ماسة إليه في المرحلة القادمة.

بعد أن فكّر المغاربة في الأمر ملياً قرّروا مساعدتنا، وبعد بعض مساومات أحضروا لنا الخبز والشاي. كانت هذه هي المرة الأولى منذ فرارنا التي نحصل فيها على شيء دافئ في بطوننا.

وقد أعجبنا بمغربي طويل القامة فحاولنا إقناعه بإيصالنا مقابل خمسين فرنكاً إلى نهر ملوية، وهو النهر الحدودي بين الأراضي الخاضعة لفرنسا والمنطقة الإسبانية. ففكر في الاقتراح طويلاً، ثم وافق في نهاية المطاف، وتم الاتفاق على أن ننتظره أمام منزله عندما يحل الظلام.

وفي هذه الأثناء أحضر لي رزة عربية قذرة - عمامة - ولفها حول، أو ألصقها على رأسي. فاستعدت روح الدعابة وغنيت "عندما كان القمل يركض بهدوء"، فأصلح ثوبي الممزق.

ومع حلول الظلام، جاءت ابنته شادية وأحضرت لنا القهوة وخبز الشعير. وبعد ذلك بقليل ظهر البدوي الطويل القامة مصحوباً بابن أخيه ومعه هراوة ضخمة، ومنذ ذلك الحين لم يكن الانطباع الذي تركه في نفوسنا مطمئناً. فقد كان وجهه ملتحفاً تماماً وعيناه كانتا تتحركان بقلق. قدمنا إلى شادية العزيزة دورو وسلكنا طريق المهربين نحو النهر.

وهكذا اقترب اليوم السابع من رحلتنا. أصررت على أن يتقدمنا الرجل المسن، وخلفه ابن أخيه، ثم يأتي فوك ومولر.

وفجأة رأينا رجالاً يندفعون على الجانب الآخر من النهر. أمسكت بكتف الرجل العجوز وسألته عن معنى ذلك. هز رأسه ليقول إنه لا يعرف. وفجأةً استدار حولي وأمسكني من صدري وصاح "نليكديك" (سأقتلك). فدفعته وقلت له إنني لست خائفاً من رجل عجوز متهالك، ومن الأفضل له أن يسرع في التقدم. وعندها حاول أن يضحك على سبيل المزاح.

واصلنا الهرولة في مسالك وعرة فوق الصخور والحجارة، وفجأة سقط العجوز على الأرض بعنف شديد حتى ظننت أنه أصيب إصابة خطيرة. ومع ذلك، لا بد أن عظامه كانت مصنوعة من الحديد، بمجرد أن تمتم بلعنة نهض على قدميه مرة أخرى.

وصلنا إلى طريق السيارات؛ كان النهر على يسارنا، وعلى يميننا أعمدة التلغراف، وهي تئن في ريح الليل. توقفنا قليلاً، ثم ساعدت فوك الذي كان مصاباً في قدمه، وتوليت حمل حقيبة ظهره، ثم أخذنا نتمايل ذراعاً بذراع، بالمعنى الحرفي للكلمة، على طول الشارع، لأن الخرق التي كنا نلفها حول قدمه الجريحة كانت ممزقة تماماً، وكانت تقذف سحابة كثيفة من الغبار مع كل خطوة.

قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً، فوجئنا بنفخ بوق في المنطقة المجاورة لنا مباشرة. ظننا في بادئ الأمر أنه غدر، ولكننا أدركنا أنه صادر من سيارة مليئة بالضباط. كانت أمامنا دورية فرنسية. تسللنا من أمامها. كان البدوي وابن أخيه قد اختفيا في الظلام؛ ولكن الخوف وحده هو الذي دفعهما إلى الهرب، وسرعان ما التحقا بنا. أسرعنا في اتجاه الغرب ووصلنا إلى نهر أكد العجوز أنه نهر ملوية. لم نصدق ذلك على الإطلاق. فقد بدا لنا المجرى ضيقا جدا، على الرغم من أنه كان بالإمكان أن يكون النهر الحدودي. تم دُفعت الخمسون فرنكاً. وبعد أن شكرنا قال لنا العجوز إنه يجب عليه أن يرحل ونصحنا بالتوغل في الغابة قدر المستطاع، لكي نبتعد عن الحدود الخطرة. ثم ألقى علينا تحية واختفى مع ابن أخيه.

في هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى الجانب الآخر من النهر، وعلى الرغم من أننا كنا متعبين جداً فقد جرجرنا أنفسنا مسافة 4 كلم أخرى ووصلنا إلى مشارف إحدى القرى، حيث استلقينا هناك لننعم بنوم منعش حتى الفجر. كان هذا هو اليوم الثامن.

نهضنا ونحن نشيطون وأنشدنا بفرح "هناك صوت نداء مثل صوت دونرهال"، إذ كنا نظن أننا نجتاز الأراضي الخاضعة لإسبانيا. بعد سير ساعتين وصلنا إلى مزرعتين. وسألت أحد الأمازيغ القادمين من إحدى هاتين المزرعتين عن صاحبها، فأخبرني أنه فرنسي، أما المزرعة الأخرى فهي ملك لإسباني. فاعتقد أننا بائعان متجولان يهوديان بسبب الحقائب التي كنا نحمل فيها أمتعتنا. لم يتعرف علينا كمسيحيين إلا بعد أن اقتربنا منه تمامًا. كان الوقت الآن نهارًا.

انطلقت امرأة فرنسية من الضيعة على متن عربة يجرها حصان، بينما مر امامنا شخص آخر جاء من الضيعة الأخرى. تنحينا جانباً؛ ولكن بعد خمس دقائق وقف أمامنا شخصان ضخمان. استقبلونا بعبارة السلام عليكم ثم سألونا إلى أين نحن ذاهبون. فأجبتهما بأننا ذاهبون إلى مركز سيدي بركان الفرنسي. عندئذ تحسسوا حقيبتي واستفسروا عما إذا كان لدي أي نعال للبيع. وبينما هم على هذه الحال، أظهروا تجهمًا

ونظروا إليّ بنظرات غريبة، ثم ألمحوا لي بأنه يجب أن نخبرهم بالحقيقة، أي أننا نريد عبور نهر ملوية. فنظرت إليهم باهتمام شديد وقلت بلهجة جادة: "إذا خنتمونا فليعاقبكم الله! نعم، نريد عبور نهر ملوية". لم تخدعني معرفتي بالطبيعة البشرية في هذه الحالة. فدعونا إلى مرافقتهم إلى المزرعة وأخبرونا أن صاحب المزرعة ضابط فرنسي في الجبهة، وأن الزوجة لا تهتم بشؤونها. ولما امتنعت عن ذلك وجدوا لنا مأوى بين شجيرات الشوك، واستدعوا بعض رعاة الخنازير الذين أمروهم بحراستنا. أحضروا لنا الشاي والخبز عدة مرات.

اقترب المساء مرة أخرى. ثم تقدمنا بصحبة هذا الشخص الذي كان قد تسلح ببندقية طويلة عبر سهل بني يزناسن، المكتظ بالسكان إلى بيت القائد، حيث طلب منا الانتظار أمام الباب. لم نثق بهم وابتعدنا عن المكان الذي تركونا فيه.

بعد بضع دقائق عادوا برفقة عدد من الأشخاص. عندما سمعنا ما كانوا يقولونه لبعضهم البعض، خرجنا من مخبئنا. فقالوا إنهم لم يتمكنوا من لقاء صديقهم القائد، وعزموا على الذهاب معنا عبر الغابة التي كانت في هذه النقطة شاسعة للغاية.

مضينا معهم إلى الأمام. حول كل جذع شجرة، وحول كل حاجز كنا نتسابق، نحدو ونزحف، ونرتاب من الدوريات.

فجأة وقف الأشخاص أمامي ثابتين في مكانهم، وصوبوا بنادقهم وهمسوا في أذني: " هناك شخص قادم ". أنا أيضًا رأيت فجأة رجلًا واقفًا أمامي بجانب سياج شوكي. بنظرة واحدة تعرفت عليه. سرعان ما أمسكت ببندقية الآخر وهتفت: "بالله عليك لا تطلق النار". إنه زميلنا مولر الذي ضل الطريق. تمتم كلاهما بغضب ثم ركضا إلى الأمام.

في الحال ظهر عدد من الدوريات على بعد مئات الأمتار أمامنا. لا بد أنهم راقبونا لأنهم وجهوا مصابيحهم نحونا. وعلى الفور انبطح مرافقونا على الأرض. وحذونا حذوهم بلا ضجة وانتظرنا مختبئين خلف الصخور حتى تجاوزتنا أشعة المصابيح. ركضنا يمينًا ويسارًا لمدة نصف ساعة حتى وصلنا إلى منزل. اختبأنا مرة أخرى بينما دخل الرجل المسنّ إلى الداخل. بعد ذلك بقليل خرج مع ثمانية من السكان المحليين. وفي هذه المرة أيضاً لم نكشف عن أنفسنا إلا بعد أن فهمنا ما كانوا يتهامسون به. لكن يا للرعب: كانوا ينوون تسليمنا!

المطاردة الشرسة الأخيرة. ركضنا بأقصى سرعة ممكنة إلى أسفل المنحدرات، على الرغم من أننا اضطررنا مرارًا للتوقف حتى لا نفقد فوك الذي لم يستطع اللحاق بنا بسرعة بسبب قدمه المصابة. استمرت المطاردة لمدة نصف ساعة. في النهاية وصلنا إلى النهر. كان نهر ملوية يتدفق أمامنا، ضحلًا وهادئًا، لكنه واسع جدًا. وبينما كنا نركض على طول ضفة النهر، ظهر فجأة عملاق أسمر عاري من الماء. تسابقنا كالممسوسين على طول الضفة، انطلقت طلقة نارية فغطسنا في النهر. تلتها طلقة ثانية وثالثة ارتطمت بالماء. كافحنا ضد التيار الذي كاد أن يبلعنا. التصقت ملابسنا بأجسادنا وجرّتنا إلى الأسفل، لكننا لامسنا القاع ووصلنا إلى الضفة الأخرى، وانتشينا من الفرح منبطحين بين السرخس - لقد نجونا! عندما صعدنا إلى

ضفة النهر، يا له من منظر مدهش وقع نظرنا عليه: كان البحر أمامنا مباشرة، ذلك البحر الذي كنا نتخيله بعيداً جداً.

ففي اليوم التاسع من رحلتنا وصلنا، ونحن في حالة يرثى لها، إلى منطقة رأس الماء الساحلية حيث استقبلنا الإسبان بتعاطف، وخاصة عائلة القائد.

لقد حققنا ما كنا نعتبره مستحيلًا تمامًا في معتقل سبدو. كنا قد قطعنا 350 كيلومتراً من بلاد مجهولة. عبر الوديان والجبال من دون خريطة أو بوصلة، وكانت النجوم دليلنا. انتشر خبر وصولنا بسرعة في المرفأ الصغير. وحضر قبطان فرنسي ليقنع نفسه بنجاحنا، واعتبر القائد الإسباني أنه من المدهش أننا تمكنا من اجتياز الحدود الخاضعة لحراسة مشددة. وتوافد علينا السكان من كل حدب وصوب؛ وقد استقبلونا استقبال الأبطال وقدموا لنا أكثر الدعوات وداً. حتى لو كنا نملك المال، لكان من المستحيل علينا أن نشتري أي شيء؛ فقد تلقينا كل ما نحتاج إليه من ملابس وطعام كهدايا. حتى أن القائد زودنا ببغال، امتطيناها على طول الساحل إلى الناظور، ومن هناك ركبنا القطار إلى مليلية. مليلية، أيتها المدينة القديمة العزيزة كم وجدناك جميلة! كم شربنا مراراً نخب رخائك، مستلهمين فكرة أنك أصبحت خلاصنا وملاذنا.

في مليلية تلقيت ذات يوم عن طريق السيد سلامة رسالة من السيد آشفيلد، قبطان سفينة إنكليزية كانت راسية في الميناء وكان على علاقة صداقة مع أقاربي الإنكليز ومعي. كانت الرسالة تدعوني بكل ود إلى الصعود على ظهر السفينة لأتلقى أخبار زوجتي وابني الصغير في لندن. كنت قد قررت قبول هذه الدعوة، وأنا في طريقي إلى السفينة خطر لي فجأة أنني أسير إلى فخ. فكتبت إلى القبطان رسالة وتوسلت إليه أن ينزل إلى اليابسة لتناول الغداء معي. وشكرته أيضاً على دعوته الودية وأكدت له أن رؤيته وسماع أخبار عائلتي سيسعدني كثيراً. وبقيت الباخرة في الميناء لمدة يومين آخرين؛ ولم أسمع المزيد من القبطان الذي لا شك أنه كان آسفاً لاضطراره إلى التوجه إلى جبل طارق بدوني.

في أحد الأيام التالية، ذهبت أنا وفوك في رحلة تسلق بين المنحدرات شبه العمودية للساحل. كنا قد وصلنا إلى القمة تقريباً، ولم يتبق سوى اثني عشرة مترا من الجدران الصخرية العالية. لم يكن هناك سوى شقوق صغيرة يمكن للمرء أن يتشبث بها بأصابع اليدين والقدمين. تسلقت الحائط شديد الانحدار دون تفكير طويل. وعندما قطعت نصف الطريق إلى الأعلى، اكتشفت فجأة أنني لا أستطيع التقدم إلى الأمام ولا إلى الخلف. ثم قلت لنفسي: "لقد اجتزت حتى الآن لحسن الحظ جميع الأخطار، وبدون أي مبرر، يجب أن تتكبد الآن مخاطر التهور بالسقوط من علو عدة مئات من الأمتار". للحظة انتابني شعور بالدوار. ومضت حياتي الماضية بأكملها أمام عيني مثل رؤية. كانت قد خارت قواي بالكامل، لكن إرادة الحياة انتصرت. نظرتُ إلى الأعلى، وتلمستُ بيدي اليمنى وأنا أضغط بقوة على الصخرة - ثم باليسرى وسحبت ساقي. بعد أن تلمستُ إلى الأعلى مرة أخرى واجهت حجارة رخوة سقطت على رأسي؛ فتلمستُ إلى اليمين أكثر، وأمسكتُ بصخرة صلبة، ونجوت.

وصل رفيقاي فوك ومولر لحسن الحظ إلى إسبانيا.

الفصل السادس

قرار خطير

كنت أقف الآن على الأجراف العالية. كنت أتنفس بحرية. كانت عضلاتي تؤلمني. حدَّقتُ بعيداً عبر البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت الأمواج العالية ترتطم باليابسة؛ لتذوب بصخب في رغوة بيضاء.

المياه تتلألئ، في أي اتجاه يقع وطني الحبيب، والذي من أجل مصالحه تقاتل الآن أمة بأكملها في صراع مستميت مع العدو، والذي كان يخفق قلبي معه في انسجام تام. نعم، يا شعبي، يا وطني! أنا أيضاً سأخدمكم بكل ما أوتيت من قوة.

لقد كان بإمكاني أن أعيش في إسبانيا حياة طيبة حتى يتم إبرام السلام؛ ثم كنت أستطيع أن أنجح بجواز سفر مزور من الوصول إلى ألمانيا - ولكن هل كان بإمكاني أن أفعل شيئاً أعظم من هذا من أجل وطني؟ فأنا أعرف المغرب معرفة جيدة، وأتحدث لغته؛ وأعرف مدى عداء قبائل بأكملها للسلطة الفرنسية. وهنا في هذا البلد كانت الفرصة سانحة لإلحاق الضرر بعدونا وإيقاف إمدادات المواد الغذائية والبشرية التي كانت تتدفق منه.

أما عزمي الذي عقدته وأنا في الرباط، فقد اتخذ شكلاً راسخاً الآن بعد أن نجوت: سأذهب مرة أخرى إلى داخل المغرب؛ وهذه المرة ليس للتجارة السلمية، بل لحملة جدية. كما أنني أتحرق لمعاقبة الفرنسيين على قسوتهم وزيفهم.

لسنوات عديدة كنا نحن التجار الألمان في المغرب نختلط بهم على أساس من الصداقة الوثيقة، كما كنا نقدم لبعضنا البعض المساعدة المتبادلة عندما كنا نتعرض للمضايقات من قبل القبائل. وكانت الولائم التي يقيمها السيد غروندلر في مازاغان تحظى بشعبية كبيرة بين الإنجليز والفرنسيين على السواء؛ وكنت أنا شخصياً أستمتع كل يوم أحد تقريباً بضيافة القنصل الفرنسي. ولما قصفت الدار البيضاء من قبل الأسطول الفرنسي في سنة 1907، كان مئات من أفراد قبيلة أولاد فرج قد عسكروا أمام مازاغان بنية أو لمقاتلة الفرنسيين فعلياً. وكان الألمان قد احتشدوا في الفندق الفرنسي الذي كان يترقب هجوم العدو في تلك الأثناء، وذلك من أجل تقديم الدعم. وقد تفاوضت في ذلك الوقت شخصياً مع زعيم القبيلة أحمد الفرشي لإثنائه عن هذه الخطوة المتهورة. وماذا كانت نتيجة هذه الصداقة التي دامت سنة كاملة، أيها الفرنسيون الأشاوس، عندما اعتقلنا عند اندلاع الحرب، أعطيتمونا وعداً بالشرف بأن ننقل إلى إسبانيا كأسرى مدنيين، ولكن يا لها من سخرية شنيعة! لقد سقط قناع صداقتكم، وظهرتم إلى العلن أكثر وحشية عندما أخذتم التجار الألمان العزل من الرجال والنساء والأطفال إلى وهران لرجمهم وتعذيبهم وقتلهم - كما فعلتم في داهومي حيث عذبتم التجار الألمان بلوالب الإبهام[5].

[5] هي أداة تعذيب، كانت في شكلها الأصلي شبيهة بزوج من كسارات الجوز. أما الأداة في شكلها المصقول فكانت تتكون من قضيبين حديديين قصيرين في أحدهما ثلاثة قضبان حديدية أصغر حجماً تلائم ثلاثة ثقوب في القضيب الكبير الثاني. يتم وضع إبهامي يد الضحية أو أصابع يده بين القضيبين

كنت أعلم أنه إذا وقعْتُ في أسر الفرنسيين مرة أخرى فسأفقد حياتي؛ وما نجاتي من الحكم بالإعدام في المرة الأولى إلا لأن صهري كان القنصل الإنجليزي. ولكن ألم يكن الآلاف يضحون بحياتهم في ميادين القتال؟ أدرت وجهي إلى الجنوب، حيث كانت جبال الريف، كالحائط الداكن، مرسومة بوضوح مشؤوم مقابل السماء. وكان ينتابني شعور مخيف بأن هذه الصخرة الضخمة تحاول أن تحذرني من أن أطأ تلالها ووديانها الخصبة، التي ظل الريفيون الأحرار الشجعان يقاتلون من أجلها قروناً طويلة. هذه البلاد التي أنجب سكانها الذين خاضوا غمار الحرب ضد إسبانيا شخصية عبد الكريم الفذة.

وحتى سنة 1915، لم يكن من السهل حماية المواقع التي كانت يومئذٍ مندفعة نحو الجبال من مستعمرتي مليلية وسبتة الإسبانيتين: وهما أراضي (ريفية) اضطرت إسبانيا لأسباب دينية وقومية للاحتفاظ بهما، ولكن أهميتهما الاقتصادية أقل بكثير من أهمية منطقة الدار البيضاء ومازاغان وموغادور على ساحل المحيط الأطلسي، بظهيرها المنبسط والمفتوح.

صحيح أن أراضي الريف كانت مجهولة بالنسبة لي شخصياً، ولكني تذكرت أن شخصاً يحمل الجنسية الألمانية والأمريكية يدعى فار يعيش هناك، والذي ربما يفيدني في تنفيذ خططي. وكنت قد سمعت أيضاً أن الشريف عبد الملك بن محي الدين بن عبد القادرالجزائري الذي يتمتع بنفوذ في الداخل، كان معروفاً بنشاطه لصالح الحكومة التركية والألمانية؛ وكان علي أن أتصل به من أجل القيام بعمل مشترك.

لم أكن واثقاً من قدرتي على البقاء في مليلية نفسها؛ فقد كان الحرس المدني يطلبني منذ أيام لترحيلي إلى إسبانيا بناء على طلب فرنسا التي علمت بوجودي في مليلية.

ولكن لم يكن من السهل القبض عليّ. ولا يزال يساورني شعور غريب بالرضا عندما أتذكر كيف وقفت مرة متنكراً في زي يهودي، بالقرب من النقيب الإسباني أليمان، وسمعته يسأل شرطته عما إذا كانوا لم يعثروا علي بعد.

بعد أربعة أسابيع من فراري من معسكر الأسرى في سبدو، بعد ظهر يوم 7 نوفمبر 1915، تسللت من مليلية متنكراً في زي عربي دون رفيق أو سلاح. شققت طريقي في البداية عبر جبل غوروغو الصخري البارد، الذي يزيد ارتفاعه عن 850 متر. وعندما وصلت إلى الفج، نظرت إلى الوراء وودعت البحر ومليلية. وبدت المدينة بأضوائها المتلألئة وكأنها تناديني للعودة إلى الحياة المتحضرة، ودعوت الله الذي حفظني حتى الآن أن يكلل مسعاي بالنجاح.

كان أمامي شوط آخر من الرحلة قبل أن أصل إلى الأراضي الخاضعة لفرنسا. لم تكن مهمتي سهلة. فالنفوذ الفرنسي والذهب الفرنسي متغلغلان في كل مكان، بل إنهما موجودان حتى في بلاد الريف الأبية.

بعد نظرة أخيرة باتجاه الشمال، اتجهت بحزم نحو الجنوب. كان الأمر قد قُضي!

أصبح جبل غوروغو الآن خلفي. في ظلام دامس كان الطريق يقودني عبر جبال قبيلة قلعية، وهي قبيلة شديدة البأس، كانت في حالة حرب مع إسبانيا قبل سنوات قليلة فقط. لم يخترق سواد الليل سوى أضواء

الحديديين الكبيرين على جانب القضيب الأصغر المركزي الذي يمكن عندها ضغطه بشكل لولبي محكم وشديد. كذلك أستعمل لولب الإبهام في الكثير من البلدان الأوروبية الأخرى وقد تطورت هذه الأداة في ألمانيا بتزويدها بالمسامير الحديدية التي تنفذ داخل الأظافر.

منزل من منازل السكان المحليين هنا وهناك، وعند جدرانها كانت الكلاب الضخمة الشرسة تنبح في اتجاهي. في جلابيتي التي تصل إلى ركبتيّ، وقدماي المكشوفتان وحذائي القماشيّ، استطعتُ أن أتقدم بلا ضجيج.

عندما طلع الفجر اختبأتُ خلف بعض الأطلال القديمة في انتظار الليل. وعندما بسطت السماء مرة أخرى خيمتها من النجوم فوقي، تمددت وقلت: "الله إعاوني" كان الله في عوني - ثم استعددت للانطلاق. خلال هذه الليلة يجب أن أتمكن من عبور المنطقة التي لا تزال تحت النفوذ الأوروبي: مقاطعة حدودية حيث يجتاح أعداء إسبانيا وشتى أنواع المشردين المتربصين، وكذلك أفراد القبائل الحرة، ليلا ونهارا، على الرغم من انتشار الشرطة الأهلية، المواقع الأمامية الإسبانية. والويل لمن يقع في أيدي هؤلاء القوم المتعصبين! سيكون في معركة حتى الموت!

لذلك لا بد من الإشارة إلى أن تجوالي الليلي المنفرد لم يكن آمنا بأي حال من الأحوال، خاصة وأنني لم أكن أحمل أي سلاح. ومع ذلك، وعلى عكس كل التوقعات، فقد تمكنت من قطع مسافة 50 كلم دون عائق.

وبحلول الفجر كنت قد تجاوزت المنطقة الإسبانية؛ وكان الجبل في ظهري. ثم ابتلعني سهل خصب.

الفصل السابع

وسط المغاربة

وصلت إلى سيدي عيسى، وهي منطقة تابعة لقبيلة مطالسة، القبيلة الشديدة المراس، وقد لقي كثير من الضباط الأسبان الذين غامروا في هذه البلاد دون معرفة لغة أهلها وعاداتهم حتفهم على أيديهم.

وما إن وصلت إلى سيدي عيسى حتى أحاط بي الريفيون وهم يشيرون إليّ بقوة ويشهرون بنادقهم في وجهي في تهديد ووعيد. كانوا ينتمون إلى القوات التي جمعها الشريف الشنكَيطي ضد الإسبان. وكان هؤلاء القوم أيضاً من ألدّ أعداء الفرنسيين وقد خاضوا مع خصومهم صراعاً عنيفاً في كثير من الأحيان. فدخلت بهدوء إلى حلقة القوم المتحمسين وأخبرتهم باللغة العربية أنني جئت كألماني وصديق للمسلمين. عندئذ تخلوا عن موقفهم التهديدي وأرسلوني تحت حراسة عشرة من أبناء البلد إلى منزل الشيخ بورحاير حيث وصلت في غضون نصف ساعة.

هناك كان يقيم السيد فار، الذي سبقت الإشارة إليه، بالإضافة إلى عدد من الجنود الألمان من اللفيف الأجنبي الفرنسي الذين فروا من الخدمة العسكرية.

كم كنت مبتهجاً بفكرة أنني سأجد في هؤلاء المواطنين أشخاصاً يشبهونني في التفكير، وسيكونون على استعداد للانضمام إليّ من أجل التضحية بأرواحنا في سبيل وطننا ألمانيا! وكم كان قدري أن أكون مخدوعاً بمرارة! عندما دخلت منزل السيد فار، كان وقع ذلك محبطاً للغاية. فقد كان السيد فار، الذي قضى سنوات طويلة جداً في خدمة الإسبان، مستلقياً على سرير التخييم شاحباً هزيلاً كمومياء. حاول أن يرفع نفسه، لكنه كان ضعيفاً جداً للقيام بذلك. لم تظهر على وجنتيه الغائرتين سوى نظرة امتنان ولكن بحزن عميق، بينما كانت الكلمات تنساب من شفتيه بتعب. استطعت أن ألاحظ أن الرجل كان يحتضر.

ولكن كيف حدث كل هذا؟ أخبرني أنه عند نشوب الحرب كان قد غادر مليلية متوغلاً داخل البلاد بنفس النوايا التي كنت أعتز بها. وكان قد أبحر في بادئ الأمر بمحاذاة الساحل غرباً من مليلية لكي يصل إلى قبيلة بني سعيد التي لم تكن إسبانيا قد أخضعتها بعد. واقترح غزو المناطق الداخلية بقوة قوامها ثلاثون جنديًا من اللفيف الأجنبي. ولكن سرعان ما تخلى عنه هؤلاء الأشخاص الجبناء غير الموثوق بهم. أصبح مترجم فار، بل سيرغا عدوه السري. وأغرى هذا المترجم فار بالتوغل داخل البلاد حتى يسهل عليه التضحية به في سبيل خططه الماكرة. لم يتمكن فار من الإفلات من جميع أنواع الفخاخ إلا بصعوبة بالغة. وفي إحدى المرات عندما كان رجال القبائل يهاجمون منزله، لم يتمكن من النجاة إلا بالاختباء تحت حصيرة من القش.

ولم يضع فار ثقته الكاملة إلا في شخص واحد فقط هو القائد عبد النور، الذي أصبح فيما بعد صديقًا لي موثوقًا به أيضًا. تظاهر بل سيرغا، صهر الشيخ المتنفذ، بو رحاير، بأنه صديق للمسيحيين وكسب ثقة فار. أقنع فار بالذهاب معه لرؤية حماه في سيدي عيسى. وهناك تظاهر بل سيرغا بأنه سيحرض القبائل على الحرب ضد الفرنسيين؛ لكن كل ذلك كان كذباً وخداعاً.

.كان هذا الوغد الجبان قد دس للمسكين فار في الطريق سماً بطيء المفعول، فأصابه السقم حتى الموت

ما هو الدافع الذي حمل بل سيرغا على القيام بمثل هذه الخدعة الشيطانية مع فار؟ لقد كانت أحقر غرائز .السرقة. لقد كان يأمل بعد موت فار أن يحصل على أسلحته ومعداته. كان بيل سيرغا موالياً للفرنسيين

وعلى أمل أن أتمكن من مساعدة فار المسكين، عدت وأنا في غاية الاستكانة إلى الخيمة التي وضعت تحت تصرفي. حاولت أن أنام؛ ولكن الأفكار المزعجة كانت تقلق راحتي باستمرار. وما كدت أغرق في نوم عميق حتى أيقظتني جلبة عالية. كانت خيوط الفجر الشاحبة الأولى تتسلل من خلال غطاء الخيمة. دخل ريفي عجوز ذو لحية بيضاء وأبلغني أن ثلاثمائة فارس ينتمون إلى قبائل مختلفة كانوا في الانتظار للتحدث .معي

.كان خبر وصولي إلى الداخل قد انتشر بسرعة كبيرة بين الناس

تعمدت أن أجعل الرجال الذين نفد صبرهم ينتظرون ساعة ثم خرجت لمقابلتهم. ردوا تحيتي بتذمر واستنكار. شكّل الرجال حلقة كبيرة دخلت في وسطها. ثم تقدم زعماء القبائل المختلفة وطرحوا عليّ الأسئلة التالية: لماذا جئت إلى هنا؟ هل أحضرت معك المال والسلاح والذخيرة؟ هل ستجلبون الإسبان إلى بلادنا، أم أنكم مستعدون لقتال الإسبان؟

كان الصخب يعلو أكثر فأكثر. ومن صفوف الناس المحيطين بالشيوخ صرخ في وجهي بالتهديدات. صرخ البعض: "اقتلوا المسيحي! " وفي النهاية نجحت في تهدئة الرجال المتحمسين. وحافظت على هدوئي التام، وشرحت لهم أن ألمانيا لا تنوي شن حرب على إسبانيا. كان هناك شيء واحد فقط يمكنني أن أؤكده لهم وهو أن الألمان أصدقاء للمسلمين. وكنت أعتمد على فطنتهم وعلى مساعدتهم في الحرب ضد الفرنسيين. يجب أن أقوم بالاستعدادات لهذه الحملة، وكانوا سيسمعون مني المزيد. قوبلت كلماتي بردود فعل متباينة: فبعضهم كان يلمح بالموافقة، والبعض الآخر كان يصرخ على فترات متقطعة: " أترك بلادنا في الحال. بارك الله في .فرنسا التي ساعدتنا بالمال والعتاد". لكن في النهاية انسحبوا. تنفست الصعداء عندما تخلصت منهم

كانت أفكاري التالية تتعلق بفار المسكين. لقد وجدته أفضل حالاً في معسكره إلى حد ما، بحيث استطعت أن أناقش وضعه دون أن أثقل عليه كثيراً. لم يكن بالإمكان أن يستمر هنا. كان واضحاً بالنسبة له أنه لن يرتاح من معاناته إلا في مليلية. واتفقنا على أن يغادر في المساء تحت رعاية أشخاص موثوق بهم لكي يصل إلى الميناء دون أن يلاحظه أحد. كان وداعاً محزناً! عرفت أنني لن أراه مرة أخرى. ناولني أسلحته وذخيرته ثم .رمقني بنظرة حزينة

.بعد ثمانية أيام من وصوله إلى مليلية لقي حتفه متأثراً بمفعول السم

ولم يكد فار يرحل حتى جاءني قاتله، بل سيرغا الذي كان على أمل أن يوقعني في شراكه بالتملق والتهديد. ولم يكن يشتبه في أنني كنتُ على بينة من أمره وعرفت كل شيء عن جريمته. فأوضحت له بشكل لا لبس فيه أنني لا أريد أن تربطني به أي علاقة، فانصرف بوجه شرير ومتوعد. وسرعان ما سأكتشف أي عدو .صنعته منه

في صباح اليوم التالي ظهر فجأة أمام خيمتي، وهذه المرة بصحبة والد زوجته الشيخ بورحاير. فدعوتهما للدخول، فطلب بل سيرغا تحت التهديد أجرة ثلاثة أشهر لخمسين فارساً، كان فار قد وعد بدفعها له. لم يكن معي أي مال، وقلت له بصراحة تامة أن هذا الأمر لا يعنيني وأريته الباب. فخرج وهو يتمتم، ورجوت بورحاير أن يمكث. نظر إليّ هذا الريفي الفخور الذي كان طوله 1,95 متر نظرة ريبة، ولكنني حدقت في عينيه بهدوء وثبات فجلس بجانبي.

كان عليَّ أن أبذل أقصى ما في وسعي لأكسب إلى جانبي هذا الرجل النشيط والمؤثر، حتى لا يتعرض مشروعي كله لخطر التحطم في بدايته. فأمرت خدم فار ورجاله الذين كنت قد أبقيتهم في خدمتي بإحضار الشاي والمرطبات، ثم بدأت أشرح له بهدوء أنني جئت إلى هناك لتحريض القبائل على شن الحرب ضد فرنسا. في البداية لم يكن يستمع إليّ إلا بصعوبة: فمن عينيه السوداوين الدائمتي الحركة لاحظت أنه لم يكن مهتماً إلا بما كان بداخل خيمتي، وخاصة الأسلحة التي سلمني إياها فار.

كان ينظر إليّ بين الحين والآخر كما ينظر القط إلى الفأر، و يقرع لسانه كما لو كان يريد أن يقول شيئاً. لقد كان رجلاً جريئاً، مريباً، عنيفاً، ولكنه كان وطنياً متوقداً، ابن الجبال الحرة الأصيل. وقد مر وقت طويل قبل أن أنجح في كسب ثقته، ولكن عندما نجحت في ذلك كان إخلاصه كاملاً. في البداية، كان موقفه مني عدائياً بالتأكيد.

في صبيحة اليوم الذي أعقب المقابلة مع بورحاير انطلقتُ للبحث عن الشريف الشنقيطي، الذي كان هو الآخر رجلاً ذا نفوذ كبير، لكي أكسب تأييده أيضاً. كنت على وشك الانطلاق عندما جاءني عدد من الشيوخ والقواد الآخرين، بمن فيهم الهادي عمر، وكذلك صهره بورحاير ليطلبوا مني أربعة آلاف خرطوشة. وأكدوا أن قبيلة معادية كانت على وشك الزحف ضدهم. وبما أن فار كان قد ترك لي حوالي ثمانية آلاف خرطوشة، فقد زودتهم بالأربعة آلاف التي يريدونها.

كنت الآن متلهفاً للرحيل، ولكن القائد الهادي عمر دعاني أولاً للذهاب معه. وكان قد أعدّ لي وجبة طعام. كان يرغب في أن يرافقني إلى الشيخ الشنقيطي، فذهبت معه.

أقنعتُ نفسي ودخلت مع الهادي عمر إلى منزله. كنا قد انتهينا للتو من تناول الطعام، وكنت على وشك العودة إلى خيمتي عندما بدأ إطلاق نار كثيف. طلبت من الشيخ مرشدًا ليقودني عبر السهل المجهول إلى الشنقيطي. رُفض طلبي. كان من الواضح أنهم كانوا يتآمرون ضدي. والواقع أنهم لم يكونوا يريدون رؤية أي مسيحي في داخل البلاد.

كما اكتشفتُ فيما بعد، كانت النية أن يلاحقني رجال الهادي عمر إلى مليلية، أو أن يتسببوا في اختفائي بطريقة أو بأخرى. كانت الفكرة هي أن يقتلني رفاقي خلف المراكز الإسبانية، ثم يشيعون خبر قتلي على يد الإسبان.

عدت إلى خيمتي. وفي المساء كان المكان مزدحماً بالناس إلى حد أنه لم يكن هناك مكان لي. فسألت الهادي عمر عن معنى ذلك، فقيل لي إنه يجب أن أعود فوراً إلى مليلية. فشرحت له أن هذا الأمر غير وارد على الإطلاق، فردّ عليَّ ساخراً: "سنرى".

وقال إن رجال القبائل يحتاجون في الحال إلى مدافع وبنادق وذخائر، وإذا لم أستطع أن أشتريها له فـ "الأمر كله بيدك!".

وثار صخب شديد في الخيمة، جلس خلاله الهادي عمر على كلب صغير فسحقه. وتزايد عدد أفراد القبائل الذين كانوا يتجمهرون حولي؛ كان الظلام قد حلّ عندما حضر إلى خيمتي أحد أفراد بني بو يحيي يدعى الطيبي وصاح من الباب بأنني إسباني وخائن.

كان الموقف كله قد أصبح حرجًا للغاية. حافظت على هدوئي الخارجي ورجوت رجال القبيلة أن يسمحوا لي بخمس دقائق خلوة للتفكير في الأمر، وغادرت الخيمة. واستدعيت الطيبي وفرسانه إليَّ، واقتدتهم إلى مسافة بعيدة عن المعسكر، وقلت لهم إنهم مجانين. وإنه كان في نيتي أن أسير معهم إلى طفيلي بالمنطقة الفرنسية، وأنه يجب أن يكونوا من المقربين إليّ. لأن الهادي عمر أراد أن يحول دون ذلك، فدبرت مؤامرة ضدي، وكان بل سيرغا أيضا عدوي وعدوهم.

أنقذت قضيتي، لأن بني بو يحيي ذهبوا في الحال إلى الهادي عمر وطالبوا بأن أظل هناك، وإلا فإنهم سيتخلون عن صداقتهم.

وتدريجيًا خلت خيمتي من الناس. أمسكتُ بالهادي عمر الذي كان متحمسًا جدًا، ودعوته للجلوس. تناقشنا في أمور السياسة وحول مصالحه الخاصة، حتى كسبته إلى جانبي. كان بإمكاني الآن أن أنام مطمئنا، فقد أنقذتني رجاحة عقلي.

في صباح اليوم التالي كتبت رسالة إلى عبد المالك بالعبارات التالية:

" ألتمس من سموكم الشريف، سيدي عبد المالك ابن المبارك عبد القادر، استقبالا طيبا. وليطمئن سموكم أنني سأتصرف بلباقة وأطيع أوامركم دائما. رغيف من الخبز، وكأس من الماء، ومقعد تحت شجرة، وسأكون راضياً. آمل أن أكون قادراً على تنفيذ جميع رغباتكم وأدعو الله أن يخلص سلطان سموكم الشريف البلاد من العدو. أرجو من سموكم رداً سريعاً."

لم أكن حتى ذلك الوقت على معرفة بعبد المالك. كنت أعرف فقط أنه كان على ما يبدو مدعومًا من تركيا. وفي نفس اليوم نقل رسول الرسالة إلى سوق الأحد في بلاد جزناية، وهو مقر الشريف.

في يوم الأحد التالي ظهر بل سيرغا فجأة، وبنبرة قاسية طلب مني مبلغاً تافهاً قدره ألف دورو قال إنه يريد أن يعطيه لزعماء القبائل. فأجبته "إذا كان الزعماء يريدون شيئًا مني، فليأتوا إليّ بأنفسهم"، وقلت له أن يذهب إلى الجحيم.

وفي الظهيرة عاد مرة أخرى ومعه أربعمائة فارس، وأعلنوا أنهم سيبقون معي إذا دفعت لكل رجل منهم أجرة قدرها 2 بسيطة و50 سنتيماً.

كانت الخدعة واضحة كضوء الشمس. عرفت بالضبط من هو بل سيرغا وصحت بالرجال: "لا يمكنني الاستفادة من عرضكم قبل انقضاء ثمانية أيام، ولكن بعد ذلك سيبدأ العمل الجاد، حيث سأعتمد على مساعدتكم. إن شاء الله. لم أتمكن من التخلص من هذا الحشد إلا بعد مناقشة حامية دامت عدة ساعات.

انتظرت يوماً بعد يوم آملاً أن أتلقى جواباً من عبد المالك، لكي أتمكن من الابتعاد عن هذا البلد غير الآمن. ثم علمت من صديق سري أن بل سيرغا كان قد اعترض رسالتي وهي في طريقها إلى عبد المالك ومزقها. كنت غاضباً جداً، وكان أول هاجس راودني هو أن أوسع ذلك الوغد ضرباً، ولكني ضبطت أعصابي، وبمساعدة القائد الهادي الذي أصبح صديقاً لي في هذه الأثناء، أرسلت نسخة من الرسالة بواسطة رسول أكثر ثقة.

وفي صباح يوم الاثنين بينما كنت جالساً أمام خيمتي نظرت إلى الأعلى لأرى مئات من رجال القبائل على الخيول وسيراً على الأقدام، مسلحين، يقتربون مني. اندلع إطلاق نار كثيف. اخترقت بضع رصاصات قماش الخيمة. حاول هؤلاء اقتحام خيمتي، وطلبوا مني خراطيش، وصرخوا في وجهي بعبارات نابية مثل " أيها "الكلب المسيحي" و "بوليس الإسبان".

فوثبتُ على قدمي وناديت: " أوقفوا رجالكم أولاً ثم بعد ذلك سأتحدث معكم**!** " فركض الهادي عمر، الذي كان قد جاء لمساعدتي، مع أتباعه نحو الجموع المتحمسة وأعاد النظام.

قُتل وجرح عدد من الرجال جراء إطلاق النار.

ثم أوفدت إلى مليلية عدة عناصر من اللفيف الأجنبي الذين كانوا مع المسكين فار، وظلوا معي بعد ذلك ورتبت معهم أن أستدعيهم في وقت مناسب. وحذرت أحد أفراد اللفيف الذي كنت أجهل موقفه الدنيء وغير الوطني آنذاك، ولكنني كنت أشتبه في صداقته مع الوغد بل سيرغا، من التصرف بشكل مستقل دون إشعاري. أما الآن فقد بقيت وحدي مع خادمي الشاب الشجاع بو طاهر، وهو إسباني كان قد فرّ من الخدمة العسكرية قبل عدة سنوات، ومع الكبدانيين الأربعة عشر الذين كانوا مخلصين لي والذين كنت قد استلمتهم من فار، وكان يقودهم القائد عبد النور.

وأخيراً وصل الجواب الذي طال انتظاره من الشريف عبد المالك. وكان الجواب يتألف من كلمة حبلى واحدة: "مرحبًا بك". لكنني لم أكن قد وصلت إلى هدفي بعد. لم أستطع أن أجازف علانيةً بالقيام برحلة أخرى، لأن خطر ذلك كان كبيراً جداً. كان بالإمكان ابتكار وسائل لقتلي في الطريق.

لذلك قررت أن أهرب سراً من هذه المنطقة الخطرة. فأبلغت خطتي إلى قائدي المخلص عبد النور وصديقي الجديد الهادي عمر وطلبت مساعدتهما، فوعداني بذلك.

وفي الليلة التالية غادرت مع أتباعي المخلصين، ظاهرياً لزيارة الهادي عمر. تركت أتباعي في منزل هذا الشيخ، وانطلقت تحت جنح الظلام إلى منزل صهر هذا الأخير، حيث اختبأت هناك عدة أيام وليالٍ، برفقة صديق ثقة لهادي عمر. قيل لرجال القبائل أنني هربت إلى مليلية.

وفي هذه الأثناء كان بل سيرغا قد أخبر القائد عبد النور بأنني جاسوس، وحاول إقناعه بالتخلي عني. وأوهمه أنه أجرى جميع الترتيبات بالفرنسية مع أحد أفراد اللفيف الذي سيعود بعد وقت قصير من مليلية بمبلغ كبير من المال، ثم سيجمعون بأنفسهم " محلة " وهي قوة مقاتلة. وتظاهر القائد بأنه يوافق على هذا الاقتراح، لكي يخدع عدونا المشترك، وأطلعني في الحال على هذه المخططات الشريرة. انفتحت عيناي في تلك اللحظة بشأن ذلك الجندي.

.ولكي أحمل اسماً يسهل نطقه من قبل السكان المحليين، اتخذت اسم سي هيرمان

كان خبر فراري إلى مليلية قد انتشر، وكانت النتيجة أنني أصبحت أخيراً في مأمن من مراقبة القبائل. وهكذا تمكنت من مغادرة مخبئي بحلول الظلام، ولكنني لم أكن قد تحررت بعد من كل شيء. كان القائد الهادي عمر غير راغب في السماح لي بالرحيل دون دليل جديد على صداقته. وفي خيمته الكبيرة، المفروشة بالسجاد الفاخر، أقام مأدبة وداع بحضور خمسين رجلاً من ذوي النفوذ. تناقشنا في السياسة وخاصة الطريق الذي كنت سأسلكه. وأقسمنا على الولاء المتبادل. وفي الساعة الحادية عشرة بالضبط، قال لي الهادي عمر: .”الوقت داز، ليهينيك سي هرمان“ (حان الوقت والله معك)

انطلقنا وسرعان ما ابتلعنا الليل المضاء بالنجوم. قادني الهادي عمر بنفسه يرافقه أربعون فارساً لمسافة طويلة؛ ثم افترقنا. وودعته وأنا أشعر بالامتنان؛ وأحسست أني كسبت صديقاً يمكنني أن أعتمد عليه اعتماداً مطلقاً في المستقبل، رجل كانت تكمن في شخصيته ميزة العربي المستبد، الذي يمكن أن يكون قاسياً كصهره بورحاير الذي لم يكن يخشى شيئاً ويمكن أن يتعطش للدماء كنمر، ومن ناحية أخرى كم كان في هذا الرجل العظيم من الشهامة والوفاء والحلم! كان يذكر المرء بالريسولي أو عبد الكريم، وهما رجلان كانا مرهوبين .ومحترمين في كل مكان

ورفقة ستة من الفرسان، سرت الآن بخطى حثيثة منفرداً بأفكاري وآمالي. وكان الفرس العربي الرائع الذي أهداني إياه الهادي عمر، بالكاد يمكنني أن ألجمه. كانت حوافره الصغيرة ولكن الثابتة تتخطى الأرض بمرح. وبين الفينة والأخرى كان يرفع رأسه الجميل وخياشيمه تستنشق هواء الليل المعطر. كانت هذه بداية .ميمونة لمغامرتي الجديدة

وفي الطريق انضم إليّ صديقي القائد عبد النور مع رجاله الذين أخفى بل سيرغا الماكر خيولهم. وبعد رحلة استغرقت عدة أيام، لقينا خلالها بفضل مساعدة الهادي عمر في كل مكان استقبالا مضيافا بين زعماء القبائل، وقادنا ذلك عبر المرتفعات وبمحاذاة نهر أوسيشت، وصلنا في ظهيرة يوم مشمس إلى مرتفعات تيزي تايدا، ونزلنا معسكر عبد المالك بسوق الأحد. في الخلفية، نحو الجنوب، كانت جبال الأطلس المغطاة بالثلوج تتلألأ .تحت أشعة الشمس. كنت قد وصلت إلى هدفي



عبد المالك الجزائري

الفصل الثامن

برفقة عبد المالك

من هو هذا الأمير المغاربي، الذي كان من المقرر أن أشن معه، بناء على رغبة الحكومة الألمانية، التي كانت قد وافقت في تلك الأثناء على مخططاتي، حملة ضد فرنسا؟

من أسرة شريفة عريقة من الجزائر العاصمة، سليل أسرة عبد القادر الذي اشتهر بكفاحه التحريري ضد الفرنسيين، ولم يكتف بتعلم القرآن الكريم وفرائضه فحسب، بل كان بفضل حياة والده الكثير التنقل والترحال على اتصال بالحضارة الأوربية. فقد كان لعدة سنوات في خدمة السلطان في القسطنطينية. وقبل الحرب كان قد قضى عشر سنوات في الخدمة العسكرية الفرنسية في طنجة. وفي أغسطس 1914، كان في باريس، ولم يعد إلى المغرب إلا بعد اندلاع الحرب بفترة وجيزة. وقد ظل سبب اختياره بالتحديد، نتيجة لترتيبات ألمانية تركية ليكون ممثلاً للمصالح الألمانية، مجهولاً بالنسبة لي.

لدى وصولي إلى معسكر الشريف خرج المغاربة من خيامهم من كل جهة لرؤية الألماني الذي غامر وحده بعبور الجبال والتوغل في قلب البلاد. لم يكن موقفهم عدائياً، فقد استقبلوني بصيحات حارة واصطحبوني إلى خيمة الشريف الكبيرة التي كانت ظاهرة للعيان من بعيد.

كان زعماء القبائل قد تجمعوا أمام الخيمة. وفي غضون دقائق قليلة خرج الشريف ورحب بي باللغة الفرنسية. كنت الآن وجهاً لوجه أمام الرجل الذي وضع بين يديه تحقيق خطتي؛ وكانت عيناه السوداوان ترمقني بتمعن؛ كانت ملامحه وهيئته تدل على الهيبة والوقار. دخلنا الخيمة. وأخذ الشريف وقادته مقاعدهم. وضغط القائد أحمد الرياطي مستشار الشريف بكل قوته على كتفي ليحثني على الجلوس. ولم أجلس بجانبه إلا بعد لفتة كريمة من الشريف دعاني إليها خصيصًا.

اقتصر الحديث في البداية على تبادل عدد من الشكليات المهذبة. هنا أيضاً جرت العادة الشرقية التي تقضي بأن يترك الضيف يستريح قبل أن ينخرط في حديث جاد. وكان هذا جيداً، لأنني كنت قد أنهيت للتو رحلة طويلة ومتعبة. ثم تحول الحديث بعد ذلك إلى أهم موضوعات الحرب والسياسة، وفوجئت بمدى اطلاع عبد المالك على ما كان يجري. وبدا لي أنه كان ودوداً حقاً تجاه ألمانيا، على الرغم من أن نظراته المتجولة كانت تومض بين الحين والآخر ببريق لم أفهمه. ومع ذلك فقد كنت في البداية أثق به كل الثقة.

شرحت له الحالة التي تبعث على الأمل في ألمانيا ووعدته بتأييد الحكومة الألمانية الكامل. واقترحت عليه أن يستدعي قبائل البلاد، ولا سيما غياثة الشجعان الذين يقطنون في محيط تازة، وكذلك بني وراين الأشداء الذين يستقرون على المنحدرات الشمالية لجبال الأطلس المتوسط للمشاركة في القتال ضد فرنسا.

فوافق الشريف على اقتراحي هذا، فعدت في مساء اليوم الأول إلى الخيمة التي خصصت لي وأنا مبتهج ومتفائل.

في اليوم التالي بدأت في تنفيذ خطتي. بحضور زعماء القبائل القريبة والبعيدة على السواء، تقرر جمع قوة قتالية قوية وشراء الخراطيش والبنادق. وأرسلت إلى الساحل تقريراً موجهاً إلى الحكومة الألمانية. ولم أكن في ذلك الوقت على علم بأن تقاريري قد اعترضها عنصر من اللفيف الأجنبي ذو العقلية الإجرامية، والذي كان بذلك مذنبا بتهمة الخيانة، فأخذت أصرف كل طاقتي لعملي. كان كل يوم شاقًا ومليئًا بالحوادث من كل نوع. وكانت الأخبار الفرنسية المخيفة تتغلغل إلى داخل المعسكر، ولم تكن تنقص دسائس القبائل ضدي وضد بعضها البعض. كان المعسكر مليئاً بالجواسيس المعادين، وكثيراً ما كانت توجه إليّ أسئلة تبدو بريئة عن الحرب وعن سياسة ألمانيا وعن الغرض من تواجدي. ففطنت لهؤلاء الأشخاص، وسرعان ما خدعت الجواسيس.

وعندما تمكن رفاقي الكبدانيين الأربعة عشر بمساعدة الهادي عمر من الوصول إلى معسكر الشريف بخيولهم وبنادقهم التي كانت قد احتجزت بتحريض من الخائن بل سيرغا، فرحت كثيرا. ولكن لم يكن هناك تعاطف كبير مع هؤلاء الرفاق المخلصين في هذا المعسكر، وكان ينظر إليهم كغرباء. ونتيجة لذلك، اضطروا طوال شهر تقريبًا إلى النوم في العراء دون خيمة مغلقة ودون أغطية. ظلوا في الوقت الحاضر مكدسين في خيمتين صغيرتين مكشوفتين وسط صقيع الليل. ومع ذلك لم يتذمر هؤلاء القوم الصامدون أبدًا. ولطالما استقبلوني بصيحات الفرح والامتنان عندما كنت أزورهم في المساء، وكانوا يتحدثون عن آفاق خططي حتى وقت متأخر من الليل. أدت هذه الحميمية إلى روح رفاقية حقيقية. ظل رجالي أوفياء لي في الحياة والموت حتى النهاية.

سرعان ما بدأ عبد المالك يقلقني. ففي علاقاته الشخصية كان ودوداً وصادقاً كما كان من قبل، ولكنني استشعرت أنه لم يكن ينوي بجدية تقديم دعمه. فقد ترك مستشاره سي محمد البلغيتي يؤثر عليه ضد ألمانيا على وجه الخصوص. وقد أعرب في إحدى المناسبات عن تخوفه من أنه في حالة انتصار ألمانيا في أوروبا سيصبح المغرب تابعاً لها. ومع ذلك، كان حلمه هو إقامة مغرب مستقل تحت قيادته.

ونتيجة لذلك ظل في كثير من الأحيان متقاعسا وفي تصرفاته مريبًا. كما أنه منع المغاربة من القدوم إلى خيمتي للحصول على أخبار الحرب، وهدد بالغرامة أو الضرب في حالة عدم احترام هذا المرسوم.

كان يكره بشكل خاص عبد النور والكبدانيين المخلصين لي. لم يتجرأ بعد على أن يتصرف نحوي بطريقة خشنة أو عدائية، بل كان يتطلع إليّ من أجل التأييد الشخصي. كان لا يزال غريباً بين القبائل، ولم يكن معترفاً به عموماً بأي حال من الأحوال. كان قد وصل إلى معسكره الحالي قبل وصولي ببضعة أشهر فقط. وكانت رحلته من الساحل إلى داخل البلاد أشبه بالهروب. كان قد وقع في قبضة القبائل الريفية، التي لم يتخلص من قبضتِها إلا بعد عناء كبير. وأثناء تقدمه وسط قبيلة مطالسة كاد أن يقتل لولا تدخل عدد من الشيوخ ذوي النفوذ. ولكن هذا الرجل، الذي كان يعمل سابقاً لصالح الفرنسيين، لم يكن موضع ثقة. فقط مكانته الرفيعة كسليل أسرة شريفة هي التي ضمنت له النفوذ الذي حصل عليه بين عدد من القبائل. لم يغامر بالانفصال عني، لأنني كنت أتمتع بحماية نفس الشيخ الذي يدين له بحياته ووجوده.

لقد كنت منزعجاً جداً لغياب أي أخبار من الحكومة الألمانية - والأسباب معروفة. ومع ذلك، فقد واصلت عملي دون أن أشعر بالقلق.

كانت قوة عبد المالك القتالية تتألف في البداية من "مخزن" تافه لا أهمية له، وقد وجدت الدعم الرئيسي لها في 300 مقاتل من رجال قبيلة غياثة الأشداء تحت قيادة القائد عسو.

كان الإسراع بزيادة هذه القوة الضئيلة من أولى مهامي، فركبت ذات ليلة إلى الهادي حمادة الواسع النفوذ، مع أني كنت أعلم أنه كان في الرباط مؤخرا مع ليوطي. فاستقبلني بقوله: " آه، أنت سي هرمان الألماني، ماذا تريد مني؟ ألا تخاف مني ؟ " فنظرتُ إليه بإمعان وأجبته : " لا، لقد جئتُ إليك كصديق وأرجو أن تكون صديقي أيضاً ". فأجابني: "اجلس وأخبرني بما تريده مني". فشرحت له بصراحة تامة ما هي خططي وأكدت له أن عبد المالك كان إلى جانبي. فأجابني بحماس: " اشنق الشريف! إنه لا يتمتع بثقتنا. لقد سئمنا من تهديداته وإهاناته الدائمة ولا نريده أن يكون شريفاً".

وقد لاحظت كيف فشل عبد المالك فشلا ذريعا في كسب ثقة هؤلاء الأحرار. ربما كانت أساليبه مناسبة جداً في زمن السلم، ولكن ليس الآن، حيث كان الفرنسيون يحاولون بالوعود والأموال والأخبار الكاذبة جذب المغاربة إليهم بكل وسيلة ممكنة. لو كان الشريف قد أعلن الحرب على فرنسا بكل قوة شخصيته لاندفعت القبائل كلها من جنوب جبال الريف إلى المنحدرات الشمالية للأطلس الكبير إلى الانضواء تحت لوائه، ولقضي على الحكم الفرنسي في المغرب.

ولكن بما أن عبد المالك لم يكن يريد أو لم يستطع أن يتخذ أي قرار، فقد نجحت في كسب صديق جديد هو الهادي حمادة.

في أحد الأيام ذهبت إلى عبد المالك عازماً على أن أضع حداً لتردده. فقدمت للشريف تقريراً عن التقدم الظافر للألمان على جميع الجبهات، وأخبرته أن انهيار الحلفاء كان متوقعاً في أي يوم، بينما نحن نضيع وقتنا هنا في شرب الشاي بدلاً من التصرف. ما كان مطلوباً قبل كل شيء لقضيتنا هو دعاية شاملة. وأنا أعلم أنه كان قد تلقى قبل وصولي من مصادر ألمانية مناشير دعائية سجلت عليها انتصارات الألمان. وكنت أعلم أيضاً أن الشريف قد سمح ببقائها في خيمته لأن المغاربة - كما قال - لم يكونوا مهتمين بانتصارات الألمان إلا اهتماماً ضئيلاً. أخذت أمر الدعاية الآن بيدي، وأخذنا نتقدم. وفي كل يوم كنا نستقبل مجندين جدد في قواتنا المقاتلة.

في يوم من الأيام سألني الشريف عما إذا كنت قد وزعت آلاف القصاصات الدعائية الجديدة في الأسواق والمساجد، ولا سيما بين أفراد قبيلة بني وراين المجاهدة - دون موافقته. فتوسلت إليه أن يعذرني على إغفال هذه الشكليات. عندئذٍ أكد لي أن هذه الأوراق كانت كلها هراء وستكون لها عواقب وخيمة! ابتهجت داخلياً لنجاحي. فمن القاصي والداني، وحتى من القبائل النائية كانت الطلبات تصلني باستمرار للحصول على هذه القصاصات.

كان موقفي قد توطد الآن، وتحت ضغط الشيوخ المتنفذين لم يعد عبد المالك قادراً على البقاء مكتوف الأيدي، مهما كان موقفه غريباً وغامضاً. هل كان صديقًا لفرنسا سرًا - رغم الدعم الألماني التركي؟

الفصل التاسع

بين ظهراني العدو

في النهاية. تمكنت من إقناع عبد المالك بضرورة العمل العسكري. وعلى الرغم من أنه بالنظر إلى الوضع القوي للفرنسيين الذين جعلوا من مدينة تازة قاعدة لهم، حيث تقدموا بمراكز محصنة إلى المرتفعات الواقعة شمالا، فإننا لا يمكن أن نتوقع في الوقت الحاضر أن نحقق نجاحا كاملا لأن قوتنا القتالية التي كانت تتكون من 1200 محارب كانت ضعيفة جدا، وكان علينا قبل كل شيء أن نظهر للقبائل أننا عازمون من الآن فصاعدا على الشروع في تنفيذ حملتنا. كانت الطلقة الأولى ستومض في البلاد كإشارة توقظ المتخاذلين من سباتهم. ثم كان على القبائل أن تقرر في أي جانب تريد أن تقاتل. كانت هذه مغامرة جريئة، لأن الفرنسيين كانوا قد جهزوا القبائل الخاضعة لهم ببنادق حديثة وذخيرة وفيرة، بينما كانوا هم أنفسهم يملكون بنادق ورشاشات ومدافع جديدة. كانت قواتهم المؤلفة من زنوج السنغال وجنود اللفيف الأجنبي والجزائريين والقوات الأوروبية، في الواقع جيشاً قوياً. وفي مقابل ذلك كان لدى قومنا العديد من البنادق القديمة، بما في ذلك بنادق الإلقام الفوهي[6] والذخيرة الرديئة.

ومع ذلك فقد كنت مبتهجاً بما فيه الكفاية عندما بدأت رقصة الحرب في نهاية نوفمبر سنة 1915. كيف كانت البلاد التي كنا سنقيس فيها قوتنا مع العدو؟

لقد كان معسكرنا منصوباً على سفح جبل عالٍ تقطنه قبيلة جزناية في أرض خصبة منخفضة على ضفاف نهر يصب شرقاً في النهر الرئيسي في المنطقة وهو واد أوسيشت (?). وإلى الجنوب، تقع البلاد الجبلية التي تجد أعلى ارتفاع لها في قمتي بو مهيريس (?) وقمة شاشور (?) الشاهقة. ومن هذين المخروطين الجبليين تنحدر البلاد في مصاطب سهلة حتى تصل إلى المجرى الواسع لنهر تازة. وبينما تُزرع الوديان بكثافة، لا توجد في المرتفعات والمنحدرات الجبلية سوى بقع معزولة من أشجار السنديان الأخضر. يوجد في مجاري الأنهار عدد من البلدات الصغيرة التي يقوم سكانها بتربية الماشية. وإلى الغرب، يقسم نهر مكناسة الصغير أراضي قبيلتي البرانس وأولاد بوبكر. وقد قمنا بعملية استطلاعية جريئة في اتجاه الجنوب الغربي ضد هذه القبيلة التي تميل إلى الفرنسيين ولم نتمكن من تكبيدهم خسائر تذكر، ولكن الروح القتالية لدى السكان كانت مستنفرة.

وعندما عدنا إلى المعسكر في المساء بعد هذا الاستطلاع، كانت المشاعر ملتهبة. وكان كل رجل من أفراد القبيلة يزعم أنه قام بعمل من أعمال البسالة وأنجز أكثر من الآخرين، حتى صُمَّت أذناي بجلبة من التشاجر والضحك والابتهاج. بهذا الهجوم الصغير وقعنا في عش الدبابير.

[6] هي أي سلاح ناري تلقم فيه القذيفة والشحنة الدافعة من ناحية فوّهة البندقية. وهذا يختلف عن تصميمات الأسلحة النارية الحديثة ذات الإلقام الخلفي، وينطبق مصطلح الإلقام الفوّهي على الأسلحة النارية التي تلقم من الفوهة بكل عياراتها من المدافع إلى الأسلحة النارية اليدوية ذات العيار الصغير، التي يستخدم فيها دافع سائب (مثل مسحوق البارود) وقذيفة منفصلان عن بعضهما في الإشعال أو الاشتعال.

علمنا عن طريق الجواسيس أن هجوماً سريعاً من الفرنسيين والقبائل التابعة لهم كان متوقعاً. وأمام هذا الاحتمال كان سكان قبيلة جزناية، وهم أقل القبائل ميلاً إلى الحرب متخوفين إلى حد ما. كانوا يخشون على وطنهم من نشوب صراع حياة أو موت. وإزاء هذا الصراع الوشيك كانت التعزيزات ضرورية على وجه السرعة.

فأرسلت الرسل إلى جميع أنحاء المنطقة الواسعة لالتماس مساعدة القبائل الصديقة، وأقبل مئات المحاربين مسرعين إلى المعسكر. وكان من بينهم العديد من الشخصيات المشكوك في أمرها، الذين دفعتهم احتمالات الحصول على أجر وغنيمة أكثر من شهوة القتال إلى حمل السلاح.





كان معسكرنا والجبال المحيطة به، التي كانت تنتشر فيها معسكرات أخرى، تبدو الآن بمنظر رائع للغاية. كما كان مسرحاً لفوضى عارمة. فقد تصور كل زعيم أن خطته هي الأفضل، وأراد أن يشن الحرب بطريقته الخاصة. ولم يكن من السهل إقناع هؤلاء الناس الذين لم يعتادوا على الطاعة بالتحرك المشترك، غير أن العدو نفسه هو الذي حقق ذلك. لقد وجدنا متحدين بمناسبة انتصارنا الأول. كنا قد علمنا أن الفرنسيين كانوا يزحفون من اتجاه الجنوب الغربي. فقمنا على الفور بفض المعسكر عند الفجر. وانطلق فرساننا نحو العدو في عدة أرتال عبر المرتفعات في اتجاه منطقة البرانس. وعلى الضفة الشرقية لنهر مكناسة ترجل الأمازيغ وخاضوا في الماء البارد. كنا قد وصلنا إلى مرتفعات عين سلا على الضفة الغربية عندما سقطت حوالي الساعة الخامسة صباحا على صفوفنا أولى رشقات المدفعية الفرنسية من المرتفعات الواقعة إلى الغرب.
سرعان ما تصاعدت نيران العدو بسرعة، بما في ذلك عمليات القنص الصادرة عن السكان المحليين من أعالي الجبال على بعد 700 متر أمامنا. كانت المعركة قد بدأت. ألحقت مدفعية العدو أضرارًا طفيفة بقواتنا. وهنا انكشفت الطبيعة العسكرية الفطرية لدى الإنسان الأمازيغي، الذي كان خبيرًا في استخدام كل حجر وكل قطعة أرض غير مستوية للاحتماء. كانت نيران القبائل المعادية من قبيلتي أولاد بوبكر والبرانس في غاية النشاط، إذ كانوا على النقيض من قومنا مجهزين ببنادق حديثة ومزودين بذخيرة وفيرة. أما نحن، من ناحية أخرى، فقد اضطررنا للاقتصاد في الذخيرة، والتصويب بدقة على الأهداف والتريث قبل إطلاق النار.

.لم يتقدم العدو إلا قليلاً، وعندما حلّ الليل كنا لا نزال في موقعنا السابق

اجتذب القصف العنيف للمدافع تعزيزات إلى كلا الجانبين. قدم لنا تدفق ألف رجل إضافي من قبيلة مطالسة المساعدة المطلوبة. عندما بزغ الفجر اشتعلت المعركة مرة أخرى بعنف متجدد. ازدادت الخسائر وأصبح النقص في الذخيرة ملموسًا. وبعد أن صمدنا في موقعنا طوال اليوم الثاني، اضطررنا في المساء إلى إخلاء .أكثر مواقعنا تقدماً والانسحاب حوالي 500 متر إلى المرتفع المطل على الضفة الغربية للنهر

كان هناك خطر كبير من أن يجبرنا العدو على عبور النهر. ثم جاء الخلاص. فقد جاءت قبيلة أولاد بوريمة التي حافظت حتى ذلك الحين على موقف محايد وأرسلت إلينا تعزيزات من الجنوب الشرقي، ومن الشمال .أيضاً تلقينا وعداً بالدعم من قبائل آيث توزين وآيث سعيد

لذلك كنا في أفضل حالاتنا المعنوية عندما افتتحنا اليوم الثالث من المعركة. أرسلت تعليمات إلى التعزيزات المتقدمة لتطويق العدو من الشمال والجنوب، بينما تواصل قواتنا المعركة على الجبهة التي حافظنا عليها حتى ذلك الحين. نجحت الخطة. اضطر العدو بعد حوالي ثلاث ساعات من القتال إلى الانسحاب من مواقعه بسرعة كبيرة بعد أن حوصر من الأمام وتعرض للتهديد من كلا الجانبين. وسرعان ما عدنا إلى موقعنا .الأول

اجتاحت صفوف رجالنا حالة من الابتهاج الجامح. ورفعت البنادق فوق الرؤوس التي استعرت بحرارة .المعركة، وعلت صيحات "الله الله"

بسبب نقص الذخيرة لم نتمكن للأسف من ملاحقة العدو المنسحب**!** لكن النصر تحقق**!** ولم يقتصر الأمر على إلهام قومنا فحسب، بل إن أخبار هذا النصر قد دوت في المغرب وانتقلت حتى باريس، حيث تم الاعتراف .بالخطر الجديد

كان الجميع في معسكرنا بحالة معنوية جيدة. حتى عبد المالك كان راضيا عن النتيجة. وخلال الأيام التي أعقبت القتال تركته بمفرده تقريبا وتفرغت للعناية بالجرحى والاتصال بزعماء القبائل المختلفة. لقد وضعوا ثقتهم بي واعتبروا قضيتي الآن قضيتهم. كنت أتنقل بين مختلف المعسكرات كصديق؛ وكثيراً ما استقبلوني بالترحاب. وبضربة واحدة أصبحت زعيمهم. كان الرسل من جميع القبائل القريبة والبعيدة يأتون للحصول على المعلومات والتهنئة: كانت خيمتي تشبه الحمام. بالكاد كان هناك حيز للتحرك داخلها، حيث كانت كل مساحة خالية مليئة بقطع الغيار اللازمة، وخاصة الخراطيش والضمادات. من المؤكد أن هذه الأخيرة لم تكن .تتألف إلا من قطع القمصان

في إحدى الأمسيات زرت الشريف، الذي وجدته طيب المزاج بشكل خاص. ناقشنا كل المواضيع بما في ذلك الحرب. وحدثني عن والده البطل. وأعطاني على وجه الخصوص بعض اللمحات عن عقائد الإسلام التي دافع عنها بحرارة. وفي هذه الأمسية اقترب مني كرجل أكثر من أي وقت مضى، وبعد ذلك تمنيت أن يكون .إلى جانبي تماماً

ولم تهدأ أعصابي المتحمسة من كثرة ما كنت أسمع من هتاف رجال قبيلة غياثة الرتيب الذي كان يكسر سكون الليل، ومن صراخ الحراس والخفراء الدائم: (انتبهوا للخيل) ومن شخير الدواب وإطعامها. فكرت في

بيتي وعائلتي ووضعي الخاص. وكنت أسمع بين الفينة والأخرى هدير مدفع مكتوم من بعيد، الأمر الذي كان يبهجني ويشهد على أن قبيلة غياثة التي تسكن في محيط تازا كانت في حالة حرب ضد الفرنسيين.

وقبيل الساعة الرابعة صباحاً أيقظت خادمي المخلص بو طاهر الذي قفز مسرعاً من فراشه وحصل على ولاعة من الخفير ليشعل الحطب في الموقد الصغير. سرعان ما بدأ الشاي يغلي، واستعيدت الروح المعنوية. وحتى قبل أن يسطع نور الصباح، سمعت صلاة الناس الرتيبة وهم مجتمعون في مسجد مشيد من الخيام، بينما كان المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة.

أشرقت الشمس مظفرة فوق الجبل الصخري البارد، وأضاءت أشعتها الأولى أسقف الخيام والثياب البيضاء لرجال القبائل المسرعين إلى خيولهم، وهي أثمن ما يملكون.

الفصل العاشر

الانتكاسات وخيبة الأمل

خلال الأيام التالية كان عبد المالك ملهماً لإنجاز مآثر عظيمة، وهو أمر غير مألوف لديه. فقد اقترح أن يقود هجوماً مفاجئاً على قوات عين بو كِحل (?) الواقعة إلى الجنوب الغربي على مرتفعات أولاد بوبكر، وذلك حتى نتمكن من الحصول على المدافع التي كنا في أمس الحاجة إليها.

كان من المقرر تعزيز قواتنا بمزيد من مجندي القبائل. ومع حلول الليل أُشعلت نيران عظيمة على قمم الجبال العالية في المنطقة المجاورة. وسرعان ما ارتفعت أعمدة من النيران في كل مكان على القمم، لتدل على أن الإشارات قد شوهدت وفُهمت. وتدفق المحاربون من جميع الجهات، وسرعان ما ارتفع عدد قواتنا إلى ثلاثة آلاف فارس.

كان من المقرر أن يتم الهجوم ليلاً، ورُصدت مكافآت خاصة كحافز على الاستبسال. كما تم توزيع قنابل يدوية - على الأقل محلية الصنع. ساد حماس كبير في المعسكر، ولكن أيضًا صخب عارم. نوقشت خطة الهجوم بشكل علني. وكشف عبد المالك عن أهداف الخطة وتفاصيلها دون أن يبدي أي قلق، وأعطى بنفسه الأمر بالهجوم على الموقع من ثلاث جهات.

فهل كان من المستغرب أن يتلقى العدو إشعاراً مبكراً عن هذا المشروع الأحمق؟ لقد حاولت بكل الوسائل الممكنة أن أحمل الشريف على العدول عن هذه الانطلاقة اليائسة. وكانت المواقع الممتدة من تازا نحو المرتفعات محصنة تحصيناً جيداً، ومطوقة بالخنادق والأسلاك الشائكة، ومزودة بأحدث وسائل الحرب من رشاشات ومدافع سريعة الطلقات.

تم تجاهل تحذيري.

بعد الصلاة الجماعية انطلقت القوات المكلفة بتنفيذ المهمة في اتجاه الجنوب الغربي مع حلول الظلام. وانطلق هتاف رتيب بين صفوف الفرسان. كانوا قد اجتازوا للتو قرية جبارنة، الواقعة في الوادي، عندما أصابت الطابور أولى القذائف من المرتفعات الجانبية. كانت القذائف قادمة من أولاد بوبكر الذين انضموا إلى القوات الفرنسية. توقف الغناء؛ أصبح الأمر جديًا الآن.

انقسم الرتل وشرع في تسلق المرتفعات عبر مسارات مختلفة. وتسللوا دون ضوضاء عبر موقع عين دروه (?) الفرنسي في الجنوب. وترجل الفرسان في الوادي الصغير الواقع شمال شرقي موقع عين بو كحل، تمهيدا لتسلق المرتفع الذي أقيم عليه الموقع الذي كنا ننوي مباغتته.

ثم أضيء الليل الحالك بغطاء من اللهب الساطع، وأطلقت المدافع والرشاشات الفرنسية قذائفها القاتلة في تسارع محموم. كنت في الصف الأمامي مع عبد النور المخلص والزعيم الشجاع القائد عسو، عندما أطلق أحد رجال بني يزناسن من ورائي صرخة قصيرة سقط على الأرض وقد تهشمت جمجمته. سمعنا عن يميننا ويسارنا أنين الجرحى. من الواضح أن الهجوم الأمامي على الموقع الفرنسي كان مستحيلاً. حاولنا تطويقه.

وتمكن عدد من الرجال من الوصول إلى الأسلاك الشائكة، لكن الحامية الفرنسية كانت منظمة بشكل جيد للدفاع. فشل الهجوم.

نظرت حولي بحثًا عن رجال جزناية الذين كان من المفترض أن يتقدموا من الشمال بناء على أوامر عبد المالك. كانوا قد تركوا الميدان عند إطلاق الطلقة الأولى وتراجعوا في حالة من الفوضى. كان من الجنون مواصلة الهجوم. أعطيت الأمر بالانسحاب، لأن الظلام كان لا يزال حالكاً وكان من الممكن الانسحاب دون خسائر فادحة. سحبت معي أشجع الرجال، وهو القائد عبد النور، الذي كان يرفض العودة بشدة، حيث كان أحد إخوته مصابًا بجروح بليغة على الأسلاك الشائكة. لحسن الحظ، وصلنا إلى خيولنا وعدنا إلى المعسكر، حيث تجمع الرجال الآخرون أيضًا في الصباح. سادت حالة من الانفعال الشديد. كان الجميع يلومون بعضهم بعضاً، ولكن اللوم الرئيسي لم يكن يستحقه الرجال الشجعان البسطاء، بل الشريف عبد المالك الذي كان قد حرض على هذه العملية وبقي في خيمته هادئاً أثناء تنفيذها.

في البداية كان للفشل تأثيرا محبطا على معنويات الرجال، وكنت أنا أيضاً محبطاً. كان من الواضح لي الآن تماما أن خطتي لطرد الفرنسيين من المغرب، أو على الأقل لمنع نقل الجنود من هذه البلاد إلى مسرح الحرب الأوروبية، لن تنجح إذا اعتمدت على عبد المالك. كان عليَّ مهما كلفني الأمر أن أبقي العدو في حالة ترقب دائم لتجدد الهجمات، لكي أحبس قواته. والواقع أن النجاح أصبح الآن غير محتمل إلى أبعد الحدود ما لم أحصل على دعم كامل من ألمانيا وما لم أتخلص من عبد المالك.

لكن سرعان ما خاب أملي في هذا الصدد، وكدت أعقد العزم على التخلي عن نشاطي داخل البلاد. كما كان علي أن أتعامل مع خباثة جندي اللفيف الأجنبي الذي عمل، بالاشتراك مع بل سيرغا، ضد تنفيذ خططي بأكثر الطرق خزياً.

كما سبق لي أن ذكرت، فإنني عندما أرسلته إلى مليلية أعطيته أوامر صارمة بألا يقوم بأي شيء قبل أن أستدعيه. وذات يوم استدعاني عبد المالك إلى خيمته التي كان يجتمع فيها بعسو قائد الفرسان، وكذلك زعماء آخرون من قبيلة غياثة.

وأطلعني الشريف وهو يضحك بسخرية على رسائل من بل سيرغا وجندي اللفيف مفادها أن هذين الوغدين كانا يعتزمان الذهاب إلى غياثة لكي ينظما بأنفسهما محلة هناك. كانا قد أرسلا أيضًا عددًا من الهدايا القيمة إلى زعماء قبيلة غياثة. وبالطبع، كان كل ذلك خداعًا. كان لا بد من إيقاف الأنشطة الشائنة لهؤلاء الأشخاص على الفور. فغضب الشريف غضباً شديداً وحثني على أن أوقف هذه المخالفات فوراً، وإلا فإنه لا يستطيع أن يضمن شيئاً. وكان يخشى أيضًا أن يحدث في غياثة ما يتعارض مع رغباته.

وتجدر الإشارة إلى أن النية الواردة في الرسائل من إثارة قبائل غياثة وبني وراين في الأطلس المتوسط ضد فرنسا كانت مطابقة للاقتراح الذي قدمته فور وصولي إلى معسكر الشريف.

من الواضح أن أعدائي قد استولوا على خطتي واستغلوها من أجل انتزاع المال من الحكومة الألمانية. والواقع أن هؤلاء المارقين لم يكن لديهم أي نية للذهاب إلى غياثة. ومرة أخرى اقترحت على الشريف أن يتبنى هذه الخطة القديمة بسرعة ولكن دون أن يلاحظها أحد.

وكنا قد اكتشفنا أن بين القوات الفرنسية عدة آلاف من جنود اللفيف الأجنبي الألمان، ولم يكن من المبالغة أن نفترض أن عدداً كبيراً منهم سيحارب إلى جانبنا في ثورة عامة للقبائل. وفي الحال كتبت إلى الحكومة الألمانية تقريراً مفصلاً في هذا الشأن، وكان الغرض منه إحباط نشاط جندي اللفيف وبل سيرغا. كيف يمكن لهذا الأخير أن يعمل لصالح ألمانيا؟ لقد كان أبوه في خدمة الفرنسيين في تازة، وكان أخوه يعمل في مركز فرنسي، وكل هذا لا يمكن بالطبع أن يبقى مجهولا بين رجال قبيلة غياثة.

بقيت جالساً مع عبد المالك حتى ساعة متأخرة من الليل، وسعيت بكل ما أوتيت من قوة الحجة لإقناعه بأن خطتي هي الخطة الصحيحة. لكن الشريف ظل متعنتًا. والواقع أن أحد أسباب تردده كان يكمن في حقيقة أن القبائل المعنية كانت قد طردته ذات مرة ورفضت الاعتراف به. فقلت له أن عليه أن يؤجل انتقامه من هذا الغدر حتى يصبح سلطاناً. وبدا لي أن عبد المالك قد وافق على ذلك، ولكنه أرسل إليّ في صباح اليوم التالي يخبرني أنه رفض الخطة لأنها بدون قيمة.

فتوجهت إليه، وبعد مناقشة طويلة أقنعته أن يرسل أربعة مبعوثين إلى غياثة من أجل إقامة اتصال مع القبائل.

تسبب لي سلوك جندي اللفيف في قلق شديد. واتضح لي أنه تمكن من خلال اعتراض تقاريري وتغييرها من الحصول على ثقة الحكومة الألمانية، ونال موافقتها على تشكيل قوة مقاتلة ضد فرنسا. والواقع أن الأموال التي حصل عليها لهذا الغرض قد بددت ووجدت طريقها إلى جيوب شركائه المغاربة. علاوة على ذلك، فقد وقعت مهمة الاتصال بألمانيا في يد رجل كان جهله بأحوال المغرب يجعله غير مناسب تماماً لهذا الدور.

فجأة سرت إشاعة مفادها أن جندي اللفيف شوهد بالقرب من المراكز الإسبانية داخل البلاد، ولكن لحسن الحظ أن هذا الخبر كان كاذباً. فقد تشابهت الأنباء حوله مع جنديين ألمانيين من اللفيف الأجنبي كانا قد فرا إلى هناك.

بما أنه كان من الضروري بالنسبة لي أن أستوضح الأمر، فقد أرسلت تقريراً جديداً بمسارين مختلفين إلى الساحل، أحدهما بواسطة رسول والآخر بواسطة المخلص عبد النور، الذي أوعزت إليه أيضاً أن يعود بالجندي إلى معسكرنا.

أما الشريف فقد بدا لي في ذلك الحين غير جدير بالثقة على الإطلاق، بل أكثر من ذلك فقد علمت أن أقاربه، ولا سيما أسرته المقيمة بتطوان، قد تلقوا عروضا مغرية من الفرنسيين، وأنهم كانوا يحثونه على قطع الصلة بي.

ظهر عدو جديد يحظى بثقة الشريف ضدي في شخص المدعو البلغيتي الذي كان يجاهر بمعارضتي ومعارضة المصالح الألمانية في حضور رجال قبيلة غياثة داخل المعسكر. قال لهم " إن ألمانيا تملك مستعمرات إفريقية كبيرة وتريد ضم المغرب كله. وبذلك لن تمارس ألمانيا أي تمييز وستأخذ من أهل غياثة غاباتهم وأراضيهم بكل تأكيد".

لم ينجح عبد النور في إعادة الجندي إلى المعسكر. بل اضطر إلى إخباري بأن هذا الأخير قد شق طريقه إلى بل سيرغا في معسكر بو رحاير لكي يستأنف نشاطه المخادع. عندما وصلني هذا الخبر، كنت على وشك

اليأس. ماذا سيحدث الآن؟ لقد أصبحت خطتي كلها التي بدأت بنجاح كبير معرضة للخطر، وسيضعف موقفي إزاء الشريف الذي لم يكن إلى جانبنا إلا بفتور. لقد بلغني أن الجندي بالاشتراك مع بل سيرغا قد دعيا إلى عقد تجمعات شعبية حرض خلالها ضدي. أما مدى جديته في تنظيم فرقة مقاتلة فيظهر من خلال المشروع غير العملي والسخيف في ذلك الوقت المتمثل في الزحف مع الريفيين عبر مئات الكيلومترات من المناطق البعيدة من أجل مهاجمة الفرنسيين!

سرعان ما ظهر النشاط الآثم لأعدائي الشخصيين: فقد قُتل اثنان من رسلي بينما تعرض آخر للسطو والنهب. واعترض بل سيرغا رسائلي ومزقها أو تسبب في تأخر وصولها أربعة عشر يوماً.

بينما كان الشريف يدفع لرجاله 1.25 بسيطة في اليوم، كان بل سيرغا يمنح رجاله الأقل عددًا ضعف ذلك. وبالطبع سرعان ما أصبح هذا الأمر معروفًا بين رجالنا الذين كانوا مستائين للغاية. ونتيجة لذلك اندلع تمرد في إحدى الليالي في معسكرنا ولكننا تمكنا من تهدئة الرجال.

كنت على استعداد أن أستقيل من منصبي في معسكر عبد المالك، وأن أتوجه جنوباً وحدي إلى بني وراين ولو بدون تأييد الحكومة الألمانية، وقد أبلغت ألمانيا بهذا العزم. وتلقيت جواباً مفاده أنه لأسباب دبلوماسية يجب أن أبقى مع الشريف دون قيد أو شرط. لذلك بقيت.

في يوم من الأيام تلقيت رسالة من طبيب ألماني ورفيقه اللذين كانا مقيمين في تطوان منذ شهر سبتمبر سنة 1915، يعربان فيها عن عزمهما على الالتحاق بي. يمكنك أن تتصور مدى سروري باحتمال وجود هذين المواطنين معي. وقد شجعني قبل كل شيء الأمل في الحصول على المساعدة الطبية. وبصرف النظر عن أنشطتي الأخرى المكثفة، فقد كنت حينها أقوم بمفردي بمعالجة 40 جريحاً في أصعب الظروف.

وبناءً على طلب هذين السيدين المتجدد للمساعدة لتمكينهما من القدوم إليّ بأسرع ما يمكن، حاولت أن أحصل على مساعدة عبد المالك. ولهذا الغرض أرسلت جميع الرجال المصابين بجراح طفيفة، مصحوبين ببعض القادة ذوي النفوذ، لطلب المساعدة الطبية من الشريف. علاوة على ذلك، أبلغت الشريف أنه لم يعد بإمكاني في المستقبل، بسبب واجبات أخرى ملحة، أن أعتني شخصيًا بأي من الجرحى. لم أتلقَّ أي جواب من الشريف، فذهبتُ إليه وتوسلت إليه بإلحاح أن يستجيب لطلبي. وفي النهاية أعطاني وعده الذي لم يفِ به.

بينما كنت أفكر في طرق ووسائل إحضار الألمانيين دون مساعدة عبد المالك، إذ بلغني خبر تعذر مجيئهما بسبب المرض. والواقع أن الشريف، كما اعترف لي بنفسه فيما بعد، كان قد اتخذ خطوات عن طريق أحد أصدقائه من القواد لمنع مجيئهما. وهكذا انطفأ بصيص أمل جديد بالنسبة لي.

حلّ شهر يناير 1916. كنا قد انتصرنا في عدة معارك صغيرة مع مفارز فرنسية ضعيفة، عندما وردت الأخبار بأننا سنضطر إلى مواجهة تقدم طابور فرنسي قوي من تازا. لم يكن لهذه الأخبار وقع الموسيقى في أذني. وبسبب دسائس بل سيرغا ظهر السخط مرة أخرى. لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية ولا مجهزين بما فيه الكفاية لمقاومة هجوم قوي للعدو بنجاح. ومع ذلك، فإن هذا القتال سيكون أفضل من الخمول والانشقاق في معسكرنا، الأمر الذي كان سيؤدي بالتأكيد إلى كارثة. فأرسلت عبد النور إلى قبيلة بن بو يحيي التي وعدتني في حالة الحاجة بالمُبادرة إلى مساعدتي.

في يوم 20 يناير 1916، أحضر لي رجال قبيلة غياثة رقيبا فرنسيا كان قد وقع في الأسر وأكد لي أن الرتل الفرنسي كان على أهبة الاستعداد للتقدم. ولكي أحمي هذا الرجل من غضب رجال القبيلة الذين أرادوا قتله، أرسلته إلى الساحل متنكراً تحت حماية رجال عبد النور. كما جُلب لي ثلاثة ألمان آخرين هاربين من اللفيف الأجنبي الفرنسي. كنت متردداً فيما إذا كان ينبغي لي أن أحتفظ بهم، لأنهم كانوا أشخاصاً مشكوكاً في أمرهم ومغامرين ولا يمكن الاعتماد عليهم. علاوة على ذلك، فقد واجهت معارضة من عبد المالك الذي كان يخشى أن أتمكن، في حالة تدفق المزيد من أفراد اللفيف، من إنشاء حرس شخصي. وعلى الرغم من أنه منعني من الاحتفاظ بهم لأن سمعته كشريف ستتأثر، كما كان يعتقد، بوجود عدد من الكفار في المعسكر، إلا أنني تجاهلت أوامره.

كان من المتوقع أن يحدث الاصطدام مع القوات الفرنسية الزاحفة من تازا يوم 27 يناير، وكان لدينا سبب لافتراض أن قوات معادية أخرى كانت تتحرك من جهة فاس غربا.

كان الجنود المحليون المنحدرون من قبيلة غياثة يصلون الآن يوميًا؛ ومع ذلك كان معظمهم يحملون بنادق قديمة من مختلف الأنواع، كما كانوا يتوفرون على عدد قليل جدًا من الخراطيش. أما نحن فكان لدينا مخزون من 15,000 خرطوشة فقط. كان في المعسكر حوالي 40 بندقية حديثة، أما البقية فكانت شَسْبُوَات[7] رديئة وبنادق الإلقام الفُوَهي. وبالتالي لم يحصل كل واحد من رجالنا الألف إلا على حوالي 5 إلى 10 خراطيش. أما الباقي فقد احتفظت به في الوقت الحاضر.

كان العدو يتقدم.

في منتصف ليلة 26 يناير غادرنا المعسكر، وتحركنا تحت القيادة العليا للقائد عسو في عدة طوابير لملاقاة الفرنسيين. في الوقت نفسه تقدمت القبائل الصديقة لنا عبر المرتفعات المحيطة بنا. وعند طلوع الفجر، كنت بصحبة عبد المالك متوجها إلى المعركة عبر قرية جبارنة الواطئة، بعد أن أوعزت إلى خادمي بو طاهر أن يعتني بأمتعتي الشخصية. وهناك تركت خلفي أيضًا جنود اللفيف الأجنبي الألمان الثلاثة.

لم نكد نمر بالقرية المذكورة حتى سُمع دوي أول قذيفة مدفع.

بعد ذلك بفترة وجيزة فُتحت نيران البنادق من الاتجاه الجنوبي الغربي، بالإضافة إلى قعقعة المدافع الرشاشة. لم يكن قد مضى على سيرنا حوالي ربع ساعة عندما انفجرت القذيفة الأولى بصوت مدوٍّ على بعد حوالي 13 مترًا على جانب طريقنا. فترنحت خيولنا واندفعت، وقال البلغيثي، مستشار عبد المالك السري، للشريف: "إن الوضع غير آمن اليوم". انفجرت المزيد من القذائف من حولنا. ضجّ الهواء بالصراخ والصفير والغناء، مما دفعنا إلى المضي قدمًا. بعد ذلك بقليل صادفنا أولى الجرحى، وبصحبتهم عدد من الرجال غير المصابين.

أراد عبد المالك أن يجبرهم على العودة، لكنهم تجاهلوا أوامره، وراحوا يركضون وهم يصرخون بأنه لم يعد لديهم المزيد من الخراطيش.

---

[7] الشَّسْبُوَّة بندقية مغلاقية عسكرية مزودة بمسامير. تشتهر بأنها كانت من معدات القوات الفرنسية في الحرب الفرنسية البُرُوسية بين عامي 1870 و1871م.

قرابة الساعة السابعة صباحًا كنت قد وصلت مع عبد المالك إلى المرتفعات الواقعة جنوب قرية جبارنة. ألقيت التحية على أفراد قبيلة جزناية الذين كانوا يسيطرون على المرتفعات. وكانوا ملحقين بالكبدانيين الشجعان الذين كانوا قد بدأوا في التقدم بعد أن كانوا تحت نيران المدافع الفرنسية التي كانت مرئية على التلال المقابلة.

أراد الشريف أن يرسل رسولاً إلى الكبدانيين يأمرهم بالمرابطة في مكانهم. فصاح الرجال بالفارس أن يتفادى وادياً يقع بجوارهم مباشرة. لكنه لم يعر الأمر أي اهتمام. وعندما وصل إلى الوادي، مزقت قذيفة حصانه الى أشلاء.

أصبح القتال أكثر جدّية. ورأيت قذيفة تنفجر في صفوف رجال قبيلة جزناية فتدحرج ستة رجال بين قتيل وجريح على المنحدر. كان الفرنسيون يتقدمون بقوة كبيرة من ثلاث جهات. كانت المدفعية والمدافع الرشاشة تمطرنا بنيران مدمرة. وكانت المنطقة الواقعة خلفنا تحت نيران المدفعية والرشاشات أيضاً لتصيد التعزيزات المتقدمة ولإرباك الفارين الذين كانوا يظهرون هنا وهناك.

فجأة اختفى الشريف، ثم ما لبثت أن رأيته بعد ذلك يفر بين الفارين. صرخ عبد النور في وجهي: "يجب أن نعود أدراجنا، لقد نفدت جميع خراطيشنا!" سيطر عليّ اليأس الشديد. بقيت في مكاني في ذلك الوقت، لأن عددًا من رجال القبائل الراقدين بالقرب مني حاولوا أن يثبتوا في مكانهم. ورأيت العدو يقترب، وعندما نظرت إلى الوراء على أمل أن يأتي بعض المدد من تلك الجهة، رأيت رجال القبائل عند سفح الجبل يتراجعون في كر وفر.

كنت أفكر فيما كان من الأفضل أن أفعله، حيث لم يبق معي سوى خمس خراطيش، عندما سقطت أولى رصاصات الدمدم المتفجِّرة[8] على الأرض. أما رجال قبيلة مطالسة الذين لم أكن أثق بهم قط، فقد انقلبوا فجأة ضد رجالي وضدي، بعد أن رأوا المنحى غير المواتي الذي اتخذه القتال. قفزت خلف المرتفع لأركب حصاني. وفي هذه اللحظة انفجرت الشظايا فوقنا مباشرة. كانت احدى رجلي في الرِّكاب عندما انتفض حصاني، ذلك المخلوق الرائع الذي قطعت على صهوته الكثير من الكيلومترات والذي كان هادئاً كالحملان عادة. وعندما صعدت على السرج، أخذ اللجام بين أسنانه واندفع كالذي تطارده الشياطين على طول التلال باتجاه الفرنسيين. كنت قد يئست عندما ألقيت في اللحظة الأخيرة بسلهامي على رأسه فتوقف عن السير. قام رفيقي سي حمو الذي كان يسير خلفي بتعديل اللجام تحت نيران المدافع الكثيفة، وبعد أن انتهينا من ذلك انحدر كلانا على جانب الجبل باتجاه المعسكر. نجوت من الموت أو الأسر بمعجزة.

عندما اقتربنا من سفح الجبل وجدنا أن الجنود الفرنسيين قد وصلوا إلى الوادي. بعد أن خفضنا رؤوسنا ركضنا بمحاذاة ضفة النهر، مروراً بقرية جبارنة التي كانت ألسنة اللهب الساطعة تلتهمها.

[8] الرصاص المتفجّر أو رصاص الدمدم أو رصاص دوم دوم هو نوع من الرصاص الخاص صُمِّم للتشظي في أجساد الضحايا بهدف إيقاع أكبر قدر ممكن من الضرر الداخلي بهم. استخدمه أندرس بهرينغ بريفيك في مجزرة النرويج. ويستخدمه الجيش الإسرائيلي ضد الأطفال الفلسطينيين. وهو محرم دولياً.

شاهدنا أمامنا رجالاً ونساءً وأطفالاً يفرون بأمتعتهم، وكذلك الأهالي الذين يحملون معهم الجرحى والقتلى. مررت بعبد المالك الذي طلب مني التوجه إلى المعسكر لوضع خراطيش الديناميت هناك في مكان آمن. وانطلق هو نفسه إلى اليسار باتجاه الجبل، مسرعًا للهروب من منطقة الخطر.

وصلنا أنا وحمو إلى المعسكر الذي كان منظره مروعًا بعد القصف. كان جرحى الاشتباكات السابقة لا يزالون مستلقين على يسار المعسكر إلى جانب سفح الجبل، وكان الجرحى الذين أصيبوا بجروح طفيفة قد جروا أنفسهم بعيدًا. على الرغم من نيران المدفعية المتواصلة، توجهت إلى خيمتي وجمعت على عجل كل أوراقي المهمة. وقد تعمدت أن أترك الصحف الألمانية ملقاة في كل مكان، حتى يرى الجنود الألمان في اللفيف الفرنسي كيف كانت الأوضاع في ألمانيا.

كان جنود اللفيف الأجنبي الثلاثة الذين تركتهم في المعسكر مع خادمي بو طاهر قد غادروا مع الفارين. غير أنهم كانوا قد تركوا بغلين وراءهم: لذلك تمكنت من تحميلهما بمتعلقاتي.

قام رجال القبائل، بمساعدة الكبدانيين، بتفكيك خيمتي وتجميع مختلف المعدات. وقع نصف خيمة عبد المالك فقط في أيدي العدو؛ أما النصف الآخر فقد دمرته قذيفة.

كان رجالنا لا يزالون يرابطون عند مدخل المعسكر في مواجهة العدو، من أجل تغطية عملية الإخلاء. هنا سقط ابن الشيخ الهادي برقيش الشجاع، الرجل كان وفيًا لي تمامًا. ظل الشيخ ولد عبو يصيح: "دورو مقابل خرطوشة! " وعندما أُطلقت آخر خرطوشة، انسحب رجالنا الشجعان إلى الشمال واستولى الفرنسيون على أنقاض معسكرنا.

لقد تلقينا ضربة قوية بفقدان القائد عسو الذي أصيب بجروح بليغة في فخذه ومات متأثرا بجراحه بعد شهر في غياثة. كان من المؤكد أنه سينجو لو عولج بشكل أفضل، ولكن بسبب جبن الشريف لم نكن نتوفر على طبيب. سقط العديد من رجال قبيلة غياثة الشجعان. ومن بين رجالي الـ14 اثنان منهم لقيا حتفهما وأربعة جرحوا.

بعد أن ابتعدت عن المعسكر، وجدت خادمي بو طاهر متخفياً في الجبال ليحرس جزءاً من ممتلكاتي. ثم كان عليَّ أن أبحث عن جنود اللفيف الذين التقيتهم أخيرًا في الجبال البعيدة بين الفارين. كانوا قد تخلوا عن بنادقهم. فأخذتهم إلى مرابطين على بعد 16كيلومترات من سوق الاثنين. كان وضعي الخاص غير مريح بالتأكيد، إذ كنت أواجه طوال الطريق رجالاً مستائين. وبصعوبة بالغة استطعت أن أحمي جنود اللفيف من غضب الناس.

لحسن الحظ، التقيت في الطريق إلى مرابطين بالشيخ أحمد بن عمار الذي كان ودوداً معي، والذي أرسل الجنود إلى الأمام تحت حماية رجاله. رافقني هو بنفسه في طريق عودتي إلى الوراء، لكي يتأكد من مكان تواجد الفرنسيين. وتوقفنا على بعد نحو 3كيلومترات من المعسكر، حيث رأينا الفرنسيين منهمكين في إحراق الحصير القديم والخيام التي تركناها وراءنا.

في أقصى الجنوب عند النهر كان العدو قد نصب معسكراً كبيراً. آه! لو توفرت لدينا خراطيش، كم كنا سنقلق راحتهم. ولكننا اضطررنا على مضض إلى الانسحاب وشق طريقنا إلى وادي أولاد شانجا (?) في الشمال،

إلى القائد موحوش، حيث كان عبد المالك قد وصل لتوه مع الكبدانيين. حاولتُ جاهداً أن أظهر وجهاً بشوشاً وقلتُ للشريف والرجال الآخرين: " الحمد لله! السلام عليكم! إنه القدر! "

بعد أن تم إعداد مكان مبيت الرجال وإطعام الخيول، جلسنا لتناول الشاي. لم أجرؤ على إظهار أي مؤشر على يأسي، لكن قلبي كان ثقيلًا. لقد حزنت على فقدان العديد من الرجال الشجعان؛ كما حزنت على النتيجة السيئة التي أسفر عنها هذا اليوم، ولكنني مع ذلك كنت قد عقدت العزم على مواصلة الطريق الذي كنت قد بدأته. لقد أدركت جيداً أنه من المستحيل تحقيق نصر باهر؛ فقد كان توزيع القوات والعتاد غير متكافئ للغاية. كان العدو يتوفر على أكثر من 20.000 رجل، بمن فيهم رجال القبائل، مدعومين بالمدفعية والرشاشات؛ وعلاوة على ذلك كان هناك 4.000 رجل يتقدمون من جهة فاس، وقد ضغطوا على جناحنا الضعيف بعد مقاومة شديدة استمرت يومين. كان كل نشاطي هنا ينحصر في هذا: أن أسعى جاهدا - بإثارة التمردات باستمرار - إلى إبقاء الفرنسيين في حالة توتر وإبقاء قواتهم في المغرب.

بعد أن أنهكني التعب، عدت إلى خيمتي وأعددت خلال الليل تقريرا جديدا إلى الحكومة الألمانية، وصفت فيه الوضع، وحثثت على قطع علاقاتي مع عبد المالك والسماح لي بتكوين قوة مقاتلة من بني وراين. وأشرت مرة أخرى إلى السلوك الدنيء لجنود اللفيف وبل سيرغا.

في اليوم التالي نصبنا معسكرنا على بعد 10 كيلومترات جنوباً باتجاه بوحدود. كان الفرنسيون قد كفوا عن مواصلة المطاردة. كانت مهمتنا الأكثر إلحاحا هي جمع رجالنا المشتتين وزيادة قواتنا. وبفضل نفوذ الشيخ سيدي الهادي محمد بو جداين الذي كان على علاقة صداقة بي، أصبح الريف الفرنسي كله يميل إلى مشروعنا، وتلقينا تعزيزات قوية من جميع الجهات.

الفصل الحادي عشر

نزاع مع عبد المالك

عزمت على استدعاء جندي اللفيف لمحاسبته على عمله الدنيء، فدعوته إلى اجتماع في مكان محايد، وهو محل الشيخ بو جداين. انتظرته هناك ولكن دون جدوى. وبدلاً من ذلك أحضر لي رسولٌ رسالة مكتوبة بخط يد الشريف نفسه، يأمرني فيها بفظاظة "أن أعود إلى وطني بهدوء، لأن رجال القبائل لم يعودوا يتحملونني في بلادهم". فأجبت عبد المالك بأدب بالغ بأنني سأصل في الصباح الباكر من اليوم التالي إلى معسكره، وعندئذ يمكن للرجال أن يقرروا في حضوري ما إذا كانوا لا يزالون يرغبون في بقائي أم لا.

أعقب رسالة الشريف الأولى رسالة ثانية هددني فيها بأنه سيأمر بهدم خيمتي إذا لم أعد إليه في المعسكر فوراً. فكتبت إليه عندئذ، وأنا لا أزال أتعامل معه بأدب، بأنني سأصل في صباح اليوم التالي، ولكن إذا أراد هو نفسه أن يأتي خلال الليل لهدم خيمتي فهو مرحب به. سأقدم له ولرجاله استقبالاً حاراً بما فيه الكفاية.

وقعت حادثة في ذلك المساء كادت تكلفني حياتي، لولا أن خادمي بو طاهر أنقذني بمحض الصدفة. فبالإضافة إلى رسائل عبر رسل سريين كنت قد تلقيت من مليلية ثلاثة صناديق صغيرة من الزبد المحفوظ. وكان خادمي يلهو بأحد الصناديق وأثناء ذلك أزال الملصق المثبت على قاع الصندوق، ففوجئ بأن قاعه مثقوب؟ ثم أحضر لي الصندوقين الآخرين وأزال الملصقات عن الصندوقين الآخرين في حضوري. تخيلوا! كانت القيعان مثقوبة أيضًا. أخذنا جزءاً ضئيلاً من الزبدة، وفردناها على قطعة من الخبز، وألقينا بها إلى كلب أصيب بتشنجات ومات بعد أكلها مباشرة. من الواضح أن النية كانت مبيّتة لتسميمي. ولسوء الحظ، لم أعرف لمن كنت مديناً بهذه الفكرة الودية. خمنت أنه نفس القاتل الجبان الذي وقع المسكين فار ضحية له.

في صباح اليوم التالي ركبت، كما هو معلن، برفقة ثلاثة من رجالي إلى بو حدود، معسكر الشريف الجديد. ولدى وصولي قوبلت باستقبال عدواني للغاية. كانت المرتفعات المحيطة مكتظة بالرجال. لم يكن هناك صوت مسموع، وحتى الخيول بدت وكأنها تشم رائحة الكارثة. في المعسكر نفسه احتشد حوالي 2000 رجل كانوا قد انقسموا إلى مجموعات مختلفة.

بعد وصولي مباشرة استدعاني عبد المالك. فسبقني رجالي لكي يمهدوا لي الطريق، وقد أفسحت لي الجموع المتذمرة الطريق على مضض. لم أكن أتوقع خيرًا، ولذلك كنت قد أعددت مسدسي الذي أخفيته تحت سلهامي.

كان حوالي خمسين رجلاً يقفون أمام خيمة عبد المالك كحراس. ولاحظت خلف خيمته سلاسل حديدية ملقاة على الأرض؛ ولا شك أنها كانت معدّة لتكبيلي أنا ورجالي. دخلت خيمة الشريف، وعلى شفتيّ التحية العربية المعروفة. وبدون أن أتلقى أي رد، نهض عبد المالك واستفسرني قائلاً " ماذا كنت تفعل مع بو جداين ؟ "

نظرت إليه بثبات وأجبته: " لماذا تسأل؟ أنت تعلم جيداً أن الهدف الوحيد من زيارتي كان بسبب جندي اللفيف ".

فلم يرد على ذلك، ثم سلمته رسالة من بو جداين. فتفحصها ثم قال بفظاظة: " ضع مليوناً تصرفي واحرص على أن تجعل نفسك قليل الظهور".

فرددت عليه "أنت تطلب المستحيلات ولا يحق لك أن تطلبها. لقد بقيت مخلصًا لك وخدمت مصالحك".

ثم التفت الشريف إلى أبناء البلد ووصفني بـ"الكلب المسيحي". وخلال بقية المقابلة ازدادت حماسة عبد المالك أكثر فأكثر، وظل يكرر أنه لا ينبغي السماح لي بمغادرة المعسكر قبل أن أودع مليوناً. فوثبتُ واقفاً على قدمي قائلاً: " ملعونون كل أبناء الخطيئة! " وأدرت ظهري للشريف، ورفعت عباءتي وكأنني أخشى التعرض للتلوث، وغادرت الخيمة.

ناداني الشريف وأمر رجاله بإحضار الشيخين أحمد بن عمار وسي أحمد بركان. ونظر حوله فوجد الجبال المحيطة به كلها مأهولة بالرجال، فخرجت من الخيمة. كانت القبائل تنتظر فقط تنفيذ مذبحة ونهب شاملين.

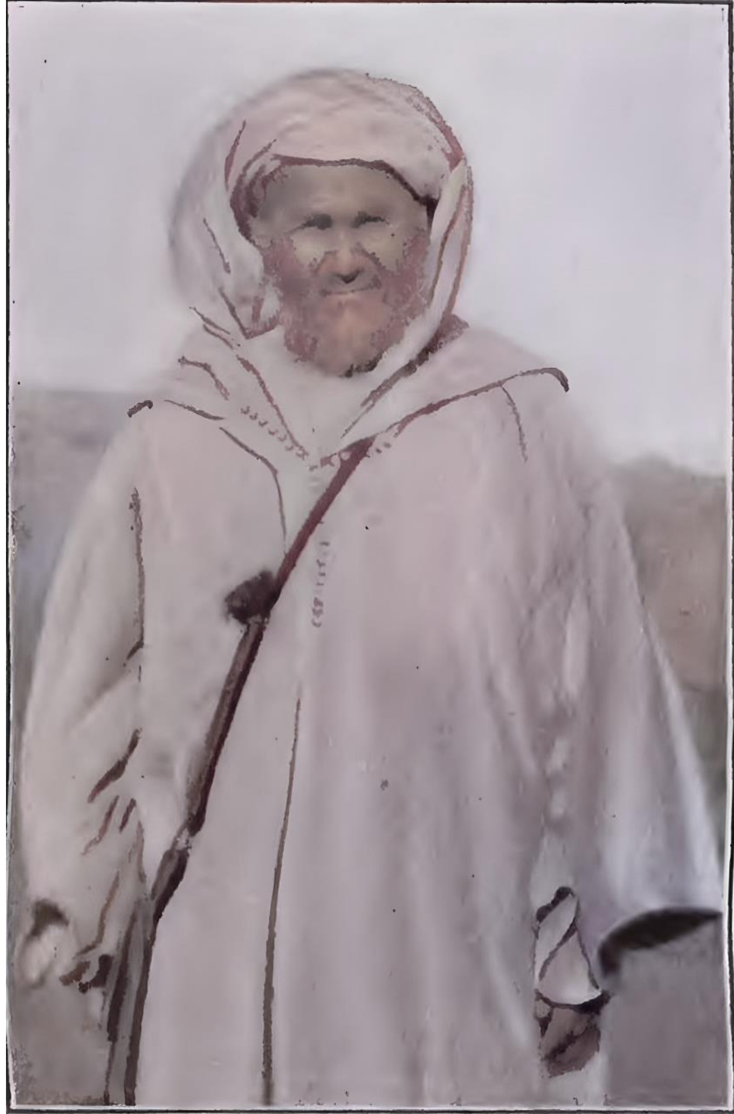
وما كدت أصل إلى خيمتي لأتناول كوباً من الشاي، حتى ظهر خادم عبد المالك وقال إن رجال قبيلة غياثة يريدون التحدث إليّ. فخرجت. جلسنا تحت خيمة كبيرة كانت تضم حوالي 150 شخصًا. جلست عن يمين الشريف، وكان على يساره سي محمد نوري، وهو تركي، وكذلك عدوي البلغيتي، ولم يكن في الخيمة سوى رجال غياثة.

كان أمام الخيمة حوالي 500 رجل. ساد سكون غريب. لم يتفوه أحد بكلمة، وبدا الجميع وكأنهم يستشعرون كارثة قادمة. وبعد لحظة نهض عبد المالك وأشار إلى نفسه وقال: " ها أنا ذا الشريف"، ثم أشار إليّ ساخراً: "ها هو الألماني السيد هيرمان ممثل ألمانيا وهناك سي محمد نوري التركي. أخبروني يا رجال غياثة، هل تريدون مسيحيا في المعسكر ليقودكم ضد الفرنسيين؟ "

تعمّد عبد المالك التشديد على كلمة "مسيحي"، أملاً في أن يخلق تحاملاً ضدي منذ البداية. وساد صمت قصير، ثم وقف أحد رجال قبيلة غياثة وهتف: "نعم يا سيدي إن كانت هذه مشيئتك". وعندها أجبته على الفور: " الحمد لله! بارك الله فيك يا سيدي عبد المالك "



بو رحاير



القائد بوالصرة



التركي نوري والبلغيثي

.لاحظت كيف تغيرت ملامح الشريف بعد هذه الكلمات، فقد تغير لونه ورمى بنظرة متجهمة إلى رجل غياثة

كان قد بلغ إلى علمي أن عبد المالك قد تحدث مع الرجال عشية اليوم الذي سبق هذا الاجتماع، وحثهم على ألا يسمحوا بأي حال من الأحوال بتجميع قوة من أبناء قبيلة غياثة.

كان عليّ أن أتصرف بسرعة. لذلك وقفت وألقيت الخطاب التالي : " يا رجال غياثة! أنتم تعرفون من أنا وماذا أريد. لا، ليس أنتم وحدكم، بل كل المسلمين في المغرب يعلمون أنني لم آت إلى هنا إلا لمساعدتكم. أنا هنا لأخبركم أن ساعة خلاصكم قد دقت، وأن على جميع القبائل أن تقف الآن صفاً واحداً وتزحف ضد الفرنسيين. أنا لا أريد أن أتشاجر معكم، ولا أريدكم أنتم أن تفعلوا ذلك، أنتم جميعًا إخوة، لا أريد أن تتشاجروا مع بعضكم البعض. ثقوا أنني لن أرسل أي مسيحي إلى غياثة. هنا في المعسكر فيكم ما يكفي من الزعماء ذوي السمعة الحسنة لتكوين محلة. عبد المالك سيُعيّن منكم شريفًا يقودكم بعون الله ضد الفرنسيين. وهكذا فقط ستسلم المملكة المحروسة من النصارى. وإن لم ترغبوا في وجودي هنا فسوف أركب إلى الساحل هذا المساء". علمت أن المسألة الآن مسألة حياة أو موت بالنسبة لشخصي ولقضيتي. وقفت وسط الجموع وتكلمت بصوت عالٍ بحيث أمكن سماع صوتي في المحلة كلها.

من موقف الرجال وهمهماتهم، استنتجت أنهم يؤيدونني، حتى أن الرجال الذين كان عبد المالك قد رشّاهم لم يكن لهم حول ولا قوة على فعل شيء.

ثم وقف القائد بوالصرة. كان هذا الرجل قد أخبرني قبل أسبوعين فقط أنه سيذهب معي أو مع أي ألماني آخر أسميه إلى غياثة، وكان يدين بحياته لتدخلاتي. لكنه تحت تأثير عبد المالك صرخ وعيناه على الشريف: " حتى لو أمرت بذلك يا مولاي فلن نطيع، ولكن إذا أمرتنا بإطلاق النار على سي هرمان فسنفعل ذلك في الحال ".

لقد أتعبني هذا الغدر كثيرًا. لم أستطع أن أحتمل مثل هذه المؤامرة المبتذلة من جانب عبد المالك لحظة أخرى.

وقفت وصحت: "كلب! جبان! غشاش! ".

ما كدت أن أنطق بهذه الكلمات وأنا في أعنف حالات الانفعال حتى رأيت الشريف يغادر الخيمة.

وسرعان ما بدأت الخيول تركض في المحلة وصيحات "استعدوا! استعدوا! " يتردد صداها من كل جانب.

ركضت وسط الحشد إلى خيمتي. أطلقت بعض الطلقات النارية.

حاول الشريف الفرار مع أتباعه، لكنه اضطر تحت تهديد السلاح إلى البقاء. لقد فهم أن أمره قد افتضح : لقد أدت دسائسه إلى سقوطه. عاد إلى خيمته محطمًا. كانت لعبته قد انتهت. لكنه ظل يحاول أن يلعب دور الرجل النبيل، وبعد فترة وجيزة أرسل لي ألفي دورو من النقود الحفيظية المتقادمة. فذهبت إليه وأعدت إليه النقود وقلت له: "أنا هنا لمساعدتك، ولكن إذا كنت عائقا في طريقك فسأرحل بعد ساعة!".

فلم يجبني الشريف، بل صرفني بإشارة محتجّة.

عزمت على الانصراف في المساء، لأترك عبد المالك وأتوجه إلى الساحل، إذ بدا لي بعد الذي حدث أن كل محاولات الوساطة قد أصبح ميؤوساً منها.

قرابة الساعة الثانية بعد الظهر عاد عبد النور من رحلته إلى الساحل. فقصصت عليه المناقشات التي دارت مع عبد المالك، وعندئذ حاول أن يغير تصرفات الشريف، ولكن دون جدوى.

علمت أن عبد المالك كان في نيته الأصلية أن يهرب في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولكن لا بد أنه أدرك أن ذلك كان يعني موته المحقق. فأرسلت إليه رسالة بأنني ذاهب إلى ألمانيا، وأنني سأساعده من هناك.

وطلبت من عدد من زعماء القبائل أن يبقوا مع الشريف. وعندما غادرت وجدت 40 من رجال قبيلة غياثة مستعدين لمرافقتي. أما باقي القبائل التي علمت برحلتي، فقد رافقتني مسافة لا بأس بها من الطريق. وركبت تحت المطر المنهمر، يرافقني الكبدانيون وعدد من رجال قبيلة غياثة في البداية إلى شوجا، حيث نزلت في بيت مع القائد موحوش.

الفصل الثاني عشر

رحلة إلى مليلية ذهاباً وإياباً

كنت قد انطلقت من مليلية بآمال عريضة؛ وكان كل شيء قد تهيأ على أحسن حال، هل ينهار الآن المخطط كله بغدر جندي ألماني من اللفيف الأجنبي وموقف عبد المالك العدائي؟

هذا أمر لا ينبغي أن يحصل! هكذا عزمت على أن أتوجه أولاً إلى الميناء لكي أجعل المجرم غير مؤذٍ وأتصل بالحكومة الألمانية.

أما رجالي الذين لم يعودوا آمنين بين أهل البلد فقد تركتهم ورائي في كوخ الشيخ الودود سيدي بو جداين. ولم يرافقني سوى عبد النور وخمسة من رجال قبيلته.

فشلت في مسعاي في ترتيب مقابلة شخصية مع جندي اللفيف الأجنبي الذي أمرته بالقدوم إلى لعبابدة، والذي كان لا يزال في بيت بو رحاير.

وبينما كنت على وشك مغادرة هذا المكان، إذا أحيط بالمنزل الذي كنت أقيم فيه ثلاثمائة فارس، كانوا ينهالون عليّ بكل ما يمكن تصوره من التهديد والإهانة. فوجئت، وأنا في غاية السرور، عندما رأيت بينهم صديقي القائد الهادي أعمر. أدركت على الفور أنه سارع إلى حمايتي.

ثم دخل عليَّ في المنزل وأبلغني على عجل أن هؤلاء الرجال قد أثارهم عبد المالك وأرسلهم إليَّ، إما لقتلي أو لطردي من البلاد "لأني كنت مخلًّا بالسلام، وأريد أن أطيح بالإسلام بإدخال الفرنسيين إلى البلاد".

دخل زعماء قبليون آخرون إلى البيت، ولكني طردتهم صائحًا " أفضل أن أموت هنا على أن أتعامل مع الخونة! "

وتعالت أصوات الرجال المتذمرين. لم يكن أمامي بديل سوى الخروج والسعي لتهدئتهم. وعلى الفور تشكلت دائرة حولي. اتهمني قائد الرجال الموالين لفرنسا، الذي كان عبد المالك قد رشاه، على الفور بأنني المسؤول الوحيد عن تدمير معسكر الشريف وتشتيت قواته.

دعاني إلى أن أرسل في طلب فرساني الذين تركتهم عند بو جداين بهدف الاستيلاء على خيولهم وأسلحتهم بالطبع.

تظاهرت بالموافقة على ذلك، وأرسلت إليهم عبد النور مع تعليمات سرية بألا يأتوا من هناك بل أن ينتظروني مع رجالي في مكان محدد خلال ثمانية أو عشرة أيام.

بقيت الآن وحدي وسط الحشد المتحمس. قال الهادي أعمر، الدبلوماسي الكبير، إنني كنت ضيفه ويجب أن أذهب معه إلى البيت، من أجل التفاوض مع الريفيين.

انطلقنا ونحن لا نزال محاطين بالحشد. كانت هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات عذاباً حقيقياً بالنسبة لي. كنت أحاول جاهدًا أن أجد مخرجًا من هذا المأزق، لكنني لم أستطع العثور عليه.

عند وصولي إلى منزل الهادي أعمر تظاهرت بأنني عدو للقائد. رفضت تناول الطعام معه. نهض وخرج، وسمعته يتشاور مع الرجال الذين سرعان ما غادروا بعد فترة وجيزة.

وفور انصرافهم عاد إليّ القائِد، فحيّاني بحرارة ودعاني لأكون ضيفه ما شئت. وسألني ضاحكاً عما إذا كنت أرغب في رؤية محلة بل سيرغا؛ وكانت صغيرة جداً بحيث يسهل أن تجد مكاناً لها في بيت بو رحاير.

فشكرت الهادي أعمر على كرم ضيافته، ورجوته أن يعيرني أربعة من المرشدين لبقية رحلتي، لأتسلل معهم عبر سياج المراكز الإسبانية إلى مليلية. وفي المساء انطلقت برفقة هؤلاء الأدلاء، بالإضافة إلى ثلاثة من رجالي الذين سبقوني في السير.

كان طريقنا يمر عبر أراضي قبيلة مطالسة الذين كانوا تحت نفوذ بو رحاير. بعد السير لمدة ربع ساعة ضللنا طريقنا تمامًا في الظلام.

كانت هذه المنطقة الواقعة مباشرة أمام المراكز الإسبانية موبوءة باللصوص و"المقاتلين من أجل الحرية" من كل نوع. كان سهل بني بو يحيي خطيرًا بشكل خاص. كانت رحلة غريبة. لم أكن مسلحاً سوى بمسدس بينما كان رفاقي يحملون بنادقهم معهم.

كنتُ متعباً للغاية وكانت أعصابي منهكة تماماً من فرط ما عانيته من متاعب الأسابيع القليلة الماضية. سبقني رفاقي سيراً على الأقدام، بينما تبعتهم أنا على ظهر حصان. وفجأة انطلقت صرخة مدوية بالإسبانية " من هناك؟ "

تعثرنا في الظلام بمخفر إسباني. ظننت في أول الأمر وأنا في حيرة من أمري أنني أمام حاجز فرنسي، فناديت قائلا: "نحن رجال الهادي أعمر في طريقنا إلى الجنرال الإسباني آيزبورو في مهمة عاجلة". غير أنهم عرفوا أنني أوروبي من صوتي، فصرخوا في وجهي: "إما أن تكونوا أوروبيين أو قطاع طرق من المطالسة. لا يتحرك أحد منكم! احذروا أن يتحرك أي منكم حتى طلوع النهار، هناك أربعون بندقية مصوبة اليكم!".

عندما بدأتُ مع ذلك في الترجل، دوّت صرخة : " إبقوا على سروجكم أو سنطلق النار! " طلبت السماح لي بالترجل، وسُمح لي بذلك. ولكن بدلاً من أن أمتطي حصاني مرة أخرى، تركت خادمي يأخذ مكاني، ثم زحفت على أربع وأنا متخفي تحت غطاء الفرس متسللاً عبر الحقل مباشرة.

عندما ابتعدت بما فيه الكفاية عن الموقع، عدت مرة أخرى للسير في اتجاه مليلية. وبعد أن مشيت لمدة ثلاثة أرباع الساعة، فوجئت برجالي يلحقون بي. كان قد سُمح لهم بالمضي قدما، ولأنهم كانوا مشبوهين، أمروا بأن يبلغوا عن أنفسهم في المركز الإسباني التالي على الطريق.

كانت فرحتنا كبيرة. عرفنا الآن كيف كان علينا أن نتحايل على المراكز الإسبانية الأخرى، وقد نجحنا في ذلك. وقبل الساعة الرابعة صباحاً بقليل وصلنا سالمين معافين إلى محطة السكة الحديدية الإسبانية في أزغنغان، حيث ألقينا بأجسادنا المتعبة لننام على الحجارة.

عند هذه النقطة تركت رفاقي وخيولي ورائي.

وبعد استراحة قصيرة أخذت طريقي متخفياً في زي محلي إلى المحطة، لأنتظر القطار الذي انطلق في الساعة الثامنة متجهاً إلى مليلية. كان الله رحيماً. سافرت بالقطار إلى الميناء دون أن يتعرض لي أحد، ولكنني مررت بساعات من الخوف الشديد. كان يجب ألا ينكشف أمري بأي حال من الأحوال، وإلا كنت سأصبح أسيراً إسبانياً، كانت كل خططي الأخرى ستذهب أدراج الرياح.

يبدو أنني لعبت دور العربي بمهارة، ولا غرابة في ذلك بالنظر إلى أنني عشت بين هؤلاء الناس شهوراً طويلة بعيداً عن كل مدنية.

فأبرقت مباشرة إلى الحكومة الألمانية، وشرحت لها الوضع المؤسف الذي استجد، وكانت النتيجة أن تلقى جندي اللفيف تعليمات بالعودة إلى الساحل فوراً. ولكن بعد عشرة أيام من تلقيه هذا الاستدعاء كان لا يزال متواجداً في نفس المكان ولا يزال يحاول مواصلة لعبته الغامضة.

تلقيت من الحكومة الألمانية تعليمات بالعودة إلى عبد المالك وتجربة حظي معه مرة أخرى. ولا يمكن أن يتصور مدى صعوبة تنفيذ هذه التعليمات بالنسبة لي إلا من كان في موقف مماثل، وقد خُدع لفترة طويلة.

وهكذا غادرت مليلية مرة أخرى بعد ظهر أحد الأيام، كانت الشرطة الإسبانية تراقب المكان بصرامة، وتنكرت في زي محلي ومضيت عبر حديقة البلدية إلى محطة السكة الحديدية، لكي أعود إلى أزغنغان. وفي طريقي إلى المحطة، لاحظت أنني كنت تحت مراقبة اثنين من الحرس المدني. لذلك قررت أن أغادر القطار في محطة مبكرة، وأن أرسل رسولاً إلى أزغنغان مع تعليمات بإحضار رجالي والخيول التي بقيت هناك إلى المحطة التي كنت أنوي النزول فيها. نفذت هذه الخطة على أكمل وجه، ولكي أتفادى المزيد من المراقبة، ذهبت مباشرة إلى المسجد المقابل لمحطة السكة الحديدية.

وعند دخولي المسجد انحنى الناس أمامي وقبّلوا برنوسي، ظناً منهم أنني شريف. ولم أتمكن من إزالة هذا الظن الخاطئ من أذهانهم، ولكن بما أن هذا التكريم جعلني أشعر بعدم الارتياح الشديد، فقد انتهزت أول فرصة مواتية للخروج من المسجد.

والحمد لله أن أمطاراً غزيرة كانت قد بدأت تهطل، فحجبتني عن نظرات الفضوليين. وتسللت بعيداً عن الشارع وجلست خلف سياج من أشجار التين على بعد حوالي 350 متر خلف المسجد، حيث انتظرت رجالي. بعد أن بقيت رابضاً هناك لمدة ساعة تقريباً رأيت الرجال المرتقبين قادمين على طول الطريق القادم من أزغنغان.

في لمح البصر صعدنا على صهوات الجياد وانطلقنا بأقصى سرعة نحو الجبال.

في منطقة أزغنغان استوقفنا عدة ضباط أسبان قائلين " إلى أين أنتم ذاهبون؟ " فركبت في المقدمة وتركت رجالي لأعطي الضباط الجواب الذي اتفقنا عليه مسبقاً، وهو أننا متجهون إلى مركز تيكرمين الإسباني. افترض الضباط أننا من الشرطة الأهلية وسمحوا لنا بالمرور.

حل الظلام الآن وأصبح الطريق سالكا أمامنا. كنا نراقب المكان بحذر شديد ببنادقنا المحشوة. تحت المطر الغزير كانت الخيول تنزلق على الأرض الموحلة كما لو كانت على الصابون. أما خادمي مولاي أحمد الذي كان راجلًا وممسكًا بذيل حصاني فقد سقط عدة مرات على ظهره.

بحلول منتصف الليل كنا قد تجاوزنا جميع المراكز الإسبانية. وبعد ساعة وصلنا إلى نهر كرط الضيق، الذي أصبح الآن سيلاً جارفاً. من الضفة الأخرى سمعنا فجأة صرخة "خذوا حذركم من الخيول! " وأدركنا أن الصرخة صادرة عن قوم ينتمون إلى قوات شريف في خدمة فرنسا، كان معروفاً باسم طويل الشعر، وكان يحارب ضد الإسبان.

لم يكن في نيتنا أن نتعامل مع هؤلاء الرفاق المتهورين، ولذلك قمنا بانعطاف واسع، وعبرنا النهر في مكان آخر.

كان العبور صعبًا للغاية. في البداية سقط بن علي في المجرى المائي وكاد التيار يجرفه بعيدًا. ثم تمكن مولاي أحمد من الوصول إلى حافة صخرية بتمسكه بحصاني. ومن شدة خوف حصاني تسلق هذه الصخرة الزلقة وتراجع إلى الوراء وقذفني إلى الماء.

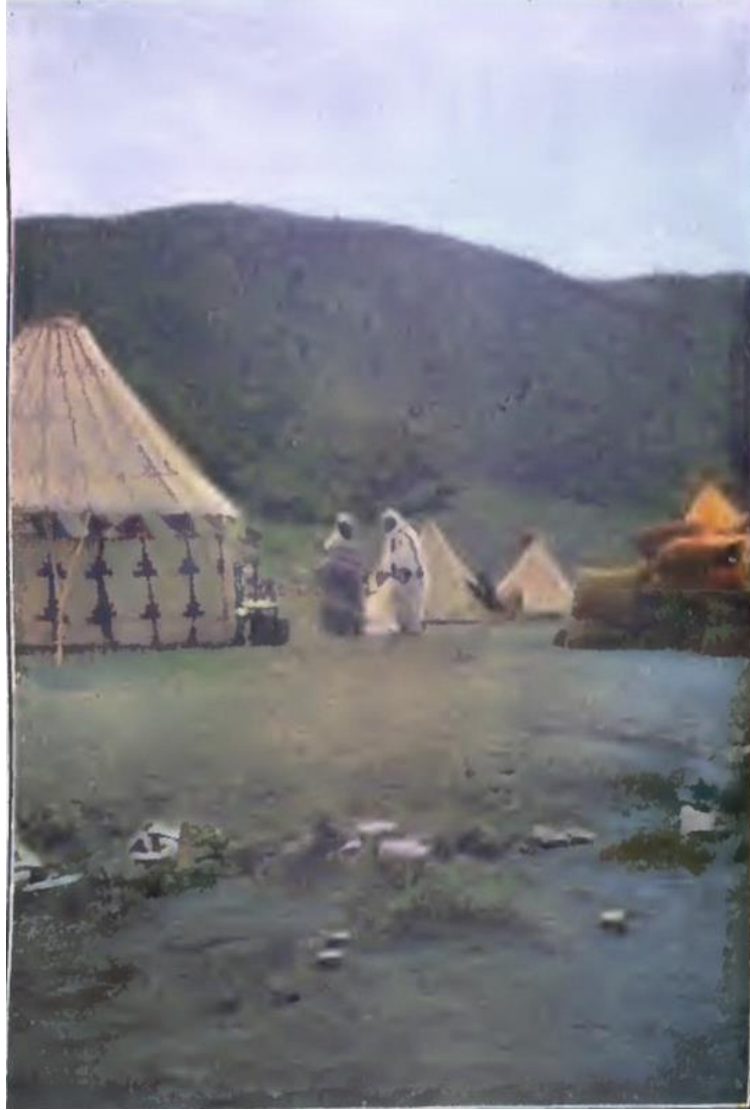
تخلصنا من الماء، الذي كان في حد ذاته إجراءً غير ضروري في ظل المطر المنهمر، لم نتمكن من منع أنفسنا من الضحك بشدة بسبب هذا الحادث المؤسف.





بلاد شانجا





مطبخ عبد المالك الميداني وخيمته

استطعنا أن نتقدم في طريق جيد بأقصى سرعة، مروراً بضاحية لعبابدة حيث أخذنا قسطاً قصيراً من الراحة قاصدين صديقنا الشيخ بو جداين الذي وصلنا إلى منزله بعد الساعة السادسة بقليل.

استقبلنا الشيخ بحفاوة وقدم لنا في الحال ملابس جافة، وبينما كنت أنزع الثياب الباردة المبللة كان الفنجان يغلي.

ثم ظهر رجالي الذين كنت قد تركتهم هنا قبل أسابيع، وهم فرحين برؤيتي مرة أخرى. علمت من بو جداين أثناء تناول الطعام أن الشريف عبد المالك قد ترك معسكره السابق في بوحدود وهرب إلى جبال كروان ليضع نفسه تحت حماية الشيخ الهادي برقيش.

ثم ناقشنا كيف يمكنني الوصول إلى الشريف بأسرع ما يمكن. كان لا بد من تجنب الطريق المباشر عبر سوق الثلاثاء الكبير، لأن جميع القبائل كانت معادية للشريف بعد فراره. كان من المؤكد أنني كنت سأحتجز هناك وأُمنع من المضي قدمًا.

كانت البلاد كلها، كتلك التي مررت بها للتو، مكتظة بالسكان وكثير من القبائل رشاها الفرنسيون بالمال والدعاية. قررت أن أصل إلى هدفي بطرق ملتوية.

خرجت في المساء. كانت ليلة رهيبة. وكان الطقس سيئاً مع هبوب العواصف، ولكن هذا الظرف كان في صالح رحلتنا السرية.

عبرنا مسالك تكاد تكون مستحيلة فوق الجبال، وعبر الأنهار، وعبر المياه التي تصل إلى الركب لمسافة كيلومترات. كانت العاصفة عنيفة جداً لدرجة أنها كادت أن تسقطني عن حصاني. تصدر عبد النور الطريق، ثم جئتُ أنا، وكان ورائي صهر بو جداين الذي رافقني بمنتهى اللطف رغم سوء الأحوال الجوية.

وصلنا إلى الممر الجبلي الضيق في عجيبة دِيال القاضي (?)، وقد جرفت الأمطار حافة الطريق وتكدست في الوسط حتى أننا لم نستطع التقدم. قمنا بالالتفاف وجهدنا في صعود الجبل بشق الأنفس، لننزلق على المنحدر على الجانب الآخر في خطر دائم من أن تدوسنا الخيول التي كانت تتبعنا.

يمكن تخيل حالتنا. عند الفجر وصلنا إلى منزل الشيخ عبد السلام كروان. كان الشريف عبد المالك في منزل يبعد حوالي 250 متر.

الفصل الثالث عشر

برفقة الشريف مرة أخرى

بعد أن استرحت قليلا وتناولت الفطور مع الشيخ كروان، أرسلت إلى عبد المالك أبلغه بقدومي، وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا ذهبت لرؤيته. كيف سأجد هذا الرجل الفخور الذي كان يحلم بإمبراطورية مغربية عظيمة تحت قيادته!

باستثناء عدوي البلغيثي والتركي نوري، لم يبق معه سوى خمسة عشر رجلاً من غياثة معظمهم من فتيان الإسطبل الذين كانوا جميعاً مسرورين لرؤيتي. كانت أمورهم قد ساءت بما فيه الكفاية أثناء غيابي.

كان جميع المتملقين والمتزلفين السابقين قد غادروا الشريف من معسكر بوحدود وأخذوا معهم خيوله وبنادقه وسرقوا خرائطه وأوراقه. في الليلة التي أعقبت رحيلي أمر عبد المالك بجلد رجلين اشتبه في أنهما سرقا أوراقه بقسوة.

عرف الآن ماذا يعني أن يكون فريسة للقلق، فركب جواده سراً وغادر المعسكر على أمل أن يجد الحماية عند القائد موحوش في شوجا. لكنه لقي هناك أيضًا معاملة سيئة حتى أنه توجه في النهاية إلى كروان.

وجدت الشريف مريضًا. وكان البلغيثي، الذي كان يحاول إقناعه بالمغادرة لأنه كان في خوف دائم من رجال القبائل، جالساً هناك في حالة يأس دائمة.

حيا الشريف وأنا كل منا الآخر بهدوء ظاهري، ولكني لاحظت من نظراته المتجهمة مقدار ما كان يشعر به من الغضب لرؤيتي أمامه مرة أخرى. فحدثته عن الأحداث المؤسفة، وقلت له كم كنت آسفاً لذلك واستفسرت عن رغباته التي كنت آمل أن أتمكن من تحقيقها. وأخبرته كذلك بأنني سأطلب من حكومتي أن ترسل ألمانيًا آخر بدلاً مني. فأجابني بلهجة مستسلمة: "آه! ربما كان الآخرون أسوأ منك".

دعاني لتناول كوب من الشاي. ثم استأذنتُه وقلت له إنني لن أطيل عليه أكثر ذلك اليوم.

وشرحت لرجال قبيلة غياثة الذين كانوا ينتظرونني أمام الباب أن الشريف مريض، ولذلك لن أتحدث معه أكثر من ذلك حتى صباح اليوم التالي. عند ذلك ارتبك الرجال وخافوا أن أرحل مرة أخرى. لذلك قاموا بنحر ثورٍ كذبيحة، حتى يصالحوني مع الشريف، حسب العادة المغربية القديمة.

في هذه الأثناء، كان بل سيرغا قد حاك الدسائس ضدي مرة أخرى، بعد أن انتشر الخبر كالنار في الهشيم في البلاد بأنني عدت مرة أخرى، استعمل المال الذي حصل عليه بحجج كاذبة لتحريض عدة قبائل ليس فقط ضدي بل ضد الشيخ الجليل صديقي بو جداين.

أبلغني هذا الأخير عن طريق رسول أن رجال قبيلة جزناية لن يوافقوا بأي حال من الأحوال على الاجتماع بعبد المالك. كما بعث إليّ برسالة من بل سيرغا يطلب فيها من بو جداين أن يرتب أمر تسليم رجالي بخيولهم

وأسلحتهم إلى القبائل. وكانت الرسالة مذيّلة بتوقيع "الشريف سيدي عبد القادر، بل سيرغا"، وتحتها ختم تركي ألماني.

كان الوقت قد حان للتدخل في هذه الفوضى. بما أنه لم يكن بالإمكان فعل شيء مع عبد المالك، ركبت بصحبة عدد من الشيوخ ورفيقي الوفي عبد النور إلى بو جداين حيث وصلنا في وقت متأخر من المساء ووجدنا مبيتاً لتلك الليلة في أحد المساجد.

في صباح اليوم التالي أخبرني بو جداين كيف أن عبد المالك قد جعل نفسه ممقوتاً بين القبائل، كما أخبرني أنه لم يف بكلمته في مسألة شخصية. ومضى يقول إن القبائل النائية فقط هي التي ستكون مستعدة للالتفاف حول الشريف مرة أخرى، وسألني بصراحة عن سبب استمرارنا في دعم الشريف أصلاً.

بينما كانت هذه المناقشات جارية غمرتني موجة من التعاسة لدرجة أنني هربت إلى الغرفة المجاورة، وألقيت بنفسي على الحصير واستلقيت هناك في شبه غيبوبة.

عندما عدت إلى نفسي مرة أخرى، كان الشيخ أحمد بن أعمر جالساً بجانبي بوجه حزين، وهو صديق مخلص، وكان قادراً على تفهم مشاعري. فنهضت وذهبت إلى الرجال الآخرين لأناقشهم في الاستعدادات للتقدم مرة أخرى إلى الساحل، إذ كان من الضروري الآن اتخاذ تدابير حازمة.

ثم وصلتني رسالة من الحكومة الألمانية، ذكرت فيها بصراحة أنه يجب أن أمثل أمام محكمة عسكرية إذا لم أعد إلى التعاون مع عبد المالك. وجاءت هذه الأنباء كالصاعقة!

لقد كان من سوء حظ حكومتنا الألمانية أن تنطق بمثل هذا التهديد في وجهي أنا الذي كنت مستعداً لخدمة الوطن من كل قلبي والى آخر ذرة من حياتي، والذي سبق أن قاتلت الفرنسيين في ظروف غير مواتية على الإطلاق، مخاطراً بحياتي وأوصالي بكل سرور! وكانت الحكومة الألمانية على علم بأن عبد المالك لم يتعهد بشيء ضد الفرنسيين منذ بداية الحرب إلى يوم وصولي. بدلاً من أن تخولني في بداية نشاطي صلاحيات كاملة، فضلت أن تثق في محتال وأعوانه! أما الفرنسيون فقد أدركوا من جانبهم الخطر العظيم الذي كان يتهددهم من قيام ثورة عامة للقبائل في الداخل. وعند اندلاع الحرب كان في نيتهم إخلاء المناطق الداخلية والاحتفاظ بالساحل فقط. ولم تنفذ هذه النية إلا بفضل نشاط الجنرال ليوطي الذي أقنع حكومته بالتريث وترقب تطور الأوضاع.

كان يجب على الحكومة الألمانية أن تتبع سياسة سخية منذ البداية؛ فقد كان من الصعب أن تفعل شيئاً بتدابير تافهة ولا سيما بموارد ضئيلة وغير مدعومة بالأسلحة والذخائر الحديثة. ذهب القائد الفرنسي ليوطي إلى باريس، وحصل على مئات الملايين من أجل تنفيذ مهمته.

كان من الضروري أن يُستمع إليّ وأن ينتهي التعلق بعبد المالك غير المأمون وغير المهم مرة واحدة وإلى الأبد. وكنت على يقين تام من هذا الأمر وعزمت على القيام بمهمة أخرى نحو مليلية.

انطلقت في الساعة العاشرة مساء في ظلام دامس برفقة عدد من الشيوخ ونفر من رجال القبائل.

كنت أنا وعبد النور مسلحين ببنادق، وكان أحد الكبدانيين الذي رافقنا يحمل مسدس ماوزر.

عندما كنا في قلب غابة كبيرة، ظهر فجأة عشرات من قطاع الطرق على يميننا وعلى يسارنا وصوبوا بنادقهم نحونا. فتقدمت بجوادي إلى وسط العصابة وصرخت فيهم: " ألا تخجلون من أنفسكم يا أبناء الحرام! نحن في حماية بو جداين وأنتم تنقضون علينا كشرذمة من اللصوص! "

وذكر قطاع الطرق أنهم جاءوا لمساعدتنا، حيث كان 70 فارسًا يتربصون بنا في رحلتنا اللاحقة. في الواقع لم تكن أعينهم إلا على أموالنا وأسلحتنا وخيولنا. وبدا كما لو كانوا متحالفين مع اثنين من أفراد القبائل الذين كانوا يرافقوننا.

ثم انطلقنا على الفور وانحرفنا إلى الغرب لكي نخرج من الغابة إلى الخلاء. وهتف عبد النور فجأة قائلاً: "حفزوا الخيول"، وانطلقنا راكضين إلى الأمام وقائدي يقودنا.

التفت إلى رجالنا ولاحظت أن أحدهم كان مفقودًا؛ فقد أسره قطاع الطرق الذين كانوا يطاردوننا. لم يكن بوسعنا أن نترك هذا الرجل في وضع صعب.

فناديت على عبد النور، ثم استدرنا وانطلقنا مرة أخرى مباشرة نحو قطاع الطرق. وبينما كنا نقترب منهم، صوّبت عدة فوهات بنادق نحوي؛ وأمسك أحد الرجال بلجام حصاني. فانتزعت المسدس من يد أحد أفراد القبائل الذي كان بجانبي، ووجهته إلى وجه قاطع الطريق وصرخت فيه " ابتعد أيها الكلب، وإلا أطلقت عليك النار! " وعندها ألقى اللجام على الفور وتراجع عدة خطوات إلى الوراء.

ثم استفسرت من الرفاق بكل هدوء عما يريدونه منا حقًا. طلبوا ألف دورو، ولكنني لم أستطع أن أعطيهم سوى عشرين فقط وهو ما لم يرضهم.

كان الوضع خطيرًا للغاية، إذ كان من الممكن أن يظهر المزيد من الريفيين في أي لحظة أثناء مشاجرتنا الصاخبة.

ولحسن حظي تذكرت أنه كان بحوزتي عدة قصاصات من الجرائد نثرتها بين الرجال وأنا أصيح: " ها هي الدراهم التي طلبتموها! "

كانت الحيلة ناجحة. فاعتقد اللصوص أن هذه القصاصات الورقية نقود، فوقعوا عليها بشراهة، وبينما كانوا يتلمسون هذه القصاصات في الظلام، على أربع، هربنا بأسرع ما يمكن. لاحقنا قطاع الطرق، لكنهم لم يتمكنوا من اللحاق بنا. لبعض الوقت استطعنا سماع لعناتهم الصاخبة، ثم خيم الصمت.

يا لها من مغامرة! أصبح أحد هؤلاء اللصوص فيما بعد أحد تجاري، ولم يسأم أبدًا من تقديم الشكر لله على تجنيبه إطلاق النار عليّ. أخبرني أنه صوب بندقيته نحوي من مسافة لا تزيد عن 4 أو 5 أمتار.

عند الفجر، عبرنا نهر كرط ووجدنا أنفسنا مرة أخرى في الأراضي الخاضعة للإسبان. كنا قد افترقنا مع الريفيين الذين رافقونا.

أخفينا بنادقنا تحت سلاهيمنا، وفي الساعة الثامنة صباحا توجهنا إلى محطة السكة الحديدية بالناظور، حيث قام عبد النور بإيواء خيولنا وإخفاء أسلحتنا.

ظللنا أنا وعبد النور نذرع الرصيف جيئة وذهاباً لمدة نصف ساعة، ثم ركبنا القطار ووصلنا إلى مليلية دون أن يلاحظنا أحد. كان ذلك في نهاية شهر فبراير سنة 1916، وكانت هذه هي المرة الثانية التي أعود فيها إلى الساحل.

وهنا علمت أن جندي اللفيف المحتال قد ترك مقامه عند بو رحاير وفر إلى الإسبان، بعد تخلصه من سلاحه. أخيراً لم أعد بحاجة للقلق من نشاطه بعد الآن. يمكننا أن نعرف أي نوع من المغامرين الألمان هو من حقيقة أن هذا الرجل قد حكمت عليه محكمة لايبزيغ العسكرية بالخدمة الجزائية بتهمة التجسس لصالح فرنسا. وأود أن أضيف أنني لم أتهمه.

ورداً على اقتراحي بأن أتوجه بمفردي إلى بني وراين على السفوح الشمالية للأطلس المتوسط لأجمع قوة مقاتلة ضد الفرنسيين هناك دون مساعدة عبد المالك، تلقيت رسالة من الحكومة الألمانية تمنعني من تنفيذ هذه الخطة. كان من المقرر أن أبقى في مليلية إلى أن يتم التصالح مع عبد المالك عبر تطوان حيث تقيم عائلة الشريف.

عندئذٍ اقترحتُ شريفاً آخر ذا نفوذ أود أن أتعاون معه في منطقة بني وارين، ولكن هذا الاقتراح رُفض رفضاً قاطعاً.

لقد حيرني هذا الرفض لاقتراحاتي تمامًا. فقد كنت الوحيد الذي يعرف بني وارين، وهم قوم محاربون لم يكن تأثير الدعاية الفرنسية والمال الفرنسي قد ظهر بينهم بعد. كنت أعرف مدى كرههم للفرنسيين. فقد خسر الفرنسيون في قتال مع هذه القبائل بعد نشوب الحرب بقليل أكثر من ألف رجل وستة مدافع خلال ساعتين، واضطروا إلى الانسحاب مع خسائر كثيرة بلغت الآلاف.

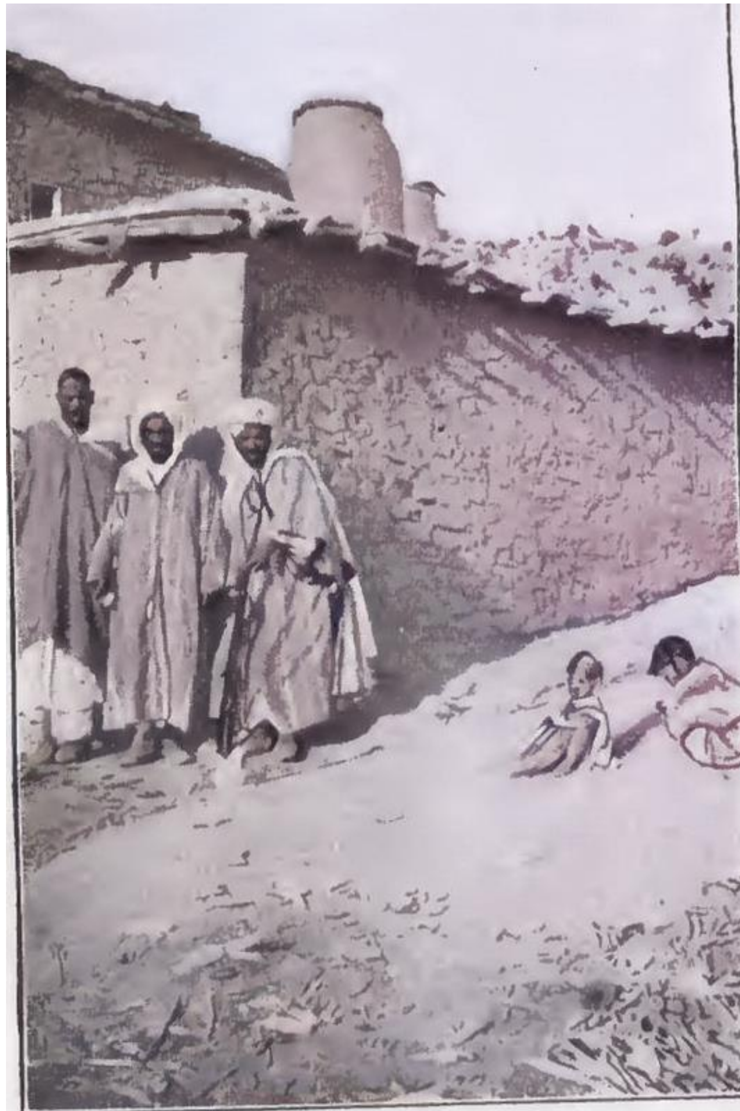
لم أكن غريبًا عن قبيلة بني وارين. فقد كانوا هم أنفسهم يأملون في أن آتي إليهم، وكانوا يحثونني باستمرار على ذلك. وكانت رسائلهم الأصلية محفوظة في الأرشيف الألماني. ولكن بإيعاز من رؤسائي، كان عليّ أن أثنيهم عن التقدم، وكل ذلك بسبب عبد المالك!

وبالطبع، كان من السهل جداً بالنسبة لي أن أزيح الشريف، ولكنني لم أكن أريد أن يؤنبني ضميري على اغتياله. علاوة على ذلك، كان من الممكن أن تكون سياسة غير ناجحة. وكان من شأن ذلك أن يضع حداً لنفوذي بين القبائل، وهو النفوذ الذي كان قائماً في المقام الأول على سلوك صريح وصادق باستمرار. لم أتمكن من كسب أي ثقة في البلاد إلا بالصدق المطلق.





معسكر الذخيرة





عبد المالك في شانجا

في صباح أحد الأيام جاءني عبد النور بنبأ أن جميع خيولنا قد سُرقت أثناء الليل فانطلق رجالنا لتقفي أثرها إلى نهر ملوية الحدودي. غير أنه أبلغني في المساء أن الرجال تمكنوا من استعادة الخيول بينما كانوا لا يزالون داخل الأراضي التي يسيطر عليها الإسبان.

وكان اللصوص قد أرسلوا من قبل عملاء فرنسيين أرادوا أن ينالوا شرف جلب خيول سي هيرمان البغيض إليهم.

في هذه الأثناء بلغتني أيضا مراسلة كانت موجهة من بريد سيدي بركان الفرنسي إلى عبد النور، وتبين لي منها أنه كان قد وعد باغتيالي. كانت هذه الدسائس الخرقاء ضد قائدي الوفي سخيفة جداً؛ وقد اختبرته مراراً وعرفت أنه يفضل أن يضع حدا لحياته على أن يخونني.

سلمته هذه المذكرة مصحوبة بتأكيد ثقتي المطلقة؛ ومن ذلك الحين فصاعداً أصبح أكثر إخلاصاً لي. على الرغم من كل تحذيراتي ورواياتي الدقيقة للوضع الحقيقي، وعلى الرغم من احتجاجات القبائل العديدة التي قدمتها، اضطررت، بأمر من الحكومة الألمانية، مرة أخرى إلى أن أقصد عبد المالك الذي كان يملأ قلبه الغيظ في كروان، لأنه وجد نفسه مشلولا بسبب دسائسه الخاصة ولا يستطيع أن ينجز شيئا من دوني.

كان عبد المالك الماكر يعرف تماماً ما كان يفعله عندما استجاب لطلب التصالح معي. وبهذا التصرف درأ خطر أن يحل محله شريف آخر، بينما كان لا يزال في وسعه أن يشل أي نشاط ناجح من جانبي.

كان إحباط نواياه في هذا الصدد هو هدف كل مساعيَّ. وكان هذا وحده هو الدافع الذي حفزني على استئناف نشاطي إلى جانبه.

كان ذلك في بداية شهر مايو 1916، عندما انطلقت في إحدى الأمسيات للمرة الأخيرة في رحلة إلى الداخل. فذهبت في سيارة أجرة إلى أطراف مليلية، ثم تسللت بعيداً في الخلاء نحو جبل كوروكو، حيث وجدت بعد بعض الصياح والصفير رجلين من رجالنا. بدون إضاعة الوقت تنكرت في زي محلي ثم ركبت على نفس البغل مع ريفي كنت أعرفه إلى منزل هذا الأخير.

أدركت حينها أنني كنت أمام مهمة صعبة للغاية، إذ لم يكن من السهل بالتأكيد استعادة ثقة رجال القبائل بعد أحداث الأشهر القليلة الماضية. واصلت رحلتي سيرًا على الأقدام وقرب الفجر وصلت إلى نهر كرط. كان من الصعب للغاية بالنسبة لي عبور هذا النهر. كان الأسبان، كما علمت، قد تلقوا معلومات عن عودتي إلى الساحل وكانوا يبذلون قصارى جهدهم للقبض علي. فقد كانوا يراقبون أهم الممرات عبر حدود منطقة نفوذهم، احتجزوا عدة قوافل كانت متجهة إلى الداخل على أمل أن يجدوني معهم متنكراً في زي محلي.

بقيت في البداية متخفياً لمدة يومين في غرفة صغيرة في بيت يملكه رجل جدير بالثقة، حتى خدم مضيفي لم يكن مسموحاً لهم أن يعلموا شيئاً عن وجودي. وقد اغتنمنا هذا الوقت لاستكشاف إمكانيات عبور النهر والتأكد من أوضاع المراكز الإسبانية.

عندما تم ذلك، قررنا أن نجتاز النهر خلال الليل.

فألقيت كيس بائع متجول على كتفي وأخفيت مسدسي من نوع ماوزر وغادرت المنزل بصفتي من قبيلة ايت سعيد، أي بصفتي أحد أفراد القبيلة التي تسكن على الضفة المقابلة للنهر.

مرت فرقة من الشرطة الأهلية بالجوار، وعلى مسافة أقل من 4 أمتار تجاوزتني ورفيقي بينما كنا مختبئين خلف صخرة. كنا محظوظين بما فيه الكفاية لتفادي المراكز الإسبانية والوصول إلى ضفة نهر كرط، الذي كانت مواقع ايت سعيد المعادية للأسبان تقع على ضفته المقابلة.

كان النهر واسعًا، لكن ضحلًا، ولم يكن يصل إلا إلى ركبنا ونحن نجتازه. وما إن وصلنا إلى وسط النهر حتى رحب بنا رجال أرسلهم صديقي الشيخ سي أعمار السعيدي. اقتربوا منّا مرتابين وأشهروا بنادقهم، عندما تعرفوا عليّ حيّونا بطريقتهم الموقرة بعبارة "الحمد لله، الله إسلمك".

بحلول الساعة التاسعة صباحًا كنا مرة أخرى مع صديقنا القديم والوفي، بو جداين الذي استقبلنا بمنتهى الود.

.كان عبد المالك قد أرسل رسله للاستفسار عني، إذ كانت شائعات اغتيالي قد انتشرت

في منزل بو جداين استعدت قواي بعد رحلتي، ثم جاءت رحلة ليلية أخرى، وعدت مرة أخرى إلى كروان .برفقة الشريف

الفصل الرابع عشر

عمل جديد - مخاوف جديدة

.تم الترحيب بوصولي بحفاوة بالغة

جاء الشريف من مسافة بعيدة لمقابلتي وحمد الله على سلامتي. أخبرني كم كان قلقاً من أجلي وكم مرّ عليه .من وقتٍ كئيب

كم كان يسعدني أن أصدّق بكل سرور ما كان يبديه من مظاهر الفرح، ولكنني هذه المرة لم أتأثر على الإطلاق. فقد مررتُ معه بما فيه الكفاية، وعرفت كم يمكن أن يكون متقلباً في "مزاجه السلطاني". نظرت في وجهه مباشرة وقلت له: "لقد ارتكبنا أخطاءً كثيرة يا شريف! دعنا نبدأ من جديد ونحاول أن نكون ."أفضل". فأجاب: " إن شاء الله

كانت فرحتي كبيرة عندما وصل عبد النور، الذي كان قد لحق بي مع رجالي والخيول بعد فترة وجيزة. ! عانقني عناقاً حاراً. وكان من المفترض أن يكون هذا الرجل قد أضمر لي نوايا إجرامية ؟هذا سخيف

خلال الفترة التي تلت ذلك مباشرة سارت الحياة بسلاسة كبيرة، ربما لأن حرارة لا تطاق كانت سائدة في .كرون، التي تقع في واد عميق تحيط بها جبال شاهقة، في أشهر الصيف

أظهر السكان - جبالة - أنهم لا يميلون كثيراً إلى الخدمة العسكرية. إنهم يعيشون أساساً على الفلاحة- ذلك أن أراضيهم خصبة جداً في بعض أجزائها - وكذلك على زراعة الفواكه الجيدة: التين والبرتقال والعنب التي .تباع ايضاً جافة،" ساد السلام والنظام في هذه الأرض تحت قيادة شيخها

لكننا لم نكن هنا للاستمتاع بالقيلولة. كان عبد المالك يجلس في منزله ويحلم من جديد بمملكة شريفة عظيمة تحت حكمه. لعل وعوداً بهذا المعنى كانت قد قُطعت له من الجهات العليا الألمانية أو التركية. بصفته شاغل هذا المنصب الرفيع أراد أن يكون مستقلاً؛ وفي هذا الصدد بدا له أن انتصار الألمان ينطوي على احتمالات خطيرة. وقد قال مرة إنه حتى لو استطاع إخضاع المغرب بدعم ألماني فإن البلاد ستصبح ألمانية لا مملكة .حرة مستقلة، ولم يكن يريد أن يكون تابعاً للغير كما كان السلطان يوسف تابعاً للجنرال ليوطي

وعندما كنتُ أشرب الشاي مع الشريف في الصباح الباكر كان كثيرًا ما يقول "من الأفضل ألا أكون سلطانًا ."على الإطلاق على أن أكون سلطانًا على تطوان

في محاولة لتكوين قوة دعم عاجلة من جديد، شرع الشريف في تدريب عدد من الفرسان بالتعاون مع فرساني الكبدانيين، ولكن بعد ثلاثة أيام أوقف هذه العملية لأن أهالي جبالة كانوا ينظرون إلى هذا التدريب بنفور وعداء. وبما أنه كان من الضروري لنا أن نجمع قوة قتالية قوية - وإلا كانت إقامتي مع عبد المالك خالية من كل معنى - كان لا بد من إقناع الشريف بتحويل نشاط محلته باتجاه العدو. كان من المستحيل هنا وسط هؤلاء السكان الذين كرسوا أنفسهم للمساعي السلمية أن أفعل أي شيء لمواصلة الحرب. لكن لم

يحالفني الحظ في البداية مع عبد المالك؛ وعلاوة على ذلك فإن القيظ الاستثنائي خلال شهري مايو ويونيو قد أضعف روح المغامرة.

كان مصدر تسليتنا الوحيد هو استقبال العديد من مبعوثي القبائل الذين ناشدونا أن نتقدم مرة أخرى ونتسلح من جديد للقتال.

كما تم تجنيد العديد من الجواسيس. ذات يوم وصل وجدي، الخادم القديم لقاتل فار، وطلب من مالك أن يقبله كفارس. وفي نفس الفترة ظهر أحد الأهالي ومعه قدر كبير من الزبدة، أراد أن يعطيني إياها كهدية.

أخبرني الوجدي حينما رأى الرجل قادما أنه أحد رفاق بل سيرغا، ومن المحتمل أن يكون متورطا في تسميم فار، فأخذت الرجل معي إلى الشريف الذي أرغمه على تناول الزبدة أمامنا وسط سخرية الحاضرين. وبما أنه لم يستطع أن ينهيها وحده، اضطر ابنه الذي رافقه إلى مساعدة والده. لم نر الرجل أو ذريته مرة أخرى.

اضطر الشريف إلى الاعتراف بأنه لا بد من عمل شيء ما، ورضوخًا لتوسلاتي المستمرة، قرر ذات يوم أن ينطلق في رحلة استطلاع لاختيار معسكر جديد.

شرعنا في رحلة طويلة جداً عبر بلاد جبلية صعبة في حرارة خانقة، وفي نهايتها انهار حصان الشريف من شدة الإعياء، ولكن على الرغم من الجهد الذي بذلناه جلسنا معاً في المساء وتجاذبنا أطراف الحديث. كان الشريف ودوداً ومجاملًا بشكل خاص. كانت تلك ساعات كان يمكن للمرء أن يحبه فيها لو كان بالإمكان استبعاد السياسة من الحديث. في مثل هذه المناسبات، كان يبدو في مزاج طيب في كثير من الأحيان. كما أنه عندما يكون في حالة معنوية جيدة، كان يروي بطريقة ممتعة للغاية بعض مغامرات طفولته التي كانت تحمل طابعاً خرافياً. هكذا أخبرني أنه في إحدى المرات عندما كان في العاشرة من عمره كان يصطاد مع بعض رفاقه، وفوجئ بقطّاع طرق. في تلك اللحظة بالذات كان قد أصاب دزينة من البط بطلقة واحدة، فصرخ في وجه قطاع الطرق: " سأقضي عليكم أنتم أيضاً إذا لم تبتعدوا بسرعة". وبالفعل، انقلب اللصوص على أعقابهم على الفور.

في مناسبة أخرى، حسب روايته، عندما كان راكبًا في جولة صيد، قذف بعشر برتقالات في الهواء وأطلق النار عليها واحدة تلو الأخرى، وعندها هرب عدد من اللصوص كانوا يحاولون القبض عليه بأسرع ما أمكنهم.

علاوة على ذلك، أخبرني كذلك أنه عندما كان صبياً كان يملك حصاناً لا مثيل له في السرعة. كان ممتطياً هذا الجواد عندما أدرك غزالاً كان قد سبقه ثلاث كيلومترات، ثم طارده حتى أنهكه الإعياء، فحمله على جواده إلى منزله.

ذكرت هذه القصص التي تذكرنا بروايات البارون مونشهاوزن لأنها تلقي بعض الضوء على شخصية الشريف. لم يكن رجلاً شريرًا بأي حال من الأحوال، فقد كان ذا شخصية صبيانية، ولكنه كان كثير الشكوك ومغرورًا بشكل مفرط. بالإضافة إلى ذلك، كان يعيش على شهرة والده أكثر من اللازم.

في نهاية شهر يونيو تم نصب معسكرنا أخيرًا جنوبًا باتجاه شوجا، ليس بعيدًا عن منزل الشيخ موحوش. هناك سارت الحياة بوتيرة أسرع. مضت الاستعدادات قدماً وبسرعة لتكوين قوة قتالية جديدة. كان خادمي

الإسباني السابق بو طاهر، الذي بقي في الداخل أثناء غيابي، قد تزوج في ذلك الوقت من امرأة محلية لأسباب أمنية. كان يجلب لي كل أسبوع خراطيشه المصنوعة يدوياً، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ التجار يتقاطرون من كل حدب وصوب يعرضون عليَّ الخراطيش والبنادق.

كما عرض زعماء القبائل خدماتهم مرة أخرى، فزادت قوتنا يوماً بعد يوم، ولكن لم يكن بالإمكان القيام بالشيء الكثير في شهر يونيو. كان الجو حارًا جدًا، بالإضافة إلى أنه كان شهر رمضان، شهر الصوم عند المسلمين. كانت الخيام تعجّ بالذباب، وكانت تزورنا عدة عقارب في كل ليلة، أضف إلى ذلك أن الصوم كان يجعل أي نشاط جدي غير وارد. كان كل واحد منا ينتظر كل يوم غروب الشمس وأذان المغرب، فيسرع الجميع إلى المسجد لأداء الصلاة. لكن الماكرين كانوا يختبئون على تل ليشربوا بشراهة من الماء الذي حُرموا منه طويلاً أو ليأكلوا بطيخة.

في المساء وجدت في خيمتي حساء رمضان الشهي، وما أن فتح المؤذن فاهه ليؤذن لصلاة المغرب حتى ارتشفت محتواه المتبخر بصحبة كاتبي الأمين سي أحمد وعبد القادر الصغير. بعد ذلك ذهبتُ لأتناول الطعام مع الشريف وأعد معه الأيام المتبقية من شهر رمضان. خلال هذا الشهر كان علينا أن نتوخى الحذر الشديد مع السكان المحليين، خاصة مع أولئك الذين اعتادوا التدخين، فالتدخين محرم في شهر الصيام.

كنت قد أعطيت في عام 1915 تعليمات إلى جميع القبائل بأن يجلبوا إليّ أي أوروبي يقع بين أيديهم. وفي أحد الأيام الأخيرة من شهر يوليو أحضر إليّ عدد من جنود اللفيف الأجنبي الفرنسي. وقد تبين لي أن جميعهم كانوا مرضى باستثناء واحد، وبما أنني لم أستطع الاستفادة من خدماتهم فقد أرسلتهم إلى الساحل. كان الاستثناء جندي يسمى بول فوغت الذي بقي معي. وجدت فيه ألمانيًا وطنيًا شديد الولاء للوطن، وقد أثبت دائمًا أنه رجل شجاع لا يكل ولا يمل.

شرع على الفور في صنع الألغام والقنابل اليدوية من القذائف الفرنسية الفارغة وعلب المصبرات التي جلبها التجار اليهود إلى المعسكر.

وبدا لي أنه من الأهمية بمكان أن أقوم مرة أخرى بدعاية قوية جداً ضد الفرنسيين. ولهذا الغرض أرسلت جندي اللفيف فوغت مع مجموعة من الرجال الموثوق بهم إلى منطقة غياثة في ضواحي تازة، وزودتهم بألفي منشور وتقارير حربية، كان من المقرر أن يوزعوها أثناء جولاتهم الليلية داخل الأراضي الخاضعة للفرنسيين في القرى والمساجد، وكذلك بين قبائل غياثة وبني وراين.

بالإضافة إلى ذلك، كنت قد أعطيت فوغت راية من الكتان بطول 700 متر تحمل عبارة مكتوبة بالألمانية: "ألمانيا قادمة! النصر لنا! سي هيرمان." حملت اللافتة أيضًا باللغة العربية دعوة للسكان المحليين للانضمام إلى صفوف عبد المالك. وُضعت على اللافتة حروف كبيرة بطول 30 سم يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة. وانطلق الشجاع فوغت ليلاً على مقربة من أسوار مدينة تازة، وثبت الراية في موضع أمكن رؤيتها فيه بصورة جيدة حتى صارت دعوتنا معروفة في اليوم التالي بين جنود اللفيف والسكان المحليين.

غير أن الفرنسيين أزالوا الراية في اليوم التالي. كان جنود اللفيف الألمان يحتاجون إلى عشر دقائق فقط للفرار خلال الليل، وكانوا سينجحون بالتأكيد في الفرار، إذ كان موقع الفرنسيين خارج البلدة بين رجال قبائل

غياثة، غير آمن للغاية. لكن لم يأت أي ألماني؛ بل على العكس من ذلك كان يجب علي أن أواجه الآلاف منهم في الاشتباكات القادمة.

وبعد غياب دام أربعة عشر يوماً عاد فوغت من رحلته الدعائية حاملاً معه البشرى السارة بأنه دمر جسر السكة الحديدية في بو لجراف، وكذلك أسلاك التلغراف.

في أوائل شهر يوليو سنة 1916 زارنا صديقي الوفي سيدي بو جداين مع كثير من زعماء القبائل الريفية لتهنئتنا بإعادة تنظيم قواتنا ووعدنا بالتعاون معنا إلى أقصى حد. وكان هذا الدعم ثميناً جداً، إذ كان يغطي مؤخرة جبهتنا التي كانت موجهة جنوباً ضد الفرنسيين، كما كان يؤمن لنا الطريق للرسل إلى مستشاريتنا السرية على الساحل.

عرض الشيخ الشجاع بو جداين أن يذهب بنفسه إلى غياثة، حيث كان أحد إخوانه يتمتع بنفوذ كبير. كما أرسل له رسائل تزكية لأجلي. لكنني كنت مرتبطاً بعبد المالك الذي لم تكن له نية في تكوين قوة قتالية بمنطقة غياثة.

بينما كان الشريف ذات يوم في جولة استطلاعية، فاجأت معسكرنا عاصفة بَرَدٍ رهيبة جرفت الخيام في دقائق معدودة. وصادف حينها أن كنت في خيمة عبد المالك، فاندفعت بكل قوتي على بعض الصناديق الثقيلة التي كانت العاصفة تضغط بها على الخيمة، مهددة بقلعها، لكنها في الوقت نفسه كانت تحميني من حبات البرد التي كانت بحجم بيض الحمام.

فجأة اندفع سيل بعمق 20 سم على أرضية الخيمة، وجرف حذائي بعيداً، وأذاب مخزون السكر بأكمله مما أثار استياء خادم عبد المالك.

عندما عاد الشريف، واجه صعوبة بالغة في عبور مجرى مائي متدفق كان قد نشأ على أطراف المعسكر. وكانت كثير من الخيول قد انفلتت من عقالها وأخذت تتدافع حول المعسكر. كانت تبحث في كل مكان عن ملجأ يحميها من سوء الأحوال الجوية.

بعد أن هدأت العاصفة وانحسر المطر، أمسكنا بالخيول وانتشلنا خيامنا من الوحل الذي كانت مدفونة فيه وأعدنا نصبها. انضممت إلى الشريف لتناول الطعام، واستعدنا روح الدعابة.

كنا قد رتبنا لمسابقة رماية كبيرة ستجري في اليوم التالي، وسيشترك فيها الزعماء. راهنت الشريف على من سيفوز بالجائزة. الآن يمكنه أن يظهر مهارته في الرماية!

توافد عدد كبير من رجال القبائل في اليوم التالي لحضور الاحتفال، وانتظروا نتائج المسابقة بترقب شديد.

كنت محظوظاً وحصلت على أفضل تسديدة. حلّ عبد المالك في المركز الثالث. قضينا يومنا في مزاج جيد لم يعكر صفوه سوى مرة واحدة فقط بسبب إنذار كاذب من هجوم طائرة. وانتهزت روح الدعابة التي كان يتحلى بها الشريف لأقنعه بتحويل معسكرنا إلى مكان أبعد إلى الأمام، ونجحت في ذلك! فقد نقلنا معسكرنا 8 كيلومترات إلى الجنوب إلى بوحدود على بعد 500 متراً تقريباً من الموقع القديم الذي اضطررنا إلى إخلائه أمام العدو في فبراير.

هناك اتخذنا جميع الترتيبات اللازمة للإقامة الطويلة. وحُفر حول المعسكر نفسه خندق عميق واسع، كان الهدف منه حمايتنا من الغارات ولصوص الخيل.

الفصل الخامس عشر

معارك جديدة

.في أحد الأيام أرسل جواسيسنا في تازا خبراً مفاده أن القوات الفرنسية في ذلك الموقع تتقدم ضدنا

بما أن قوتنا القتالية الجديدة كانت حتى الآن صغيرة نسبيا، فقد سررت كثيرا بخبر وعد القاضي عبد الكريم (الأب) بدعمه بحوالي 200 محارب.

بينما كان عبد المالك يسير مع محلتنا عبر جبارنة لملاقاة العدو، بقيت في المعسكر للتفاوض مع القاضي عبد الكريم الذي وصل قبل التاسعة صباحا بقليل، بعد مسيرة يومين مرهقين. تركت الرجال المتعبين يستريحون ويأكلون أولاً، ثم ركبت مع عبد الكريم في اتجاه الجنوب، حيث كان ضجيج المعركة يتصاعد منذ ساعات.

قابلنا عبد المالك عند سفح جبل سوق الأحد وهو واقف وحده تحت شجرة ينتظر بفارغ الصبر ما ستسفر عنه المعركة. وقد أبدى رجالنا الذين انضم إليهم رجال عبد الكريم مقاومة عنيدة للفرنسيين وأجبروهم عند الظهيرة على الانسحاب. وحيا عبد المالك رجال عبد الكريم وشكرهم على مساعدتهم ثم ركب معنا عائداً إلى المعسكر وهو مسرور بالمنعطف الذي اتخذته الأحداث.

قمت على الفور بإسعاف الجرحى. كان أحد الكبدانيين الشجعان قد تهشمت ذراعه اليمنى برصاصة من مدفع رشاش، لذلك كانت مساعدتي هنا مطلوبة بشكل عاجل. أثناء القتال كان العديد من جنود اللفيف الأجنبي قد وقعوا في الأسر أو فروا من الخدمة، وكان من بينهم رجل يدعى سيبلماير. لم يرغب في البقاء معي، لأن دينه لم يكن يسمح له بخوض الحرب - ويبدو أنه كان يريد دراسة اللاهوت - لكن ذلك لم يمنعه من الالتحاق باللفيف الأجنبي الفرنسي والبقاء فيه حتى عام 1916.

.كان جندي من اللفيف يدعى ترويف (الأبله) وفياً لاسمه، فأرسلته تحت الحراسة إلى المنطقة الإسبانية

لم يكتب للتفاهم الجيد مع عبد المالك أن يدوم طويلاً. فقد كان كئيباً في كثير من الأحيان، وكان يؤكد أنه ما كان ليغادر طنجة لو علم أن الحرب ستستمر طويلاً. وبدأ يكشف مرة أخرى عن الجوانب غير السارة من شخصيته؛ كانت انفعالاته ودسائسه التافهة لا تطاق. كثيراً ما كان يقول لي إن دين أمير لا يسمح له بمناصرة " قوة مسيحية، وعندما أجبته عندئذ: " إذن قاتل من أجل الإسلام! " أجابني: " أحسنت القول، ولكن مع من؟

في إحدى المرات حصلت على عدد من البنادق، فأرسلتها إلى عبد المالك، وأعطاه أحد مساعديه بندقية واحدة منها، وعندئذ أعاد الشريف البنادق إليّ على الفور مع رسالة مفادها أنها فاسدة.

نصحني القاضي عبد الكريم الذي تصادف وجوده في خيمتي بأن أتحدث مع عبد المالك في الأمر بنفسي. لذلك ذهبت وقابلت الشريف أمام خيمته. وبمجرد أن رآني صرخ بصوت عالٍ في حضرة أبناء البلد: "أنتم الألمان لا تعطونني إلا النفايات! " أجبته بهدوء تام على هذه الملاحظة قائلاً: "عندما أضطر إلى جمع

النفايات، أخلع قفازاتي". فأخذت البندقية ورميتها فوق الخيمة. أثارت هذه الحادثة جدالاً حاداً دفعني إلى امتطاء حصاني والانطلاق بعيداً. غير أن أبناء المنطقة أوقفوني وانتهى الشجار.

على الرغم من انفعالي الشديد، فقد تمالكت نفسي وناشدت الشريف أن يثق بي ثقة تامة وألا يتلفظ بإهانات أخرى من هذا النوع. دعاني عبد المالك إلى مائدته، فسألته: " لماذا لا تدعني أنسحب إلى غياثة، إذ يبدو أن وجودي هنا يزعجك؟ " فأجابني مالك ضاحكاً: " سي هيرمان، لا يجب أن ترحل الآن، فهذا مستحيل. سأرى ما يمكن عمله مع الفرنسيين ".

خلال الفترة التالية مباشرة كانت لنا مواجهات متكررة مع الفرنسيين انتهت بتراجع عدونا.

في إحدى هذه المناوشات أصيب مساعدي المخلص عبد النور، الذي نجوت معه لحسن الحظ من مخاطر كثيرة، برصاصة في أسفل الفخذ، بينما كان يحاول سحب أحد رجال الشريف من معمعة المعركة. لقد تحطمت عظامه وتمزقت أربطة فخذه، وكان يعاني من ألم شديد. بذلت كل ما في وسعي للتخفيف من آلامه، ولكني لم أستطع أن أعالجه إلا باليود، إذ لم يكن تحت تصرفي أي موارد أخرى. لم يستطع الرجل المصاب بجروح خطيرة البقاء في هذا المكان. بعد أن وضعت ضمادة طارئة على جرحه، ركبت برفقته على مهل إلى القائد موحوش الصديق في شوجا. خلال الليل كان عبد النور ينادي عليّ باستمرار، ويتوسل إليّ أن لا أتركه، وفي غمرة الحمى التي كانت تنتابه كان يلعن الجبناء أثناء القتال. بقلب مثقل في صباح اليوم التالي أرسلت الرجل المريض، تحت حراسة آمنة، إلى الساحل، وعدت حزينا إلى المعسكر. كانت الانتصارات على الفرنسيين قد جعلت عبد المالك في حالة مزاجية جيدة. ولعبنا لعبة الشطرنج، وتفوق علي فيها. ثم أهداني حصانًا رائعًا جدًا؛ إذ كان حصاني قد سقط خلال المعركة.

في إحدى الليالي فر خمسة من رجال عبد المالك في اتجاه الريف الإسباني؛ وقد تم القبض على اثنين منهم وربطوا بالحبال من أعناقهم إلى حصان وأعيدوا إلى معسكر الشريف. كانا مكبلين وجاثين على ركبتيهما أمام عبد المالك. وعندما سألهما عن سبب هروبهما. أجابوا; مكتوب الله. وعلى الفور أطلق الشريف النار على الرجال بنفسه من بندقيته.

ثم أجبر الحراس الواقفون حولهم على رمي الجثث على الطريق المؤدي إلى النهر، لتبقى هناك دون دفنها عبرة للآخرين. بعد هذا الفعل الدموي بفترة وجيزة جاء الشريف ليشرب الشاي معي وسألني عن رأيي في هذا الأمر. فأجبته "لقد عوقب الهاربون عقاباً عادلاً، إلا أنه كان من الأفضل لو أنك تركت الحراس ينفذون العقاب". فما كان من عبد المالك إلا أن ضحك في وجهي واعتبر أن الأمر أفضل كما هو.

في اليوم التالي، كان الهاربان لا يزالان مرميين على ضفة النهر بدون دَفن.

لم يكن الشيخ سي أحمد بركام، الذي وقع الهاربان أسيرين بمنطقته غير موافق على هذا الأسلوب في العقاب، فانصرف غاضبا. كان قد التمس اللجوء إلى قانون القبائل، إذ كان على الشريف أن يطلب رأيه، أو على الأقل إقامة محكمة شرعية، لأن الفارين كانوا تحت حمايته.



العودة إلى المعركة

كان وقتاً عصيباً. كان الشريف، كما يبدو، في مزاج جيد بما فيه الكفاية. الحرب لا تزال قائمة ولا يمكن التنبؤ بنهايتها. والمزيد من الدول تدخل الميدان ضد ألمانيا وتدعم فرنسا التي كانت على وشك الانهيار.

أصبح عبد المالك متوترًا ولم يعرف ما هو الموقف الذي يجب أن يتبناه. كان حلمه بالسلطنة المستقلة يتلاشى. بالإضافة إلى ذلك، كان الفرنسيون في تطوان يحثونه باستمرار على الانفصال عنا.

ثم وصلت أخبار انتصارات جديدة من ألمانيا، غير أن هذه الأخبار جاءت متأخرة جدا في رأي عبد المالك.

مرة أخرى لم نكن نشيطين إلى حد كبير، باستثناء بعض المهام التافهة، مثل نسف الجسور أو قطع خطوط السكك الحديدية. ونتيجة للعاصفة الهوجاء التي كانت تضرب وادي بوحدود يوميا، نقلنا معسكرنا إلى الجانب الآخر من نهر أوسيشت (?)، حيث شيدت مآوي للخيول والرجال والذخائر.

في إحدى المرات عندما دعا الشيخ البرنوصي العجوز عدداً من جنود اللفيف للإفطار في منزله أثناء إحدى الخرجات، تعرفت زوجة الشيخ على أحد جنود اللفيف رغم لباسه المحلي، فصرخت بعنف، ثم تراجعت إلى الوراء بمحاذات الموقد فاشتعلت فيها النيران في الحال. وبعد أيام قليلة سألت البرنوصي عن حال زوجته وتلقيت الجواب التالي" الحمد لله لا باس ". ثم استفسرت عما إذا كان هذا التحسن يرجع إلى الدواء الذي أعطيته إياه، فأجابني الرجل العجوز "نعم، لقد ماتت زوجتي، الله أكبر!.

بعد أن انقضى بعض الوقت - كنا في تلك الأثناء قد اشتبكنا مع الفرنسيين في مناوشة أخرى حسمت لصالحنا - شعرت بسعادة غامرة عندما عاد عبد النور من الساحل وقد شفي تقريباً. كم كان ممتنًا وسعيدًا! أخبرني أنا والشريف وهو يتهلل فرحاً عن الانتصارات الألمانية الجديدة. وكان يأمل أن نحقق قريباً انتصاراً عظيماً على الفرنسيين. لقد كانت شخصيته نادرة ورائعة، شجاعاً وطيب النفس، ولطيفاً كالأطفال.

في اليوم التالي زرنا أنا وهو معاً مقبرة القبيلة. كان صديقي حزينًا حقًا عندما رأى كيف تكاثرت صفوف القبور أثناء غيابه. وفجأة قبّل برنوسي وقال: "يا سيدي، لا أملك إلا أن أشكرك أنت لأني أنا أيضاً لست تحت التراب". اجتاحني شعور بالمرارة وأنا أنظر إلى أكوام المقابر، لأني كنت أعرف أن الشريف قد أعطى رجاله أوامر بعدم التهور، وأن يتركوا دائماً أكبر المخاطر لرجال عبد النور.

في إحدى الليالي كنت جالساً في خيمتي حتى منتصف الليل مستيقظاً، إذ لم تدعني العاصفة التي كانت تهدر وعواء بنات آوى أن أنام، وفجأة رأيت طرف الخيمة المقابل للباب مرفوعاً. ظهر خنجر طوله 60 سم ثم يد تحركت في اتجاه فراشي. لم أعد أحتمل ذلك أكثر، فأمسكت بماسورة بندقيتي ووجهت ضربة قوية لليد بطرفها الخلفي مما أدى إلى سقوط الخنجر. سمعت صرخة مخنوقة؛ قفزت على قدمي وأمسكت بقاطع الطريق الذي وقف أمامي الآن وهو يرتجف.

استجوبت ذلك المجرم فعلمت أنه من مراكش وأنه مقيم في الوقت الحاضر في مليلية. واعترف لي بأنه كان على علاقة صداقة وطيدة بالسيد ميدلتون في مليلية، وأنه كان على معرفة جيدة بالسيد فار. فأخبرته أن عليه أن يبلغ صديقه النبيل بما أعددته له من استقبال؛ ثم طردته من الخيمة واضطجعت لأستريح، بعد أن وبخت الحراس على غفلتهم.

بعد فترة من الزمن تلقيت زيارة من أحد المغاربة الذي زعم أنه كان طباخاً لدى السيد فرمانس في الدار البيضاء، وعرض عليَّ خدماته. فاستقبلته بأحسن ما يكون من الود، ولكنه سرعان ما اكتشف من خلال أسئلتي أنه قد فضح نفسه. فهرب في غضون دقائق قليلة، قبل أن أجد الوقت الكافي لتقييده.

كانت الأسابيع التالية هادئة نسبياً، باستثناء زيارات متكررة من الطيارين الفرنسيين. من أجل سلامة معسكرنا قمنا كما فعلنا من قبل بزرع مراكز مراقبة على مرتفعات شاشور وبومهيريس المجاورة، حيث كان بإمكاننا أن نراقب على الدوام المنطقة التي كان الفرنسيون يتحركون عبرها ومواقعهم ومدينة تازا.

وبحلول هذا الوقت كنا قد نجحنا في جمع قوة دائمة قوامها 500 من المشاة و250 من الفرسان. كما تلقينا تدفقات أخرى من جنود اللفيف. وأظهر الشريف عبد المالك نشاطًا مدهشًا؛ لكن نواياه لم تكن جدية حقًا. فقد أراد فقط أن يجعل الأمر يبدو وكأن شيئًا ما سيحدث. وكثيراً ما كان يتذمر علانية من ألمانيا ويتحدث أمام السكان المحليين عن المساعدات المستمرة التي كانت فرنسا تتلقاها من جميع الجهات والتي كانت تحميها من الانهيار النهائي.

كما أن موقفه تجاه زعماء القبائل الآخرين كان غير مفهوم. فقد كان من السهل عليه أن يكسب بسهولة شيخ جبارنة القوي ولد متبوع، وهو رجل شجاع وهادئ جداً، وقد كسبت تأييده جزئياً. لكن عبد المالك ناصبه العداء بل هدده بالسجن، حتى أنه لم يكن من المستغرب أن يدير ظهره لقضيتنا ويغادرنا إلى فاس وتازة والرباط، حيث دفع الجنرال ليوطي إلى اتخاذ تدابير ضدنا.

كان عبد المالك غيورًا من جميع الشيوخ ذوي النفوذ، وكان يخشى دائمًا أن تصيبه سلطتهم في مقتل. قُدِّر لي بعد برهة وجيزة أن أحصل على دليل آخر على تصرفاته المزدوجة. فقد علمت أنه قد استدعى جميع زعماء قبيلة مطالسة إلى مرتفعات شاشور. كان من الغريب بشكل خاص أن الاجتماع عُقد أثناء الليل. وقبل الساعة الثالثة صباحاً بقليل، عاد عبد المالك إلى المعسكر، الأمر الذي أدهشني كذلك لأنه كان من الممكن أن يقضي ليلته في شاشور.

قرابة الساعة السابعة صباحا سمعنا فجأة دوي المدفعية من جهة الجنوب، وجاءني رسول يحمل إليّ نبأ تقدم الفرنسيين نحو أراضي قبيلة مطالسة. استعددت في الحال للانطلاق، ولكن قبل أن أغادر طلبت من خادم الشريف أن يوقظه. فأجاب الأخير بأنه تلقى أوامر صارمة بعدم إيقاظ سيده.

ثم ركبت وحدي نحو الجنوب، ورأيت من علو شاهق أن الفرنسيين لم يكونوا في طريقهم إلى شاشور، بل كانوا يعبرون نهر مسون ويتقدمون نحو سيدي بلقاسم في منطقة مطالسة.

كانت هذه خيانة واضحة من جانب الشريف. كان قد علم عن طريق أجهزته الاستخباراتية أن الفرنسيين يرغبون في احتلال هذه الناحية، ولهذا السبب فقط أغرى الزعماء بالخروج من بلادهم، حتى لا تستطيع مطالسة التي لا زعيم لها أن تبدي أي مقاومة.

لما عدت إلى المعسكر، قابلني عبد المالك وأبلغني ضاحكا: "إن سيدي بلقاسم قد احتل". لم أجبه، ونظرت إليه بازدراء، ودخلت إلى خيمتي وأبلغت الحكومة الألمانية بالخيانة.

الفصل السادس عشر

تقدم الفرنسيين والتصدي لهم

نحن الآن في ربيع عام 1917. علمنا من الجواسيس أن الفرنسيين كانوا يخططون لهجوم كبير علينا. كنت أتعامل مع الموقف بشيء من القلق.

فنظراً لقصر نظر الشريف أو لقصده المتعمد، لم تكن قواتنا بعد قوية بما فيه الكفاية لتتحمل قتالاً لعدة أيام مع قوات فرنسية متفوقة. كما لم يكن الدعم من القبائل سخيًا بما فيه الكفاية؛ وفوق كل ذلك لم تكن قبيلة بني وراين المتمرسة، التي كنت دائمًا ما أعلق على مساعدتها أقصى درجات الأهمية، قد هبت لنصرتنا. أضف إلى ذلك أنه لم يكن بحوزتنا سوى القليل من الخراطيش.

كان الشريف يشتكي منذ مدة طويلة من أنه لا يملك قرشاً واحداً وأنه سينسحب إلى أن تزوده ألمانيا بما يكفي من المدافع والطائرات والذخائر. كانت هذه الرغبة مبررة جداً ومفهومة بالنظر إلى تسليح عدونا، ولكنها كانت رغبة غير قابلة للتحقق. ومع ذلك يجب أن أحافظ على إظهار روح معنوية جيدة.

كنت قد أرسلت رسولا إلى تازا ليأتيني بمعلومات صحيحة عن نوايا الفرنسيين، وكنت أنتظر عودته بفارغ الصبر. في نهاية شهر مارس أيقظني صباح أحد الأيام بنبأ أن أربعة أرتال فرنسية كانت في طريقها إلينا. ناقشت الوضع مع عبد المالك. فاقترح عليّ أن نسمح للعدو بعبور مرتفعات شاشور، ثم ننقض عليه في مرتفعات العثامنة.

على الرغم من أن الفرنسيين كانوا قد عبروا المرتفع وكانوا على بعد 8 كيلومترات فقط منا، إلا أن الشريف لم يستطع أن يحسم أمره بإخلاء المعسكر.

كان رجالنا متمركزين على المرتفع الواقع جنوب المعسكر ومقابل العدو. كان الصراع غير المتكافئ قد بدأ، في أثناء ذلك أخذ العدو يتقدم بمدفعيته وطائراته ورشاشاته التي لم يكن لدينا ما نواجهه به من نفس النوع. بعد ذلك بوقت قصير رأيت القبائل المعادية القادمة من الغرب تهدد جناحنا الأيمن. لكن هنا قام عبد النور الشجاع مع رجاله بمقاومة ناجحة.

كان النهار يوشك على الانقضاء عندما أتاني أحد الفرسان بخبر مفاده أن عبد النور محاصر من جميع الجهات. فأرسلت إليه الدعم على الفور، مما أخرجه من وضعه الخطير.

أخيراً حلّ الليل وخفت ضجيج المعركة. لم يحرز الفرنسيون سوى تقدم ضئيل للغاية، لكن مخزوننا من الخراطيش كان قد استنفد بشكل خطير. على الرغم من ذلك استأنفنا القتال عند الفجر. ألقى طيارو العدو قنابل على معسكرنا. وسارعت القبائل الصديقة إلى مساعدتنا من جميع الجهات، وعندما حل المساء لم يكن العدو قد أحرز أي تقدم. كنت آمل أن نحقق مزيداً من النجاح، وقمت بعدّ خراطيشنا، عندها اكتشفت مرعوباً أن القتال قد استهلك كل ذخيرتنا تقريباً. لم يكن هناك بديل سوى نقل معسكرنا إلى الشمال.

بينما بقي عبد المالك خارج المعسكر، الذي كان يتعرض للقصف الجوي والمدفعي المستمر، توليت أنا مسؤولية تفكيك خيامنا ونقلها. ذهبت إلى محل إقامة عبد المالك ووجدت هناك 120 ألف بسيطة - من العملة الحسنية (الحسن الأول العلوي) - وسكر وشاي وقماش الخيام، مكدسة كلها في فوضى مخيفة. حزمت أمتعته ونقلتها على البغال مع أغراضي الخاصة إلى شوجا.

بزغ فجر اليوم الثالث من القتال. تقدم العدو من ثلاث جهات. راقبتُ سير المعركة من مرتفع مع الشريف. كان مسرورًا جدًا عندما سمع أنني توليت نقل أمتعته.

في حوالي الساعة الثامنة صباحًا غادرنا المعسكر. وبحلول ذلك الوقت، كان الشريف قد رحل بعيدًا. كنت قد أعطيت الأمر لرجالنا الذين كانوا لا يزالون يرابطون في الجبهة بمغادرة المعسكر والانسحاب. حلّق أحد الطيارين فوق رؤوسنا وأبلغ الفرنسيين بانسحابنا. تم إخلاء المعسكر بالكامل، ولم يبق هناك سوى حصاني الذي كان لا يزال واقفًا في إسطبله. لاحظت أن قنبلة قد حطمت المربض المجاور. كان الفرنسيون على بعد 800 متر. مع ذلك، ركضت عائدًا إلى الخلف، قمت بتأمين حصاني وانطلقت بأقصى سرعة. انفجرت قذيفة بالقرب مني، وطارت أخرى فوق رأسي وانفجرت في جانب الجبل، وسقطت ثالثة في النهر.

انطلقت بمحاذاة النهر وتجاوزت عبد المالك الذي سألني بفظاظة " ما العمل الآن؟ " فأجبته أنه من الأفضل له أن يذهب مع الكبدانيين وجنود اللفيف إلى مرابطين التي كانت تبعد ساعة ونصف، بينما سأتولى بنفسي رعاية الجرحى والفارين القادمين إلى شوجا مع القائد موحوش، ثم ألحق به في مرابطين.

ازدحم الطريق إلى شوجا بالهاربين والبغال التي تحمل مؤننا وعتادنا. كان الجرحى يعرجون. وحُمل الموتى على طول الطريق. كان مشهدًا قاتمًا وكئيبًا!

بعد أن أسعفت الجرحى وجمعت الهاربين، وصلت في مساء اليوم نفسه، بعد رحلة مضنية، إلى منطقة براد الواقعة على طريق الريف الكبير. هناك نمنا في العراء حتى الفجر.

أثناء نصب معسكر مؤقت، تناولت الفطور مع الشريف، وكتبت إلى الحكومة الألمانية وطلبت إرسال المزيد من المال لشراء الخراطيش.

لم يلاحقنا الفرنسيون إلى أبعد من ذلك ونصبوا معسكرهم في حوض النهر. لقد اضطررنا، بسبب نقص الذخيرة، إلى التراجع، ولكننا لم نشعر بالإحباط بأي حال من الأحوال. بل على العكس، فقد عقدت العزم على مواصلة الهجوم على الفرنسيين بأقصى قوة. فأرسلنا على العدو جميع فرساننا والقبائل الموالية لنا، وظلوا طوال الليل يطلقون النار على المعسكر الفرنسي من جميع الجهات. كانت الذخائر تُصنع ليل نهار. كما بدأ التجار يتوافدون على المعسكر مرة أخرى ليبيعوا لي الخراطيش والبنادق مقابل ورقة دفع[9] أو كمبيالة.

[9] تعهد يجب على المشتري دفعه للبائع أو الدائن خلال فترة زمنية معينة و يكون باتفاق مشترك بين المشتري والبائع ويسجلها البائع على ورقة يوقع عليها المشتري ويتم الاتفاق على المدة الزمنية لسداد الدين.

كان بيننا أيضاً القاضي عبد الكريم الذي لم يكن الشريف يحب أن يراه معي، ربما خوفاً من مركزه النافذ. كان قد ناصب هذا الرجل الشجاع العداء أيضًا.

كان عبد المالك قد أشاع بين القبائل أن القاضي عبد الكريم أسباني، وأن غرضه هو إدخال الأسبان إلى البلاد. ولم يسمح له بالعودة إلى بلده مرة أخرى إلا بعد أن دفع عبد الكريم لقبيلته التي أبعدته عنها دسائس عبد المالك مبلغاً كبيراً على سبيل الصلح، فسمح له بالعودة إلى بلده مرة أخرى. لقد كنت آسفًا جدًا من أجله، خاصة وأن أسرته أصبحت منفية.

بسبب هجماتنا المستمرة كان الفرنسيون قد وضعوا في موقف لا يحسدون عليه، خاصة وأن إمداداتهم الطرية من الطعام والذخيرة من تازا كانت غالباً ما تقع في ايدينا، ولا يصل الباقي إلا بعد أن يتكبدوا خسائر فادحة. عندما تضيء قذائفهم عتمة الليل لمسافات بعيدة، كان معسكرهم هدفًا ممتازًا لطلقاتنا، بينما كانوا هم أنفسهم يطلقون النار نحو الظلام الدامس ببنادقهم ورشاشاتهم.

لم يتكبد رجالنا المختبئون خلف الصخور والأحجار أي خسائر في هذه المواجهة الذي استمرت بلا توقف عن طريق نظام مناسب للمناوبة، بحيث سرعان ما أصبح وضع الفرنسيين غير محتمل. ونتيجة لذلك، بعد مرور بضعة أيام، قرروا الانسحاب، الذي كان من السهل أن يتطور إلى هزيمة ساحقة لو كان لدينا ما يكفي من البنادق والذخيرة. وردت الأخبار الأولى عن هذا التراجع من عبد النور، الذي ظل على مقربة من العدو طوال الوقت.

هنأت الشريف على هذا النجاح. وبحضور جميع الزعماء احتفلنا احتفالاً بهيجًا. إن انسحاب الفرنسيين في اتجاه تازا أعاد إلينا منطقة عملياتنا السابقة.

كان من بين أسرانا جندي فرنسي من اللفيف الأجنبي يدعى أندريه، وكنت أستخدمه مع جنود اللفيف الآخرين في صنع الذخيرة. في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى مستودع الذخيرة، ألقى أندريه بنفسه عند قدمي وبدأ يبكي ويشتكي من سوء معاملة جنود اللفيف الآخرين له. تبين من التحريات التي أجريتها أنه كان يتعرض باستمرار للركل بطريقة وحشية للغاية من قبل مواطنه الفرنسي، جندي اللفيف رينييه. لكي أضع حداً لهذه الشجارات، أخذت أندريه معي إلى معسكري ووضعت تحت تصرفه خيمة قريبة جداً من خيمتي. لكن بعد ذلك بوقت قصير انتحر بإطلاق رصاصة على رأسه. فأسرعت إلى خيمته، وأسرع الشريف أيضاً عند سماعه الطلقة النارية. فالتفت إليّ غاضبًا عند رؤية الجثة وقال " إن هذا ناتج عن معاملة كلب فرنسي كأخ، بدلا من وضعه في السلاسل كما يتفنن الفرنسيون في معاملة أسراهم "، وأضاف، ربما ليحذرني: " خذ حذرك مع هؤلاء الرجال، وإلا فإن الطلقة التالية ستجد طريقها إلى قلبك! "

ترك أندريه وراءه رسالة قال فيها: " سيدي القنصل، أشكرك على كل الخدمات التي قدمتها لي"، وفي ختامها توسل إليّ أن أبلغ والديه بمصيره.

في الوقت نفسه تقريباً وقع حادث مؤسف في مستودع الذخيرة، حيث احتفظ جندي اللفيف موللر، وهو رجل محترم جداً، بقنبلة في يده لفترة طويلة جداً عند اختبارها وفقد يده اليمنى في الانفجار الذي أعقب ذلك. فاضطر إلى بتر ذراعه في مليلية.

في أحد الأيام أحضر لي أحد الأهالي جندياً جديداً من اللفيف الأجنبي يدعى إيلغ، كان قد هرب من المعسكر الفرنسي وسرعان ما أصبح من أفضل رجالي وأكثرهم إخلاصاً. بعد ذلك أعطاني بعض المعلومات المثيرة للاهتمام عن الأحوال في تازة وفراره إلى معسكرنا.

في هذه الحالة من العوز، كنت مسروراً جداً عندما وصلتني ذات يوم دفعة كبيرة من المال من مولاي أحمد السيبة. استطعت بذلك أن أدفع ثمن المائة وخمسين ألف خرطوشة التي اشتريتها من الريفيين مقابل كمبيالة، وكذلك ثمن الخيول التي قتلت في المعارك، والألْجِمَة والعلف؛ وسلمت الباقي إلى الشريف.

لكن على الرغم من أنه كان يملك أيضاً الـ 120 ألف بسيطة التي سبق أن ذكرتها، إلا أنه بعد فترة قصيرة طلب مني المزيد من المال. هددته بالانسحاب فوراً إلى بني وراين، إذا استنفذت أمواله، فلم يعد بوسعي أن أبرر بقائي معه لحكومتي. طلبت منه إجابة كتابية فورية. فأرسل إليّ رسالة مفادها أنه أخطأ، وأنه لا يزال لديه أجور أربعة عشر يوماً؛ ولكن في المستقبل يجب أن أدفع النفقات بنفسي.

كنت في موقف حرج للغاية. اضطررت مرة أخرى إلى اللجوء إلى القبائل للحصول على المال، ولكني في المقابل استطعت حينئذ أن أحتفظ بين يدي بالمال اللازم لسير الحرب. كان لأخبار انتصارات الألمان وانهيار روسيا أثر طيب جداً في نفس الشريف، ولكنه في الوقت نفسه كان يخشى أن يؤدي نجاح الألمان الحاسم إلى تعريض فرصه في إقامة سلطنة مستقلة للخطر.

بعد أن تقدمنا بمعسكرنا إلى الأمام، أخذت قوتنا القتالية تزداد مرة أخرى، حتى تمكنا في أوائل يونيو سنة 1917 من تحقيق نصر كامل بمناسبة هجوم الفرنسيين على قبيلة البرانس. كانت معلومات قد وصلتنا تفيد بأن الفرنسيين قد بدأوا تحركا على الضفة الغربية لنهر مكناسة في اتجاه الشمال، فعقدنا العزم على التحرك لمساندة البرانس.

في الساعة السابعة صباحا، تجمعت قواتنا التي كانت تتألف من جنود اللفيف الأجنبي والكبدانيين وفرسان عبد المالك وعدد كبير من رجال القبائل، على المرتفعات الواقعة غرب النهر، في الوقت الذي كان فيه الرتل الفرنسي على مرمى البصر. تمركز الفرنسيون في موقع مقابل لنا، لكنهم لم يبدأوا المعركة على الفور.

كان الشريف قد أعطى رجاله أوامر صارمة بعدم إطلاق النار حتى يهاجم العدو، أما أنا فقد شجعت رجالي على بدء القتال في أية لحظة، وهذا ما فعلوه. بدأ رجالي بالهجوم منتقلين من جرف إلى جرف، وتحقق ما كنت أريده: فقد انجذب رجال عبد المالك أيضًا إلى القتال. كان عدد من رجالنا قد سقطوا، إما جرحى أو قتلى، عندما هبّ رجال قبيلة البرانس لنجدتنا وهاجموا الفرنسيين من الخلف. كانوا قد سمحوا للفرنسيين بدخول أراضيهم دون مضايقة ليهجموا عليهم عندما لا يتوقعون ذلك. الكمين كان ناجحًا. كان الميدان مفروشًا بالجثث والخيول والبغال النافقة والبنادق والحقائب.

كانت قواتنا ورجال القبائل في أعقاب الهاربين. حاول طيارو العدو إعاقة المطاردة بإلقاء القنابل ونيران الرشاشات دون جدوى. تعرضنا أيضًا لنيران كثيفة من المدافع الرشاشة الفرنسية المزروعة على صخرة ناتئة. مع ذلك، تمت محاصرة الصخرة واقتحامها تحت نيران كثيفة على وقع صرخات القتال العنيفة. سقط المدفعان الرشاشان في أيدينا، ورقد من لم يهرب من رماة العدو قتلى إلى جانب مدافعهم.

تكبد الفرنسيون خسائر فادحة. وجدنا في مكان واحد فقط في مجرى النهر ضابطاً مقتولاً وسبعة وعشرين جندياً معظمهم من اللفيف الأجنبي. قُتل أحد الصباحية[10] الذي كان يحاول إنقاذ الخراطيش في اللحظة الأخيرة برصاصة من تيج. وانهزم العدو تمامًا.

عدنا إلى معسكرنا بمعنويات مرتفعة.

وبعد ذلك بفترة وجيزة أبلغني القائد أحمد السرحوني بوصوله. وكان قد فر من الأراضي الفرنسية مع 200 فارس. كان رجلًا ذا شخصية قوية، غير أن شجاعته كانت متهورة. ولكي أثبت للشريف ضرورة التعاون بيننا وأن قضيته هي قضيتي أيضاً، لم أحتفظ به معي، بل أرسلته إلى عبد المالك الذي ضمه إلى فرسانه. كان بإمكاننا الاستفادة من رجال من طينته.

[10] الصبايحية وتسمى في بعض أنحاء الجزائر السبايسية هي فِرَق عسكرية من الخيالة أسستها فرنسا في معسكراتها السابقة وبالخصوص شمال أفريقيا كجيش عميل للمحتل الفرنسي، أسسها الجنرال يوسف المملوك وأوكلت مهمة تسييرها إلى فرنسي برتبة عقيد أو مقدم. الكلمة صباحي أصلها عثماني (سباهي) وتعني الجندي وهي مأخوذة من اللفظ الفارسي سپاهى وأنتقلت إلى اللغة الفرنسية، كما تقول رواية أخرى أنهم كانوا يستعملون نفس كلمة السر («صباحكم بالخير») فيما بينهم إلى أن تم التفطن إليهم وتسميتهم ب«الصباحية». وظيفتهم أبان الحكم العثماني هي الوساطة بين الدايات والأهالي ولكن تطورت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر لتصبح أكثر ولاء لهذا المستعمر وذلك بتجنيدهم الشباب الجزائري للانخراط في الجيش الفرنسي من أجل محاربة أعداء فرنسا من المقاومين للاحتلال الفرنسي ودحر ثورات الاهالي تماما كما حدث مع مقاومة الزعاطشة وبوعمامة والمقراني والكثير من الثورات الأخرى حيث ارتكبوا مجازر في حق الأهالي.

الفصل السابع عشر

.نجاحات جديدة. قطيعة مع الشريف. مصالحة بأمر من الحكومة الألمانية

.في الفترة التي تلت ذلك أمكننا تسجيل مناوشات خفيفة ناجحة ضد الفرنسيين كل يوم تقريباً

على الرغم من ذلك كله، كان عبء مخاوفي يزداد ثقلًا. فقد أصبح نقص الخراطيش وشح المال شبحين .مرعبين حقا بالنسبة لي

فالشريف الذي لاحظ الآن النجاح الذي أحرزه رجال القبائل بعد أن أخذت على عاتقي تنظيمهم ودفع أجورهم، وكان على بينة من وضع الفرنسيين الحرج، الذين كنا نتلقى منهم كل يوم هاربين جدد، أصبح .يطلب الآن مبالغ طائلة لنفسه ولزيادة قواته الشخصية

بما أنني كنت أعتمد أساساً على أموال القبائل، فقد حدث مراراً أن كنت تحت ضغط المشاريع الكبيرة بدون مال وفي حرج شديد. كان الوضع محبطاً جداً في كثير من الأحيان لدرجة أنني كنت أفضل الرحيل. كنت قد قبلت مقابل كمبيالة مئات الألوف من الخراطيش، وبنادق وخيول وخبز وشعير، وفي يوم من الأيام عندما لم يبق معي مال على الإطلاق، اضطررت أن أدفع أجور رجال القبائل من مالي الخاص، كان مسؤول معسكر عبد المالك يرسل إليّ كل يوم قائمة بمشتريات هائلة كنت أرسلها إلى ألمانيا مشفوعة باحتجاج. طلبت من .الشريف أن يوقع من الآن فصاعداً على جميع الحسابات بنفسه، واضطر إلى ذلك بتردد شديد

وصلت أخبار انتصارات ألمانية جديدة إلى المعسكر، واحتفالاً بذلك رفعت راية النبي الخضراء ونظمت فانتازيا. كان الشريف في مزاج طيب، وعندما خاض رجال قبيلة مطالسة اشتباكًا مع الفرنسيين بعد ذلك .مباشرة، ركب بنفسه إلى مسرح القتال لتشجيع المحاربين

تكبدنا خسارة مؤلمة بوفاة جندي اللفيف الأجنبي المقتدر والشجاع فوغت الذي اشتبهنا في تسميمه. وضعته في مثواه الأخير على بعد حوالي 400 متر فوق مغارة معسكرنا، على جانب صخرة ضخمة وبالقرب من .ورشته القديمة التي كان مولعاً بها

ثارت حماسة كبيرة عندما أسقط أحد طياري العدو على يد جنديي اللفيف الأجنبي، ويت وجليخنر، اللذين .أصابا هدفهما على مستوى المحرك بأحد الرشاشات التي تم الاستيلاء عليها

سرعان ما تحول التفاهم الجيد الذي كان قائماً بيني وبين الشريف في ذلك الوقت إلى قطيعة كادت تكون نهائية. فقد كنت أريد أن أعاقب بالسجن أربعة عشر يوماً ثلاثة من جنود اللفيف الأجنبي الذين غادروا أثناء المناوشات. بينما كنت ماراً داخل المعسكر رأيت هؤلاء الرجال الثلاثة واقفين في جماعة مع عبد المالك الذي عرض عليهم أن يضمهم إلى قواته. شرحت للشريف أن هذا الأمر مستحيل. فالرجال يجب أن يعاقبوا، وأني وحدي صاحب الحق في إنزال العقوبة بهم. فرد عليَّ قائلاً: "إن الرجال قد وضعوا أنفسهم تحت .حمايتي، وبالتالي فإن من واجبي حمايتهم". استدرت على عقبي دون أن أرد عليه

في الوقت نفسه تلقيت من صديق موثوق به ممن يقيمون على مرتفعات شاشور رسالة عاجلة يبلغني فيها أن الشريف طلب من رجالي تسليم الرشاشات والخرطوش.

كما ألمح قادة فرسان عبد المالك إلى أن الشريف يقترح اتخاذ إجراءات عنيفة ضدي في اليوم التالي. ووفقًا للمعلومات الواردة من الجواسيس، كان في نية الفرنسيين احتلال شاشور. في فترة ما بعد الظهر وصل فارس يحمل أخبارًا عن تقدم الفرنسيين.

بدا لي أن الشريف لم يكن مهتماً بهذه الأخبار، وأرسل إليّ رسالة مفادها أنه يرغب في إخلاء موقعنا في شاشور.

كان لا بد من منع ذلك بأي ثمن. لذلك، انطلقت في منتصف الليل إلى الشيخ الهادي حمادة الذي كانت قبيلته أولاد حدو تقيم بين معسكرنا والموقع المذكور.

وقد أرسل الشيخ الذي كان صديقي الخاص، في جنح الليل، رسلا إلى جميع القبائل البعيدة وجمع رجال قبيلته للدفاع عن شاشور.

قسمت مخزوني الكامل من الخراطيش بين قواتنا ورجال القبائل الذين سارعوا إلى مساعدتنا؛ وعندما ظهر عبد المالك على بغلته في وقت متأخر من الليل، بغرض إعطاء الأمر بإخلاء الموقع، أجابه رجال القبائل " لا يا سيدي نحن سنموت ".

وفي اليوم التالي هاجم الفرنسيون الموقع، لكنهم تراجعوا بخسائر فادحة. هكذا بقي المرتفع تحت سيطرتنا.

استشاط الشريف غضبًا وفكر في الانتقام. فركب عائداً إلى المعسكر، وأرسل في الحال في طلب جنود اللفيف الأجنبي الثلاثة المذكورين أعلاه، وأعطاهم خيولاً وبنادق ليضمهم إلى قواته الشخصية.

لكن ذلك كان فوق ما يمكنني تحمله. وفي الحال أعطيت الأوامر بسرج خيولي العشرة. عندما رأى عبد المالك ذلك صاح في وجهي بأنه سيطلق النار بيده على أول من يمتطي حصانًا من رجالي. كان ردي بأنني سأطلق النار بالمثل على رجال اللفيف الثلاثة إذا ما حاولوا امتطاء الخيول التي خصصها لهم الشريف.

ثم عاد رجال اللفيف إلى خيمتهم بحماية رجال عبد المالك.

غادرت المعسكر بصحبة الشيخ بو رحاير الذي تصادف وجوده هناك وأنا مقتنع تماماً بأن القطيعة مع عبد المالك قد أصبحت نهائية، وانطلقت في البداية نحو منطقة مرابطين التي تقع إلى الشمال، لأنتظر هناك خطوات الشريف الأخرى.

لم يكن هناك ما يدعو للخوف على الكبدانيين وجنود اللفيف الذين تخلفوا في شاشور، فقد كانوا في حماية فرساني المحليين البالغ عددهم 130، كان معظم أفراد القبائل في جانبي. حتى أنني كنت قد لوّحت للشريف بأنني لن أدخل معسكره مرة أخرى حتى يغادره جنود اللفيف الأجنبي الثلاثة. تركته أيضاً لأن تعاوني معه على نفس المنوال الذي كان قائماً حتى تلك اللحظة كان سيجعلني خائناً لحلفائنا المسلمين.

ثم أبلغت الحكومة الألمانية بخيانات الشريف المتكررة، وألححت على الحكومة الألمانية أن أنفصل عنه.

في شاشور كان كل شيء هادئًا. لم يحاول عبد المالك أن يعتدي على رجالي، ولم يأخذ من مقري سوى مدفع رشاش واحد كنت قد أزلت زرفاله كإجراء احترازي.

كان خبر انفصالي عن الشريف قد انتشر في البلاد كالنار في الهشيم. كان الفرنسيون ينتظرون بفارغ الصبر حصول الشرخ النهائي. آه لو وصل الأمر إلى ذلك الحد، لكان لي أخيرا يد طليقة، ولأمكنني أن أقود جميع القبائل التي كانت مخلصة لي ضد الفرنسيين مع احتمال نجاح حاسم. كانت ستشعل نيران الثورة من الريف إلى الأطلس!

بعد بضعة أيام وصل مائة فارس ينتمون إلى قبائل مختلفة بقصد مصالحتي مع عبد المالك. ومرة أخرى سمحت لنفسي أن أقتنع وركبت إلى معسكر الكهف. تصرف الشريف وكأن شيئًا لم يحدث، لكنه أبعد جنود اللفيف عن المعسكر.

بعد ذلك بفترة وجيزة تلقيت السطور التالية من ألمانيا: "نرجو منك في الحال أن تنضم إلى عبد المالك، لأن هذا الأمر ضروري للغاية بسبب ترتيبات سياسية خاصة".

ربطني هذا الأمر مرة أخرى برجل تعمد إحباط خططي.

كان الشريف عدونا اللدود. ولولا سلوكه المراوغ والمؤذي، لكان من الممكن القضاء على السيادة الفرنسية في المغرب في نهاية سنة 1915.

الفصل الثامن عشر

المرض. عبد الملك يغادر المعسكر. نجاحات خارجية وصعوبات داخلية

في يوليو 1917، خضنا اشتباكاً ناجحاً في منطقة البرانس. وجلس الشريف كئيباً في مقره يتساءل كيف يستطيع أن يزعجني في عملي.

في شهر غشت نجح الفرنسيون في تثبيت أقدامهم في سيدي بلقاسم بين تازا وشاشور، وأقاموا في السهل مركزا حصينا هو مركز القعدة الطويلة الذي كان يشرف على نهر مسون.

أصبت بمرض شديد ومكثت قرابة شهر في مقري دون أن أتمكن من الحركة. كانت الهموم المالية الدائمة وقلة الذخيرة والارتباط بالشريف قد حطمت أعصابي. وردت استفسارات كثيرة من القبائل عما إذا كنت قد مت. لم يكن من المستغرب أن يكون السيل قد بلغ الزبى. فقد كانت معاناتي المتواصلة مع خداع عبد المالك وسياسته قد أرهقتني كثيرًا. كان قد نجح بدسائسه في خلق شعور عدائي ضدنا في بلاد الريف التي كنا نعتمد عليها اعتماداً كبيراً لاتصالها بالساحل.

لم يتمكن رسلي السريون من المرور إلا بعد أن تعرضوا لأعظم الأخطار. في هذا الوقت تقريباً تلقيت من الحكومة الألمانية نبأ يفيد بأن باخرة ذخيرة في طريقها إلينا. استطعت في الوقت المناسب أن أمنع إنزالها على الساحل الشمالي، الأمر الذي كان سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه. ما كنت لأستلم الذخائر من رجال القبائل الريفية الذين كانوا قد ناصبوني العداء، والذين كانوا سيصادرونها بلا شك لاستخدامها في حربهم ضد الإسبان. في هذه الحالة، وكانت هذه هي النقطة الأهم، كانت إسبانيا ستوضع في موقف صعب للغاية تجاه الحلفاء. لم يكن مستبعداً أن ينتهز الوزير المعادي لألمانيا رومانونيس الفرصة لتحريض أسبانيا ضدنا، خصوصاً وأن المسألة المغربية كانت قد بدأت تناقش في مدريد بجدية بالغة في 1916.

كان الجزء الوحيد من الساحل الذي كان بإمكاننا إنزال الذخائر فيه في ذلك الوقت يقع جنوب أكادير، حيث سعت غواصة ألمانية بناء على اقتراحي إلى إنزال ذخائر لنا. إلا أن عملية الإنزال باءت بالفشل لأسباب لم أتمكن من الوقوف عليها.

لم أكد أتعافى من مرضي حتى عدنا إلى العدو مرة أخرى. في معركة في سيدي بلقاسم في 17 أكتوبر نجحنا في محاصرة الفرنسيين من جميع الجهات وإجبارهم على الفرار. هنا اضطررت مرة أخرى أن أنعي فقدان العديد من خيرة رجالي الذين هاجموا بشجاعة بصدور عارية وبنادق رديئة، فحصدتهم المدافع الرشاشة الفرنسية.

انتصرنا مرة أخرى، ولكن لم تكن نهاية هذا الصراع غير المتكافئ تلوح في الأفق.

بعد تقهقر الفرنسيين ذهبت إلى رجالي الذين كانوا بعد القتال العنيف مستلقين في مجموعات تحت الأشجار والشجيرات وشكرتهم على سلوكهم البطولي وأسعفت الجرحى. ثم تسلقت المرتفع وحدي وجلست على حافة مواجهة للعدو. كانت الشمس قد غابت لتوها خلف الجبال البعيدة والشفق يتسلل إلى البلاد. بعد القتال، ساد

سكون أخرس: حل السلام حتى في قلبي. كانت أتعاب النهار وهمومه تتلاشى مع نوره. بدأ حجاب الليل الشافي يهبط ببطء على الجبل والوادي.

كنت أحدق عبر السهل، وإلى الجنوب تلألأت أضواء تازا. كانت القذائف المضيئة تنطلق في الهواء من هنا وهناك من مواقع فرنسية مختلفة، مما أوحى إليّ باضطراب العدو. كنا قد حققنا نجاحاً تلو الآخر في معارك كثيرة - ولكن الضربة الحاسمة كانت تحبطها دسائس الشريف باستمرار. عدت إلى المعسكر وأنا مستكين.

في صباح اليوم التالي أرسل الشريف في طلبي. كان قد استدعى زعماء مطالسة إلى معسكر الكهف وأفهمني أنه يريد أن يحفز الرجال استعداداً لمعركة شاملة كبيرة. لم أكن أشك في أنه كان مشحوناً بالخداع مرة أخرى.

بعد أن جلسنا في الدائرة التي شكلها مائتا محارب، بدأ الشريف خطابه بالكلمات التالية: " منذ أن تولى سي هرمان إدارة الشؤون المالية لم تعد القبائل تحصل على أي مال. لقد حرمني من الإدارة المالية. وأعتقد أنه من الأفضل أن نفترق عن بعضنا البعض، لأنني لا أستطيع مساعدتكم بدون مال".

في حالة من السخط الشديد وقفت وقلت له: " ما كان لي أن أصدق أن شريفاً ينحدر إلى مثل هذا الكذب الفاحش، فها هو ذا شاهدي سي أحمد قبة يستطيع أن يثبت لكم أن عبد المالك سلمني إدارة المال من تلقاء نفسه. ولم أتسلمها إلا بناء على رغبته. لقد أنشأنا قوة قتالية جديدة، وهي ضعف القوة السابقة التي كانت لدينا من قبل، كما كان الشريف يرسل إليّ كل يوم حسابات ضخمة لتغطية نفقاته الخاصة ودفع ثمن الشعير. بهذه المبالغ وحدها يمكننا أن نصون محلة. وقد اضطررنا خلال معارك السنة الماضية أن نعوض الكثير من الخيول والخراطيش والبنادق، ومن المفهوم تماماً أنني اضطررت في كثير من الأحيان إلى دفع الأجور بواسطة تعهدات خطية. كما تعلمون، أنا لا أملك ورشة لصك النقود. إنني أعرض عليكم الأمر بمنتهى النزاهة إما أن تستمروا في القتال إلى جانبي أو أن تدعوني أعود إلى وطني. أنتم تعلمون أنني أستطيع أن أغادر بلادكم في نصف ساعة، إذا رغبتم في ذلك".

كان تأثير خطابي واضحًا وكبيرًا. حتى الرجال الذين كان عبد المالك قد رشاهم انحازوا إلى جانبي. وانفض الجمع في سلام. هكذا هُزم الشريف مرة أخرى نتيجة مكائده الخاصة. فانسحب إلى خيمته وقدم لي فنجان قهوة وقال مازحاً إن الأمر لم يكن مقصوداً بجدية.

على أن نتيجة هذه المناقشة لا بد أن تكون قد أقنعت الشريف بأن نفوذي على رجال قبيلة جزناية أقوى من نفوذه؛ لذلك فضل نقل معسكره إلى بو هارون في منطقة البرانس، حيث يأمل أن يكون له أتباع شخصيون، وحيث يكون أقرب إلى أصدقائه في حالة ما إذا اضطرته الأحداث غير المتوقعة إلى الفرار من الداخل.

في هذه الأثناء استمرت الحملة بنجاح متذبذب.

في 17 ديسمبر 1917، نجح جندي اللفيف الشجاع إيلج في أسر دورية فرنسية حيث وقعت في أيدينا عدة بنادق حربية.

في أوائل شهر فبراير 1918، جاءني جندي اللفيف الأجنبي ووتكه يستفسرني عن سبب عدم قيامنا بتفجير جسر مهم للسكك الحديدية على نهر مسون في السهل، والذي كانت تعبره قطارات الجيش كل يوم.

لم أكن قد سمعت من قبل عن هذا الجسر، ولكنني بناء على ثقتي بما قدمه لي أرسلت ووتكه مع ثمانية جنود آخرين من اللفيف وثلاثين من أفضل فرساني لنسف الجسر. وقد كلفتني هذه المهمة مرة أخرى حياة بعض أفضل رجالي بمن فيهم الشجاع همسات الذي أنقذ حياتي في 27 يناير 1916، وذلك بإعادة تسوية لجام حصاني الذي كان يعدو نحو العدو تحت نيران كثيفة.

وأذكر أنني في أحد الأيام، وأنا أشعر بالإرهاق، غادرت مقري بحثاً عن الراحة خارج المعسكر. وما كدت أغادره حتى اقتربت مني امرأة شابة رثة الثياب ولكنها جميلة جداً. وبعد تقبيلها لبرنوسي سألتني عن زوجها. كنت أعرفه، فقد كان ميسور الحال، كان قد اضطر إلى الفرار مع زوجته من الفرنسيين. كان الزوجان كثيراً ما يتصلان بي لطلب قنابل يدوية، فقد كان الرجل حريصاً على المشاركة في عمليات التلغيم والتفجير التي كنت أقوم بها. لم يعد من آخر حملة. في كل يوم كنت أرى المرأة جالسة على تلة وهي جائعة ومنتظرة زوجها، كنت أقدم لها الطعام. انتظرت لأسابيع دون جدوى، كما أخبرتني اليوم. حاولت أن أواسيها، لكنها قالت: "ما زلت آمل أن يعود زوجي، ولكن إن لم يعد فالحمد لله؛ لأنه قام بعمل عظيم من أجل الإسلام". ثم اتجهت إلى كوخها المصنوع من الأغصان وأوراق الشجر، وهي حزينة ولكنها فخورة.

الفصل التاسع عشر

القتال من أجل حصننا الجبلي

في شهرفبراير 1918، أفادت التقارير أن الفرنسيين كانوا يعتزمون التقدم نحو شاشور. كان لا بد من منع ذلك بأي ثمن. كانت السيطرة على هذه المرتفعات ذات أهمية كبيرة بالنسبة لنا. فقد كانت هذه المرتفعات تهيمن على كامل منطقة القتال في اتجاه تازا. وإذا فقدناها، فإن موقفنا في هذه المنطقة سيصبح في غاية الصعوبة، كما سبق أن اكتشفنا في مناسبة سابقة. وبالتالي، وعلى الرغم من أنني كنت لا أملك سوى القليل من المال والذخائر، إلا أنني بذلت قصارى جهدي لحماية الموقع.

وعلى المرتفع نفسه تم نشر 130 رجلاً من رجالي للدفاع. أما القبائل التي هرعت إلى مساعدتنا فقد كان من المقرر أن تستخدم كدعم لرجالي على الجانبين، بينما كانت مهمة رجال قبيلة مطالسة الانتظار على أراضيهم ومهاجمة الفرنسيين على الأجنحة.

وفي مساء أحد أيام الجمعة تلقيت خبر تقدم الفرنسيين في صباح اليوم التالي.

كان الشريف لا يزال مقيماً في معسكره الآمن في بو هارون في منطقة البرانس. وعلى الرغم من أن مساعدته الشخصية لم تكن ضرورية، إلا أنني لم أستطع الاستغناء عن مساعدة القوة التي اصطحبها معه، لذلك أرسلت رسولاً مستعجلاً بطلب المدد. وقد استجاب لهذا الطلب وأرسل لي، على عكس توقعاتي تماماً، قوته القتالية المكونة من 800 بندقية، بالإضافة إلى بضع مئات من رجال قبيلة البرانس، ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا مسلحين ببنادق عديمة الصلاحية تقريباً.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً انطلقت إلى ساحة المعركة. وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا شاهدنا سحب غبار الرتل الفرنسي الذي كان يتقدم من مسون في اتجاه سيدي بلقاسم. كان العدو يسوق قطعان الماشية أمام قواته، ربما خوفا من الألغام التي زرعناها تحت طريق الوادي. لم يمض وقت طويل قبل أن تتمركز بطارياته على جانبي طريق الزحف، وتفتح نيرانها ضد تحصيناتنا في شاشور وضد قوات القبائل التي كانت تتمركز في الجهة المقابلة لها في الوادي وإلى الشرق.

دخلت المواقع الفرنسية في سيدي بلقاسم المعركة بمدافعها.

حلقت طائرات ذات طابقين فوق مواقعنا وألقت قنابلها وأبلغت المدافع الفرنسية بمفعول نيرانها.

نظراً لنقص الذخائر، بدا لي أنه من المستحيل كبح جماح الفرنسيين في السهل أمام شاشور. وبناء على ذلك أصدرت الأوامر بإطلاق نيران أقل، فقط لمضايقة رتل العدو من بعيد، وعدم اعتراض تقدمهم على طول الوادي إلى سيدي بلقاسم، حيث وصل الفرنسيون دون مقاومة جدية حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر.

خلال الليل أمرت بإخراج كل ذخيرتنا من معسكر الكهف ونقلها إلى شاشور، إذ بلغني عن طريق الجواسيس أن الفرنسيين ينوون التقدم نحو حصننا الجبلي في اليوم التالي.

كان الرسل يأتون ويذهبون طوال الليل. واتخذ رجالي ومحاربو عبد المالك مواقع محمية على بعد حوالي 600 متر قبالة سيدي بلقاسم، على ضفة مجرى نهر مسون الذي يبلغ عرضه حوالي 6 أمتار وعمقه 60 سم، بينما احتمى رجال القبائل في المقدمة.

وفي الساعة التاسعة فتح الفرنسيون النيران وبدأوا في التحرك نحو شاشور. عندما اقتربوا بما فيه الكفاية من المكان، تلقوا فجأة نيراناً مذهلة من جميع الجهات، وتحت وقع الصدمة ترنحوا وتراجعوا بخسائر فادحة إلى مسون.

كنت قد وصلت أنا شخصياً بصحبة عناصر اللفيف الأجنبي إيلغ، فيت وشرودر إلى مكان أسفل موقع الطويلة على بعد 100 متر تقريباً من مجرى نهر مسون، عندما تعرضنا لنيران كثيفة من الرشاشات. جاءني بو زيان، شقيق عبد النور، مهرولًا وناشدني أن أترك الخط الأمامي للقتال. ثم انطلق مع رفاقه لملاحقة الفرنسيين المنسحبين.

أدى وجودي في الخط الأمامي إلى دخول رجالي في حالة من الحماس القتالي الذي كان رائعًا حقًا. فلم تنفع نيران الرشاشات ولا القنابل اليدوية ولا القذائف في وقف تحديهم للموت الذي كان الدافع المحتمل لمبادرات الشريف؟ لقد كانت أمجد فترات الزحف الألماني الذي لم يستسغه الشريف؛ فقد شعر أن المغرب قد وقع مرة أخرى في أيدي الألمان وأن حلم إمارته الشريفة قد تبدد، وهو خوف لم يكن ليزداد إلا رعباً من النصر العظيم الذي أحرزته لتوي.

عدت إلى معسكري، وكنت سعيدًا لأنني استطعت التصرف بدون عبد المالك. في الفترة التي تلت ذلك مباشرة نظمت طلعات صغيرة ناجحة من شاشور، تمكنت في إحداها من إبعاد ألفي رأس من الغنم عن الفرنسيين - وهو مكسب كبير بالنسبة لنا - وكذلك قطع أسلاك التلغراف.

كان نشاط الشريف يتمثل أساساً في إثارة مختلف زعماء القبائل، بحيث سادت في الوقت الحاضر فوضى عارمة وسط القبائل.

كانت أخبار النصر الجديدة والمثيرة للإعجاب قد وصلت من ألمانيا. وكنت قد اتفقت مع بني وراين على أن أطلعهم على أية أخبار سارة غير عادية بإشعال نيران عظيمة وتفجير الألغام في شاشور في الساعة الثالثة صباحا، وبما أن أخبار نصر كبير آخر قد وصلت الآن، فقد سطعت الأنوار وأعلنت هذه البشارة ليس فقط لرجال بني وراين، بل أبلغت مدينة تازة، وكذلك مراكز سيدي بلقاسم والطويلة ومسون الفرنسية عن سير الأمور على جبهتنا الغربية.

في نهاية شهر مايو نجحت مع 20 فارساً في الاستيلاء على البريد الفرنسي المتجه إلى سيدي بلقاسم. وكان يتألف من ست حقائب بريدية كبيرة، وجدت فيها الرسالة التالية من ضابط في هيئة الأركان العامة الفرنسية في باريس:-

باريس، 15 مايو 1918.

" تعلن هيئة الأركان العامة أن فرنسا في حالة حرجة. لقد ألحق الطيران الألماني والمدافع الألمانية بعيدة المدى أضراراً هائلة. بحلول سبتمبر ستكون فرنسا إما قد خسرت أو انتصرت. لا يزال لدينا فوش الذي نعلق عليه أملنا الأخير."

كانت الرسالة موجهة إلى قائد القوات في سيدي بلقاسم.

ترجمت الرسالة على الفور إلى اللغة العربية ووزعتها بين القبائل وكذلك داخل الأراضي الخاضعة للفرنسيين. أرسلت النسخة الأصلية بواسطة مبعوث سري إلى الساحل لإرسالها إلى ألمانيا. كنت أؤمن الآن إيمانًا راسخًا بالنصر الألماني الأكيد. جاءني العديد من الفارين في شهر يونيو من قبيلة هوارة، وطلب عدد من الشيوخ مقابلتي. لم يجرؤوا هم أنفسهم على زيارتي. ونتيجة لذلك، رتبنا لقاءً في قبيلة هوارة نفسها. كانت مخاطرة كبيرة بالنسبة لي أن أقوم بهذه الرحلة الطويلة في قلب الأراضي الخاضعة للفرنسيين، ولكن أحد الشيوخ أصحاب النفوذ ضمن سلامتي. قبل منتصف الليل بقليل، غادرت بمفردي مع هذا الشيخ. لا أحد، ولا حتى عبد النور، كان يعرف أي شيء عن نواياي. في ظلام الليل الدامس، تجاوزت مركز سيدي بلقاسم الفرنسي، وشققت طريقي إلى سهل هوارة.

في خيمة كبيرة تسمى الشيماء، التقيت بالشيوخ الذين أبلغوني أن الفرنسيين قد عقدوا العزم على الاستيلاء على شاشور بأي ثمن. لهذا الغرض كانوا قد جندوا قوات جزائرية، فضلا عن قوات أخرى من الدار البيضاء وتسول ودكالة، ورتبوا لتعاون القبائل معهم.

سألني الشيوخ عن رأيي في المشروع. فأجبت بهدوء تام بأننا سنصمد في شاشور، ولكن إذا لم نستطع ذلك فسينجينا سلام سريع. عندئذ وعدني الشيوخ بأننا إذا استطعنا الصمود في القتال لمدة يومين فقط، فإنهم سيقفون إلى جانبنا ويوجهون إلى الفرنسيين ضربة قاضية، كما فعل رجال البرانس من قبل. أضافوا أن لديهم أسباباً مبررة تجعلهم غاضبين مني، لأنني أخذت منهم ألفي رأس من الغنم في اليوم السابق. وعدتهم بأن أعيد إليهم أغنامهم مضاعفة خمس مرات، إذا ما انضموا إلينا. عند ذلك شكروني وقالوا إن كل شيء يتوقف على ما إذا كنا نستطيع الصمود. لن يطلقوا هم أنفسهم في البداية أي طلقة أثناء المعركة. علاوة على ذلك فقد أشاروا إليّ بالمواقع التي سيحتلونها أثناء القتال حتى نتجنب إطلاق النار عليهم. كان الهجوم الفرنسي متوقعاً خلال ثمانية أيام.

في ختام المقابلة ودعنا قبيلة هوارة بكلمات: "الله يحفظنا". في الساعة الثالثة صباحًا، أسرعت بحصاني عبر السهل الخاضع لفرنسا. لم يكن يرافقني سوى حفنة من الفرسان.

لم ينطق أي منا بكلمة واحدة. كنت مشغولاً جداً بالتفكير في القرار القادم الذي يتوقف عليه مستقبلنا في منطقة جزناية. كان خوفي الأكبر هو الخيانة من جانب عبد المالك. لذلك لم أقض في معسكري إلا وقتا قصيرا، ثم انطلقت من جديد لأبحث عن الشريف. بعد ست ساعات من السير وصلت إلى بو هارون. استقبلني الشريف مرة أخرى بمنتهى الحفاوة ووعدني بأن يهب لمساعدتي فوراً بجميع رجال قبيلة البرانس وقواته الخاصة في حالة تقدم الفرنسيين نحو شاشور.

أصررت عليه مرة أخرى بأهمية الاحتفاظ بهذه المرتفعات، ثم عدت إلى معسكر الكهف في كيفان.

من هذا المعسكر أوفدت ثلاثة جنود من اللفيف الأجنبي الجديرين بالثقة، فيت، جليخنر وشرودر، مع مدفع رشاش، إلى قائد قوات مطالسة أحمد السرحوني، مع تعليمات بمهاجمة جناح الرتل الفرنسي الذي كان من المتوقع أن يتقدم من مسون.

كلفتُ الجندي الشجاع إيلغ بمهمة شاشور حتى يكون هناك رجل يمكن الاعتماد عليه تمامًا في هذا الموقع المهم.

استعداداً للقتال القادم كان تحت تصرفنا، بما في ذلك أفراد القبائل، حوالي 500 بندقية جيدة و5000 بندقية قديمة، غير أن جزءاً منها كان عديم الفائدة وجزءاً آخر كان يتألف من بنادق مغلاقية، وشسبوات أمريكية وإسبانية قديمة.

من المؤكد أن عبد المالك كان يملك حوالي 80.000 خرطوشة، وكنت أنا أيضاً أملك أكثر من 100.000 خرطوشة، غير أن ثلثيها كانت خراطيش محلية الصنع، صنعت جزءاً منها أنا وجزءاً آخر كان من صنع رجالي. كنت مديناً على وجه الخصوص لصديقي الشيخ الهادي حمادة الذي دعمني برجاله من قبيلة أولاد حدو على الرغم من أنه فقد في المعركة الأخيرة أخاً له لم نستطع العثور عليه رغم بحثنا الطويل.

كانت أراضي قبيلة أولاد حدو تقع بين معسكرنا ومرتفعات شاشور، لذلك كانت في خطر داهم إذا أسفرت المعركة عن نتيجة غير مواتية.

بعد أن مكث جنود اللفيف ويت، جليخنر وشرودر مع رجال قبيلة مطالسة سبعة أيام في انتظار التقدم الفرنسي، ظهروا ذات يوم في المعسكر ليقولوا إن الفرنسيين لن يتقدموا، لكن في الوقت نفسه وصلتني معلومات مؤكدة بأن التقدم الفرنسي كان متوقعاً في صبيحة اليوم التالي.

عندئذٍ أرسلت الجنود الثلاثة ومعهم المدفع الرشاش إلى شاشور وأرسلت مبعوثًا إلى عبد المالك.

كان من حسن حظنا أننا نجحنا في استعادة السيطرة على جبل الكلب الواقع إلى الجنوب من شاشور، إذ أن احتلالهم لهذا المرتفع مكن الفرنسيين من تهديد موقعنا بنيران المدفعية. وقد تعرضت أنا شخصياً لهذه النيران في إحدى المرات عندما كنت أصوب بندقيتي التي لا تخطئ أبداً نحو الفرنسيين من موقع محمي في المقدمة. كان فارسي يقف إلى جانبي دون تغطية ومع ذلك لم يطلق العدو النار إلا عليّ. وقد أخطأتني 30 رصاصة على الأقل، ثم سقطت قذيفة واستقرت في الأرض عند قدمي. لا بد أن موقعي المحميّ قد أفشي سره، ولا بد أن الخائن كان واحدًا منا.

خلال الهجوم على جبل الكلب، سقط رجل استثنائي وهو يقاتل إلى جانبي; أنه الهادي محمد مراوي.

عندما تم الاستيلاء على الجبل، سقطت مئات القنابل اليدوية في أيدينا كغنائم مرحب بها جدًا.

الفصل العشرون

خيانة وتراجع

في الساعة الثالثة والنصف من صباح أحد أيام الأحد انطلقت نحو شاشور مع كاتبي وخادمي الشاب عبد القادر، وكان النور قد أشرق عندما استقبلنا أولى طياري العدو بقنابلهم ورصاص رشاشاتهم. قد غامروا بالاقتراب إلى مسافة عشرين متراً من الأرض، ولكنهم ذهلوا كثيراً عندما وجدوا معسكرنا في شاشور مهجوراً إلا مني ومن رجالي العشرة. كنت في الواقع قد سحبت القوات، بما في ذلك رجال قبيلة مطالسة، تحت جنح الظلام وأرسلتهم لملاقاة الفرنسيين بعيداً. وقد تمركزوا أمام حصني الطويلة وسيدي بلقاسم، وبدأوا بالاشتباك مع العدو.

كانت قوات عبد المالك قد وصلت هي الأخرى في الوقت المناسب، تنفيذًا لوعده. ودار قتال شديد تطور إلى اشتباك بالأيدي، كان الفرنسيون خلاله على الرغم من تفوقهم بعشرة أضعاف، وعلى كثرة مدافعهم ورشاشاتهم وطائراتهم، قد أجبروا مرارا على التراجع، بحيث أنه عندما حل الظلام لم يتمكنوا من التقدم خطوة واحدة.

ساعدت في تضميد الجرحى وأمرت بحملهم إلى المعسكر، كانت مهمة صعبة للغاية بسبب قلة مواردنا. كان رجال القبائل قد نقلوا جرحاهم إلى قراهم وكانوا بانتظار الدواء الذي سأقدمه لهم.

على مسافة 8 كيلومترات تقريباً تحت حصننا الجبلي شاهدت أربع معسكرات فرنسية كبيرة على مسافات متباعدة جداً. حاولت البطاريات عبثاً أن تقصف موقعنا المرتفع، كان الجبل شديد الانحدار بحيث لم تكن طلقاتهم تصل إلى أبعد من 300 متر من المتاريس.

ثم حدث شيء ما كان من شأنه أن يسلبنا كل ما بشرتنا به هذه البداية الميمونة للمعركة.

بينما كنت لا أزال منهمكاً في تضميد الجرحى، جاءني عبد النور وأبلغني أن قوات الشريف وكذلك رجال قبيلة البرانس قد انسحبوا إلى بو هارون. كان عبد المالك الذي كان قد مكث بعيدًا عن مسرح القتال، قد أرسل رسلًا يحملون معلومات مفادها أن الفرنسيين يتقدمون أيضًا من ناحية تسول إلى داخل أراضي البرانس. كانت هذه الأنباء كاذبة. واجهنا عملاً آخر من أعمال الغدر من جانب الشريف، كان من المستحيل أن نتصور أسوأ منه. وقد سلبني هذا التصرف المخزي كل طاقتي للحظة استبد بي الغضب على هذا الرجل، الذي لو كان واقفاً أمامي في تلك اللحظة لقتلتُه.

وحلت بنا الكارثة.

بعد انسحاب رجال قبيلة البرانس ورجال عبد المالك، أصبح معظم رجال قبيلة جزناية متوترين واختفوا في جوف الليل. حتى رجال قبيلة مطالسة هربوا من أجل، كما قالوا، الدفاع عن أراضيهم التي كانت مهددة بتقدم الفرنسيين.

وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه، إذ كنت مضطرا لمقاومة الفرنسيين ببضع مئات من الرجال الذين ظلوا موالين لنا. وبما أن ذلك كان مستحيلاً حتى على أشجع الرجال في مواجهة قوات العدو الكبيرة، فقد أمرت عبد النور وجنود اللفيف الأجنبي بإخلاء مرتفعات شاشور عندما هاجم الفرنسيون مرة أخرى في صباح اليوم التالي.

عندما طلع الفجر كان حصننا الجبلي تحت نيران كثيفة من القذائف. كان العدو قد اخترق الجبل من ثلاث جهات، وكان يتقدم نحونا بآلاف الأهالي المسلحين تسليحًا جيدًا وبقواته في تشكيلات قوية ومحمية. فتراجعنا وفقًا للخطة الموضوعة.

بحلول الظهيرة كان العلم الفرنسي يرفرف في النسيم فوق موقعنا في شاشور. لم يكن عملاً مجيداً من جانب العدو.

وسرعان ما جرت المدفعية الفرنسية إلى المرتفعات، حيث بدأت تقصف السكان المحليين الذين كانوا يفرون من قراهم. انفجرت القذائف الفرنسية بنتائج مخيفة وسط مئات العائلات التي كانت تفر حاملة ما أنقذته من ممتلكاتها.

سرت وسط الهاربين، الذين بدلاً من أن يلوموني طلبوا نصيحتي. لم أستطع مساعدتهم. أقصى ما استطعت فعله هو مواساتهم بإعطائهم وعدًا بسلام عاجل. فقدت قبيلتا أولاد بوريمنة (بو رمانة ؟) والعثامنة أراضيهما الواسعة والجزء الأكبر من قطعانهما. لقد كان وضعاً كئيباً، ومع ذلك لم أستطع أن أفكر في التخلي عن مشروعي في هذه المرحلة لأن مصالح وطني كانت على المحك. بالتالي قررت في الحال أن أقاوم العدو من موقع جديد.

في الأيام القليلة التالية عشنا حياة قطاع طرق. صُنعت الأكواخ من خشب الأشجار، وطُمست الفوارق الاجتماعية التي كانت موجودة من قبل. تسللنا مثل فئران الحقول إلى ملاجئنا البدائية. كان رجال قبائل الريف الأثرياء يقدمون لي الشعير والخراطيش مقابل كمبيالات. خفضت مؤونة الخيول بعد أن فُقدت مصادر إمدادات الذرة في ضواحي شاشور.

لم يتقدم الفرنسيون إلى أبعد من ذلك، بل استقروا على حصننا الجبلي القديم، مما مكننا من استعادة السيطرة على معسكرنا القديم في الكهف.

بعد أن استتبّ الهدوء، خرج الشريف من مخبئه الآمن واستفسر مستهزئًا: "ألم أخبرك أن شاشور ستسقط؟ " فرفضت بفظاظة عرضه أن أصحبه إلى بو هارون، وتعبيراً عن احتقاري له أدرت له ظهري، عندئذ عاد إلى منطقة البرانس.

كان الأمر بغيضاً جداً بالنسبة لي أن أضطر إلى التعاون مع هذا الخائن بعد ذلك، وبعد أن حددت كل الملابسات وجهت طلباً آخر إلى الحكومة الألمانية لقطع الصلة نهائياً بعبد المالك. كان الجواب كالعادة، أن الشريف كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لنا بالنظر إلى الحالة السياسية العامة. ولا يمكن لوم المسؤولين في الحكومة الألمانية على ذلك، فقد نُصحوا خطأً.

كان سلوك القائد عبد النور مختلفًا تمامًا عن سلوك الشريف. فقبل أن يشرع الفرنسيون في التقدم نحو شاشور كانوا قد دعوه هو ورجاله للقدوم إليهم. وقد طرد المبعوث الذي حمل إليه هذا العرض، وظل على ولائه لي. يبدو أن اثنين فقط من رجاله قد فروا إلى المعسكر الفرنسي، لكن بعد يوم أو يومين عادوا إليّ بمعنويات عالية، حاملين معهم بنادق وخيولاً فرنسية.

عند منبع نهر شوجا شيدت مخزنًا للمؤن ملأته بالعلف الذي اشتريته من منطقة عين الحمراء، وهي منطقة جبلية تحتوي على وادٍ بديع حيث كانت تجارة الشعير كبيرة والفاكهة الجيدة مزدهرة في بساتين واسعة.

وبالمثل على ضفاف نهر شوجا على بعد 5 كيلومترات من معسكرنا، أقمت مستشفى لرجالنا المصابين بجروح خطيرة، وقد جعلته تحت مسؤولية جندي اللفيف ويت.

سرعان ما ظهر عبد المالك مرة أخرى في معسكرنا. كان قد ترك قواته في بو هارون، حيث بقيت مع رجال قبيلة البرانس في حالة خمول تام.

في هذا الوقت تقريبا، انطلقت عملية ألمانية كان من الممكن أن تكون ذات أهمية كبرى بالنسبة لنا، لكنها للأسف فشلت بسبب قلة خبرة من شاركوا فيها. فبإيعاز من رفيقي الألماني "عبد الله" رست غواصة ألمانية قرب مدينة أكادير بسوس، حاملة معها إلى أحمد الهيبة الذخائر التي كانت منتظرة بفارغ الصبر. ولسوء الحظ فشلت هذه العملية السخية.

كان "عبد الله" قد تقدم في وقت مبكر من شهر مارس 1918 بطلب إلى عبد المالك من أجل ربط اتصال مباشر معنا. أخبره الشريف أنه يجب أن يأتي بنفسه أولاً. ففطن " عبد الله " لنوايا الشريف، الذي كان يود بالتأكيد أن يعتقله وهو في طريقه إلينا.

إن الخدمات القيّمة التي قدّمها رفيقي لأكثر من ثلاث سنوات تستحق الذكر بشكل خاص. ففي ظل ظروف بالغة الصعوبة بذل قصارى جهده في جميع الأوقات لخدمة ألمانيا ومساعدتي. مما يؤسف له أنه لم يكن موجوداً داخل المغرب عندما اندلعت الحرب، إذ كان من الممكن أن تسير الأمور في هذه الحالة بشكل مختلف تماماً.

كان شهر سبتمبر 1918 على الأبواب. اتخذ الفرنسيون استعداداتهم لتصفية حساباتهم معنا بشكل نهائي، حيث أعقب ذلك ثمانية أيام من القتال العنيف.

كنا قد أعددنا التحصين تدريجيا واتخذنا موقعا يمتد من منطقة البرانس عبر نهر مكناسة وأبعد من ذلك على مرتفعات أخرى إلى غاية المرتفعات الواقعة إلى الشمال الشرقي من سيدي بلقاسم. وقد خُصص لكل قبيلة قسم من الجبهة.

لسوء الحظ، لم يكن مجموع مخزوننا من الخراطيش يتجاوز 300 ألف خرطوشة، وهو ما يكفي لقوة قوامها ثلاثة آلاف. كان في مواجهتنا قوة فرنسية قيل إن عدد أفرادها يزيد على 30 ألف رجل، بالإضافة إلى حلفائهم من القبائل، مزودين بجميع المعدات الحربية الحديثة، وحوالي 60 مدفعاً، وعدداً لا يحصى من المدافع الرشاشة، بالإضافة إلى ست طائرات جيدة. علاوة على ذلك، جلبوا المدافع من مواقعهم المحصنة إلى ساحة القتال.

فشنوا هجومهم الأول على رجال قبائل البرانس وقوات الشريف التي كانت متراصة على ميمنتنا بنحو 900 بندقية. في اليوم الثاني احتدمت المعركة على طول الجبهة. لم ينزل الشريف مرة واحدة إلى أرض المعركة، بل ظل في معسكره.

كنت واقفاً على المرتفع أمام سوق الأحد في منطقة جزناية حيث تحصن الشيخ قرون ورجاله، ومن هذا الموقع كنت أراقب المعركة. تعرض جناحنا الأيمن لنيران العدو الكثيفة بشكل خاص، لكن خطنا صمد. وقد كلف العدو خمسة أيام من القتال العنيف قبل أن يتمكن من التقدم بفضل تفوقه العددي.

لاحظ رجالي الـ120 الذين كانوا متمركزين في شمال شاشور والذين نجحوا حتى تلك اللحظة في صد العدو، في صباح اليوم الخامس فارساً على حصان أبيض يهبط من مرتفعات شاشور يتبعه عدة مئات من الفرسان الفرنسيين. وسمح لهم رجالي بالتقدم حتى مجرى النهر القريب من جبهتهم، ثم فتحوا عليهم بمساندة رجال قبيلة أولاد حدو نيراناً مباغتة فانهالت الصليات على صفوف العدو الذي فرّ متكبداً خسائر فادحة باحثاً عن ملجأ وراء سفوح الجبل وصخوره.

كما أننا نحن الذين كنا أمام سوق الأحد لم نبقَ طويلاً دون مضايقة. كان أزيز المراوح يقترب أكثر فأكثر. وأومض الطيارون بمواقعنا إلى البطاريات الفرنسية فتساقطت قذائف العدو وسط صفوفنا. حل الليل أخيراً، وخفتت أصوات المعركة.

ازدادت ثقتي في نفسي، فقد تكبد الفرنسيون خسائر فادحة، وتفاقمت كل يوم مشكلة امداداتهم. كما تلقيت من بني وراين إخطاراً بأنهم كانوا بصدد الزحف بستة آلاف رجل، وبعد يومين سيهاجمون مؤخرة الفرنسيين.

استؤنفت المعركة في صباح اليوم التالي. وبدا أن الفرنسيين هذه المرة كانوا يندفعون بعزم وإصرار في اتجاه العثامنة. تعرض موقعنا أمام سوق الأحد لقصف مستمر. حلّق الطيارون حول جبلنا على ارتفاع منخفض جدًا. تقدم مشاة العدو إلى مسافة 300 متراً وتمركزوا على مسافة قريبة جداً من موقعنا. كان صفير الرصاص يشبه صفير ملايين العصافير المنبعث من حقل ذرة.

في الساعة السابعة اضطررت إلى إرسال الشيخ قرون الشجاع، الذي كان مصاباً بجروح بليغة في فخذه، إلى المعسكر برفقة أحد جنود اللفيف. بينما كنت أستودع هذا الرجل، التقيت بممثل عبد المالك، سي محمد، الذي كان قادما لتوه من المعسكر. سألته " كيف حال الشريف؟ " فأجابني: " أوه، عبد المالك بخير. إنه بخير في منزله في المعسكر".

فامتطيت صهوة حصاني عبر منطقة العثامنة، معرضاً نفسي لخطر الوقوع في قبضة القوات الفرنسية المتقدمة، ثم انعطفت وعدت إلى المعسكر، وهناك علمت مفزوعاً أن ممثل الشريف قد أخبر رجال عبد المالك والقبائل التي تقاتل إلى جانبه بأنني أنا والشريف قد هوجمنا في المعسكر.

كان من الواضح أن رجالنا لن يشعروا عند تلقي هذا الخبر بأي ميل كبير إلى مزيد من الصمود والمقاومة. كان عليَّ أن أتعقب هذه الخيانة الجديدة إلى مصدرها وأن أبطل مفعولها الكارثي. فذهبت في الحال إلى عبد المالك، وسرعان ما انفلتت الأمور من عقالها، إذ طلبت منه أن يرمي ممثله بالرصاص. فثارت ثائرة الشريف واستولى على بندقيته وخرج من المعسكر وهو يصيح في الناس الواقفين هناك بأنني خائن وأني

أدخلت الفرنسيين إلى البلاد. فأجاب الشريف على سؤال معاقبة ممثله بكلمة: " كلب! "، مما يدل على أنه كان على علم تام ببلاغ الخائن الكاذب.

لم يتم تجنب وقوع كارثة إلا بتدخل عبد النور. عندما حل الليل كان الفرنسيون قد تقدموا أكثر. ثم جاءت الأخبار الصادمة بأن قوات الشريف قد تراجعت. هكذا آتت خيانة عبد المالك الجديدة ثمارها. وأدركت أنه لم يعد من الممكن الآن الاحتفاظ بمعسكرنا في الكهف واتخذت الاستعدادات لنقله إلى شوجا التي أمرت بإرسال الجرحى إليها أيضا.

مع ذلك فقد عقدنا العزم على ألا يحصل الفرنسيون على معسكرنا دون مقاومة. في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي استقبلنا مرة أخرى طيران العدو، وكانت قذيفة تسقط بين الحين والآخر على معسكرنا. لحماية المعسكر، كنت قد حفرت خنادق على طول حافته الجنوبية منذ وقت طويل، وهناك استلقى رجالي محميين في مخابئهم الواقية من القذائف. بحلول الظهيرة كان الفرنسيون على مسافة أقل من 750 مترًا من المعسكر.

تسلق عبد القادر الصغير، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، من خندقه ليطل على العدو، فمزقته قذيفة إلى أشلاء.

أما القائد السرحوني الذي تميز بشجاعته المدهشة، فقد قاوم الفرنسيين ببسالة عندما حاولوا عبور النهر. عندما قام المشاة الفرنسيين بمحاولة حثيثة لعبور المجرى المائي اندفع في غضب إلى مسافة 300 متر أمامهم، ولوح بعمامته ودعاهم إلى التقدم نحونا. فأطلقوا عليه وابلًا من النيران فسقط القائد من على جواده مصابًا بجرح بليغ في رقبته. على الرغم من كثافة النيران، اندفع رفاقه الشجعان إلى الأمام وخلّصوا قائدهم ونقلوه مصابًا بجراح مميتة إلى المعسكر.

كان المعسكر طوال فترة ما بعد الظهر يتعرض لقصف شديد. جلست على مرتفع يقع إلى الشمال، على بعد كيلومتر، أراقب القصف بكآبة. وعندما لاحظت أن العدو يقترب من معسكرنا من جميع الجهات، أعطيت الأمر بالانسحاب إلى جندي اللفيف إيلغ الذي كان لا يزال صامداً على حدود المعسكر برشاشه. ثم تراجعنا إلى شوجا التي وصلنا إليها عند حلول الظلام. اكتفى الفرنسيون بالاستيلاء على المعسكر الذي كان رجالنا لا يزالون يحتلون المرتفع الشمالي منه لحماية شوجا.

أرسلت تقريراً إلى الحكومة الألمانية. كم شعرت بالامتعاض عندما دخل الشريف إلى خيمتي واستفسر ضاحكاً عن حالي. فتمالكت نفسي بل وشاركته وجبة الطعام، رغم أنني كنت أفضل أن أتركه على الفور. ومع ذلك فقد رتبت معه أن ننقل مخيمنا مرة أخرى إلى براد، كما كان الحال من قبل، لم يكن النوم وارداً. كان هناك قتلى يجب دفنهم وجرحى يجب تضميدهم ومقاومة جديدة يجب تنظيمها.

في صباح اليوم التالي، زارت طائرات العدو معسكرنا الجديد في شوجا وبدأت تلقي علينا القنابل كل يوم.

سرعان ما تحولت بساتين الزيتون المبهجة التي كنا نلجأ إليها إلى مشهد مؤسف.

شعر الشريف بتراجع تأثيره على القبائل أكثر فأكثر. مع فقدانهم الثقة فيه، تركه فرسانه الواحد تلو الآخر. الواقع أنه بلغ إلى مسامعه أنني أنوي أخيراً الانفصال عنه وأنني ذاهب إلى بني وراين، وقد سبق لي أن أرسلت سي سريحر، وهو رجل شجاع وحكيم، لجمع قوة مقاتلة.

سيتبين لنا أن الشريف أصبح فريسة قلق شديد، إذ تخلى عنه كثير من أتباعه وتم رفضه من شتى الجهات. كتب - يا لسخرية القدر - رسالة إلى الحكومة الألمانية يشير فيها إلى أنه لا يمكن فعل شيء آخر لصالح قضيتنا في منطقة جزناية وأنه يرى من المستحسن الآن نقل مسرح عملياتنا إلى منطقة غياثة وبني وراين. علاوة على ذلك، فقد أكد في رسالته أنني كنت قد مهدت الأرضية تماماً في تلك المنطقة.

بشرتني الحكومة الألمانية مرة أخرى باحتمال الحصول على دعم كبير لكي أواجه المستقبل بروح مفعمة بالأمل، خاصة وأنني تلقيت من منطقة بو ذنيب الأخبار المشجعة التي تفيد بأن تمرداً عاماً قد اندلع أيضاً في جنوب الأطلس ضد الفرنسيين، وقد تم الاستيلاء على عدة مراكز فرنسية. وبدا لي أن المستقبل يقربني من الهدف الذي كنت أرغب بشدة بتحقيقه.

كان عدد الفارين من الجيش الفرنسي - من صباحيين وجنود - قد بلغ الآن ألف رجل، وجميعهم مسلحون ببنادق قصيرة وبنادق آلية.

كنت أنتظر آنذاك وصول شحنة من المدافع الرشاشة الفرنسية من الجزائر، وعند وصولها كنت قد عزمت على التوغل نحو أراضي غياثة وبني وراين.

كانت نيران جديدة تلتهم الفرنسيين من الأطلس إلى الريف.

قمت بالاستعدادات الأخيرة لهذه المغامرة الجريئة بكل هدوء وبلا تردد.

الفصل الحادي والعشرون

أغادر البلاد بأمر من الحكومة الألمانية

ثم صدمتنا ضربة القدر الهائلة التي جعلت صرحي كله ينهار بانسحاب الجيش الألماني على الجبهة الغربية. كنت قد سمعت شائعات حول ذلك، ولكنني لم أكن لأصدق تلك الأنباء الرهيبة.

ألقى الطيارون الفرنسيون آلاف المنشورات التي تعلن هذه الحقيقة وسط رجالنا. وانتشرت الأخبار الرهيبة كالنار في الهشيم في البلاد من قبيلة إلى أخرى.

بضربة واحدة أصبح موقفي في غاية الخطورة - فقد كنت في قلب بلد أجنبي بلا مال، إذ لم تكن المساعدات التي وعدت بها من الجهات الألمانية قد وصلت بعد، وكان قلبي ينزف دماً على مصير وطني. كان لا بد من دفع المتأخرات على الأجور وإمدادات الخراطيش، وكنت لأكثر من أسبوعين أراوغ عدداً من التجار بوعود متواصلة. في تازا أقيمت احتفالات كبيرة، ومن المثير للاهتمام أن نشير الى أن الدعوات التي صاغها الجنرال ليوطي تضمنت العبارات التالية: " اليوم أستطيع أن أقول لكم إننا كنا نعتقد طوال العام أننا خسرنا المعركة. لم نتمكن بالطبع من الإفصاح عن هذا الخوف علانية. لقد نجونا بأعجوبة ".

حاولت في البداية أن أقنع الرجال بأن الفرنسيين كانوا يكذبون كالعادة، وأنني أتوقع وصول أخبار سارة من ألمانيا قريباً.

خمنت أنني سأضطر إلى مغادرة البلاد، ولكنني لم أشأ أن أفارقها دون أن أودع الفرنسيين عن قرب. في يوم 17 نوفمبر سنة 1918 امتطيت جواداً متوجهاً الى المعسكر الفرنسي مع ثلاثين فارساً. تركت حراسي ينتظرونني مختبئين، وأخذت معي أفضل جنود اللفيف إيلج وفيت وهوكه، ونجحنا نحن الأربعة في التوغل حتى خنادقنا القديمة فوق معسكر الكهف.

في الصباح الباكر رأينا العدو يتدرب ويتسكع في معسكرنا القديم. ناداهم ويت "صباح الخير"، وعندها استوليت على بندقيتي وأرسلت لهم بعض التحيات الرصاصية على سبيل التوديع. وبدا أن هذه الطلقات قد أثارت فزع المعسكر بأكمله. وسرعان ما وجهت البنادق والمدافع الرشاشة نحونا في جنون شامل، وكنا لا نزال نسمع طلقاتهم النارية الشرسة بعد أن ابتعدنا عن مدى أسلحتهم بوقت طويل.

وبسبب الرياح الشديدة كان الشريف قد نصب معسكره في براد بين الجبال، بينما مكثت أنا بخمس خيام فوق الطريق المكشوف على مسافة 650 متراً من معسكر عبد المالك.

حاول عبد المالك أن يغريني بالالتحاق بمعسكره، مدعياً أن وجودي وحدي خطر جداً بسبب الجواسيس الفرنسيين. فشكرته على عرضه، ولكني أفهمته أني لم أطلب حمايته من قبل، وأني الآن أتوكل على الله وعلى نفسي.

فارتاب الشريف وربما خشي أن أهرب منه فجأة. ثم تلقيت نبأ فرار القيصر المفزع. جاء عبد المالك إلى خيمتي ليستفسر عما إذا كانت هذه الأخبار صحيحة. فأجبته: (نعم هو كذلك أيها الشريف) فنظرت إليه باهتمام وجدية حتى خفض بصره نحو الأرض ولم يرد علي إلا بكلمة (غلطت) أي أخطأت، ثم عاد إلى معسكره.

في الأيام القليلة التالية أسقط الطيارون الفرنسيون المزيد من القنابل على معسكرنا، ولكن دون أن يلحقوا به ضرراً كبيراً.

كنت أفكر والشكوك والفزع يغمرني حول مصيري القادم، عندما تلقيت في العشرين من نوفمبر 1918 من الحكومة الألمانية الأمر التالي " أنسحب فورًا طبقًا لشروط الهدنة".

هكذا حدث ما كنت أخشاه منذ فترة طويلة. لقد ظللت ثلاثة أسابيع أترقب الأحداث بتوجس وخوف، متشبثاً بأمل أن يتم التوصل إلى سلام مقبول.

أما الآن فاندلاع الثورة في هذه الساعة الحالكة من مصير الشعب الألماني قد قضى على هذا الأمل. لقد صدر الأمر بالانسحاب. ماذا يجب أن أفعل؟ بدون مال، بدون ذخائر، وبالتالي بدون وسائل لمواصلة الحرب، ماذا يمكنني أن أفعل؟ إذا بقيت في البلاد أكثر من اللازم، ألن يؤدي ذلك إلى إغراق جميع القبائل الموالية لنا في الدمار بعد أن ضحوا بدمائهم وأموالهم من أجل قضيتنا، ألن تنزل عليهم يد فرنسا الحاقدة بشدة أكبر؟

لذلك قررت المغادرة.

كان أصعب ما في الأمر أن أبقي رحيلي سراً عن الشريف والقبائل. ولذلك كتبت إلى مخلصي المختار، وهو من أشجع قواد فرساني الذي جرح ست مرات، والذي كان يرابط مع فرساني الـ 130 في مواجهة العدو في شوجا، أن يتجهوا جميعاً إلى نقطة معينة أمام المعسكر الفرنسي. أمرته أن يترك جميع الخيام منصوبة وأن يبلغ القبائل بأنني عازم على القيام بجولة استطلاعية أمام العدو. غير أنني أمرت سرًا المختار وإبلغ بالركوب حتى نهر أوسيشت ثم العودة إلى عجيبة ديال القاضي حيث سأصل بنفسي في الساعة الحادية عشرة ليلاً.

لما جاء المساء وجدت صعوبة بالغة في الانصراف، إذ كان في معسكري عدد من الزعماء الذين كانوا ينوون قضاء الليلة برفقتي. وكان هناك أيضًا تاجر يهودي كنت قد أخبرته منذ ثلاثة أيام أنني لا أحتاج الى خدماته، لكنه الآن يتوسل إليّ أن أسمح له بالبقاء معي.

في الساعة العاشرة ليلاً كنت جالساً مع صهر الشريف، الحاج حمادة. ولمّا لم أجد وسيلة أخرى للتخلّص منه، بعثت معه برسالة عاجلة إلى صديقي صهره.

إن أدنى سوء ظن أو أي نوع من الغدر، أو حتى زيارة مسائية من عبد المالك كانت ستفسد كل استعداداتي، والله وحده يعلم ماذا كان سيحدث عندئذ. لعل الأمر كان من الأفضل أن يكون كذلك، فقد كنت حينها معسكرا وسط قبيلة بني وراين، وسط رجال كانوا مصممين على الدفاع عن بلدهم حتى آخر نفس.

كتبت إلى الحاج حمادة: "أنت تعلم يا صديقي العزيز مدى حبي لك ولعائلتك ولإخوانك. لا تستغرب أن كتبت إليك لأخبرك بأنني مضطر للرحيل هذا اليوم، لأن حكومتي قد استدعتني. إنني آسف جداً من أجلك ومن أجل جميع المسلمين، ولكنني آسف من أجلك أنت خاصة، لأنك أثبتّ ولاءك لي ولأنك فقدت أرضك وكل ما تملك. أنت تعلم من يجب علينا أن نشكره على كل هذا؛ والله سيحاسبه. سأغادر في غضون ساعات قليلة، وأرجو أن تظلوا تنعمون بالخير والبركة. أرجو أن تسلموا نيابة عني على الحاج برقيش، وسيدي قويهر، وسيدي سريحر، وسيدي أحمد بركان، و(القاضي ?) عبد الكريم وجميع القبائل، وأن تشكروهم نيابة عني. أخبرهم بمقدار عرفاني بالجميل لهم جميعًا، والله المستعان. كان الله معك, سي هيرمان".

في تمام الساعة العاشرة ليلًا غادرت خيمتي وتركت المدفع الرشاش في مكانه، بل وتركت النور مضاءً في خيمتي. ثم سرت في عدْوٍ متواصلٍ فوق الجبال، متجاوزاً سوق الإثنين إلى عجيبة ديال القاضي التي تقع على الحدود بين الأراضي الموعودة للإسبان والفرنسيين على التوالي، رغم أنهم لم يحتلوها بعد.

هناك وجدت فرساني ال 130 مجتمعين. تبادلنا التحية بإيجاز. ثم سرنا خلال الليل بخطى حثيثة عبر بلاد بني توزين. وفي الساعة السادسة صباحاً كنا على مرأى من المواقع الإسبانية المحصنة.

بما أننا كنا مرة أخرى في منطقة خطرة، أمرت فرساني بالانتشار، ثم استأنفنا سيرنا عبر العبابدة وبني اهنشيك (وليشك؟). وقبل الساعة العاشرة صباحاً بقليل وصلت إلى منزل صديقي الحاج أعمار. أمامنا على بعد أقل من خمس كيلومترات كانت تنتصب أول نقطة إسبانية محصنة في بوسعادة. أول من استقبلني كان القائد عبد النور، الذي كان قد عاد إلى أسرته التي تعيش تحت حماية الحاج أعمار. ثم جاء القائد الوقور نفسه، الذي كان لا يزال يتمتع بكامل قوته وأدخلني إلى منزله، حيث أُعدت لنا وجبة طعام في الحال. كما اهتم أيضًا بإقامة فرساني وتقديم المرطبات لهم.

أخبرت الشيخ بأنني أريد في الليلة القادمة أن أعبر إلى مليلية مع جنود اللفيف، بينما يظل جميع مرافقي معه في منطقة مطالسة. لم يضيع عبد النور وقتاً لتعريفي بأسرته ودعوتي أيضاً إلى وجبة طعام في بيته. وبينما كنا نتناول الطعام، ظهر ابن الحاج حمادة الذي كنت قد كتبت إليه للتو رسالة الوداع، وتبعه الشيخ عبد السلام وزعماء آخرون من قبيلة جزناية الذين كانوا قد انطلقوا يسعون للحاق بي

كان يأس هؤلاء الرجال وقلقهم، والذين لم يتمكنوا من قبول فراري، قد أدمى قلبي.

تجمع أمام البيت عدة مئات من رجال مختلف القبائل. دخل عليَّ القائد أعمار ليخبرني أن عليَّ أن أرحل في الحال، لأن الأمور أصبحت خطيرة. فقد أصبحت القبائل معادية لي، ولا يمكن تفادي وقوع مجزرة ما لم أرحل في الحال.

كان هذا الأمر يضع على عاتقي مسؤولية ثقيلة جدا، إذ أن رجالي بعد رحيلي كانوا سيواجهون حتما خطر القتل أو على الأقل سلبهم كل ما يملكون. لم أستطع أن أتركهم بمفردهم. كان يتوافد الآن المزيد والمزيد من الأهالي تحسباً للمناظرة القادمة بين القبائل. كان من الضروري أن أتصرف على الفور واتخذت قرارًا حاسماً.

أرسلت فارسين برسالة إلى النقطة الإسبانية المحصنة، وكتبت إلى قائدها بالعربية حتى يتسنى للرجال قراءة جوابه: " بعد أن علمت أن الحرب قد انتهت جئت مع نحو مائة فارس إلى منزل الحاج أعمار. إن فرساني الذين لا تخفى عليكم مشاعرهم الحقيقية والذين أستطيع أن أشهد عليهم بكل أمانة يرغبون أن يلتحقوا بالشرطة الأهلية الإسبانية، وذلك للحيلولة دون وقوع خيولهم وبنادقهم في أيدي القبائل التي تناصبهم العداء. إذا تمكن هؤلاء الرجال من العبور إلى الأراضي الإسبانية دون مضايقات واستطعت أنت أن تتولى مسؤولية سلامتهم، فسوف ألتحق بك مع رجالي فوراً. خلاف ذلك، يجب أن نبقى في المنطقة المحايدة.

سي هيرمان

في غضون ساعة واحدة تلقيت جواباً مكتوباً من القائد بأننا أحرار في العبور إليه، وأن رجالي الذين لا ينبغي أن أخشى شيئاً عليهم سيكونون موضع ترحيب عنده.

سرنا محاطين بآلاف من رجال القبائل المسلحين في وضع حرج نحو الموقع الإسباني الحصين. كنت قلقاً جداً على رجالي المخلصين، وقبل أن نعبر الحدود أردت أن أحصل على كلمة شرف من القائد فيما يتعلق بسلامة فرساني.

كنا قد اقتربنا إلى مسافة 200 متر من الموقع المحصن عندما لاحظت من خلال نظارتي الميدانية أن المدافع والجنود خلف أسوار الحصن كانوا على أهبة الاستعداد لإطلاق النار. فأمرت بالتوقف فوراً ومنعت أبناء المنطقة وكذلك رجالي من التقدم، بينما اقتربت أنا برفقة عبد النور والحاج أعمار وتسعة فرسان وستة من جنود اللفيف الأجنبي من النقطة المحصنة.

كان النقيب فرنانديز مع عدد من الضباط واقفًا على بعد حوالي 30 مترًا، ورحب بي. وبينما كنت أتحدث معه وقعت طلقة نارية خلفي فجأة. سألني النقيب " ماذا حدث ؟ " فأجبته: "لا شيء؛ لا شك أن الرجال يتقاتلون كما يفعلون عادة عندما لا يكون هناك من يراقبهم".

ثم أُطلقت طلقة ثانية، مما جعل الضباط ينسحبون مسرعين ويحتمون خلف أحد التلال.

في هذه اللحظة فتح القائد دي خوليس النار. كان أفراد اللفيف قد وصلوا إلى مكان آمن، لكن جميع رفاقي الآخرين سقطوا قتلى على الأرض. ركضت مع الحاج أعمار إلى ملجأ خلف حائط متداعٍ يقع أمام الموقع. ركض القائد عائدًا تحت نيران كثيفة وقفز على حصانه وانطلق مبتعدًا، بينما بقيت أنا مستلقيًا تحت الجدار.

ثم جاء شجاع بني يزناسن المختار راكضاً أمامي، ونادى عليَّ أن أقفز خلفه على جواده! وهذا ما فعلته!

فتح الإسبان الذين اعتبرونا أعداءً النار علينا مرة أخرى؛ وظل الرصاص يصفر فوق رأسي. على الرغم من الثقل المضاعف، انطلق الحصان كالريح، مستشعرًا الخطر بشكل غريزي. جلستُ على ردف الحصان، وانحنيت إلى الأمام، محدقا في وجه المختار الحانق.

التففنا التفافًا واسعًا حول الموقع المحصن، وكنا قد عبرنا الحدود للتو عندما اخترقت رصاصة عباءتي لتستقر في العمود الفقري للجواد. انتفض الحيوان الشجاع ثم سقط صريعاً على الأرض ودفننا تحته.

حررت نفسي ونهضت ونجحت في النهاية عن طريق الصراخ والإشارات في وضع حد لهذا الرشق .المجنون. وشكرت البطل المختار الذي كثيراً ما أنقذني في ميدان القتال

.ثم مضيت إلى الموقع، وزال سوء التفاهم، وتمكن الرجال الذين تركتهم خلفي من عبور الحدود

تعلل القائد في إطلاق النار بأنه اعتقد أنني من الأهالي بزيي المحلي، وأن الطلقات التي أُطلقت فُهمت على أنها إشارة للهجوم. كان ذلك يوم 22 نوفمبر 1918. أصبح الإسبان الآن قلقين جداً على رجالي الجرحى. .استقبلني القائد سيكي بحرارة. تم تسليم أسلحتنا، بما في ذلك بنادقي الخاصة

كان قد تم إحضار الخيالة من معسكر سيدي عيسى الإسباني، وتحت حمايتهم تم نقلنا إلى ذلك المكان. هناك كنت أذرع المعسكر جيئة وذهاباً وأنا قلق على مصير رفاقي المحليين. وجاءني مخلصي عبد النور، وتحدثنا بنبرة كئيبة حول ما يحتمل أن يحدث. حاولت تهدئة مخاوفه بإخباره بأنني أعول دائماً على كلمة الشرف .الإسبانية

وفي المساء تناولت العشاء مع القائد الإسباني سيكوي والقبطان فرنانديز. وكان القائد دبلوماسياً مضيافاً وودوداً إلى أبعد الحدود، وكذلك القبطان، لكنه كان يصف جميع المغاربة بأنهم "سياسيون". في ذلك الوقت، .كان الإسبان ينظرون إلى السكان المحليين نظرة دونية للغاية. فلم يكن يُنظر إليهم على أنهم كاملو الأهلية

الفصل الثاني والعشرون

في قلعة إسبانية

في صباح اليوم التالي نُقل رجالي إلى مليلية في شاحنات، بينما كنت أنا مع القائد سيكي في سيارته الخاصة. بعد رحلة طويلة وغير مريحة، عدت مرة أخرى إلى الجلوس في وسيلة نقل مريحة، وشعرت بنشوة عارمة عند رؤية أول امرأة أوروبية، رغم أنها كانت امرأة إسبانية عجوز. لكن أفكاري ظلت تعود دائماً إلى نفس النقطة: " ماذا سيحدث لرجالي؟ "

للأسف لم يكن القائد الإسباني، الجنرال آيزبورو، في مليلية، إذ كان في تطوان. وكان الضابط الذي استقبلني في مليلية أقل وداً. حاول الشيخ بو شريف، الذي رافقنا في رحلتنا، أن يواسيني حول وضعنا في قاعة الانتظار، ولكني احترت كيف أجيبه، فحاولت أن أطمئنه على مصيرنا.

بينما كنا نتحدث، ظهر ممثل عن القائد وأخبرني أنه ليس هناك أي اعتراض على طلبي بالسماح لي بالإقامة في فندق. وانصرف الشيخ. ثم أُبلغت أن سيارة نقل تنتظرني لتقلني إلى الفندق. قد أثار هذا الاهتمام إعجابي رغم أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في الأمر بشيء من الريبة.

عندما صعدت إلى السيارة المغلقة دخل السيارة من الجانبين رجلان مسلحان - وأظنهما من الضباط الشباب - وأبلغاني بأنني سأُنقل إلى القلعة. لم يستطع أحد أن يخدعني داخل المغرب، أما هنا فقد حصل ذلك. نحن الألمان كنا ولا نزال مثاليين ساذجين.

بعد رحلة استغرقت نصف ساعة وصلنا إلى قلعة كابريزاس ألتاس (المعازيز العليا). كان القائد مارتن وزوجته حريصين للغاية على أن تكون إقامتي مريحة قدر الإمكان. خصصت لي غرفتان مفروشتان بشكل جيد، وزودوني بالطعام الساخن والنبيذ وكل ما من شأنه أن يجعل حياتي سعيدة ومريحة.

كان في القلعة أيضاً جنود اللفيف الأجنبي الفرنسي الذين كنت قد أرسلتهم إلى الساحل بسبب جنح مختلفة. خفتت أصواتهم الصاخبة عندما سمعوا بقدومي. كان في هذا الحصن أيضاً ضابط أسباني شاب اعتقل بسبب ارتكابه بعض المخالفات ألزمته هذه الراحة الإجبارية في الحصن، وكان رفيقي في المحنة، ولكنه كان مرحاً وهادئاً طالما كان معي.

في صباح اليوم التالي تم إيصال جميع فرساني الشجعان إلى القلعة. كم كانوا مسرورين برؤيتي**!** لقد سعيت ظاهرياً أن أحتفظ بوجه بشوش وأبادلهم الدعابة الطيبة، رغم أن قلبي كان ينزف داخليا عندما أتأملهم. بعد مفاوضات مع القائد، سُمح لهم أيضًا بالتحرك بحرية داخل القلعة. تم إنشاء مقصف حيث يمكنهم شراء السكر والخبز واللحم والشاي والفاكهة.

كنت أتلقى زيارات متكررة من الضباط الإسبان. حتى أن بعضهم أقاموا على شرفي ما يشبه مأدبة. علمت من السكان المحليين أن رجال القبائل سلبوا الشريف عبد المالك كل ما كان يملكه تقريباً بعد رحيلي. إنني لا أحمل حقداً لأحد، ولكن يجب أن أعترف بأنني تلقيت هذا الخبر بشيء من الارتياح. وحتى يومنا هذا ينتابني

شعور بالامتعاض عندما أفكر كيف كنت مرتبطاً بهذا الخائن طوال هذه السنوات. وقد قتل بعد ذلك في معركة خاضها ضد محمد بن عبد الكريم الخطابي في صفوف القوات الاسبانية.

ساد توتر شديد في أحد الأيام التالية. كانت خيولنا تُقاد إلى أعلى وأسفل أمام القلعة. كان السكان المحليون يركضون إلى الكوى ويحدقون في دوابهم. كانوا يعتقدون أنه سيُسمح لهم قريبًا بامتطاء خيولهم والعودة إلى عائلاتهم أو أصدقائهم بعد أن أصبحوا تحت حماية إسبانيا. ثم جاءني عبد النور، وهو غاضب جداً، ليخبرني أن ضابطاً إسبانياً قد أسر إليه أن الرجال سيسلمون إلى فرنسا. لقد شعرت بالذهول، ولكن تبين لي فيما بعد أن إحساسي كان صحيحاً جداً.

أخبرته أن علينا أن نحاول في الحال الاتصال هاتفياً بالجنرال في مليلية. وقد تمكنا من القيام بذلك بمساعدة القائد. عندما أبلغت الجنرال بهذه الإشاعة، قيل لي في الحال إن التسليم غير وارد على الإطلاق، ولذلك كان بإمكاننا أن نبقى مطمئنين تماماً في هذا الشأن. حتى هذا اليوم لم يساورني أي شك في صدق اعتقاد هذا الضابط. دعوت عبد النور إلى الهاتف الذي استخدمه لأول مرة في حياته. وبصوت يرتجف من شدة الحماس، استفسر عما إذا كان بإمكانه أن يثق بإسبانيا. وقفت إلى جانبه، وسعدت عندما سمعت صديقي القديم يهتف بعد أن تلقى الجواب: " الحمد لله، لقد نجونا. برافو إسبانيا "

كما أنني كنت قد اتخذت قراري بأن الاستسلام غير وارد. وسادت فرحة لا توصف بين رجالي شاركتهم فيها أيضاً. لكي أطمئن بشكل مضاعف، كتبت إلى السفير الألماني في مدريد، راجياً منه أن يخبرني بصراحة تامة بالحقيقة في هذا الشأن. وكان الجواب : " عزيزي السيد بارتلز يمكنك أن تكون مطمئناً تماماً بشأن رجالك. لدينا معلومات دقيقة. الرجال لن يسلموا أبداً".

عندما نقلت هذه الرسالة إلى رجالي تجددت البهجة في نفوسهم. صرخوا: "إننا نفضل البقاء عشرين سنة في حصن إسباني على أن نستسلم لفرنسا. بارك الله في الإسبان! "بدا لي أن شبح الاستسلام المرعب قد تبدد.

بالتأكيد لم أكن أشك في أن السفارة قد أُبلغت بشكل خاطئ. ولولا ذلك ما كنت لأدخر جهداً في سبيل تأمين الحرية لرجالي وهو ما كنت أستطيع تحقيقه في ذلك الوقت. لم أتقدم بشكوى ضد السفارة، لأن كل ممثل لألمانيا في الخارج كان عاجزاً بعد الثورة.

كنت قد ناقشت مع عبد النور إمكانية نسف القلعة في حالة التسليم، فقد قلت له: "إذا كنت تنوي الموت فسأموت معك". كانت هناك ذخيرة كبيرة مخزنة في الحصن، بحيث كان من الممكن أن يكون تنفيذ خطتنا أمراً قابلاً للتحقق. كان بوسع العالم حينها أن يرى كيف يموت الأبطال.

لكن اتضح عكس ذلك. ففي أحد الأيام أُحضر إلى القلعة حوالي مائة أسير كان لا بد من مراقبتهم عن كثب. وكنا نسمع طوال الليل صرخات الحراس. لم يسمح لأي رجل بمغادرة غرفته من الغروب إلى الصباح. لكننا كنا غير مكترثين بهذا الأمر؛ فقد كنا مبتهجين وسعداء لأن تحريرنا، كما بدا لنا آنذاك، كان مسألة وقت فقط.

في الأول من يناير سنة 1919، جاءت سيارة نقل، كان هدفها أن تأخذني مع ستة من جنود اللفيف. لا أستطيع وصف الألم الذي شعرت به عندما حانت ساعة فراقي عن رجالي. فألقى خادمي بنفسه عند قدمي

واحتضن ركبتي وتوسل إليّ أن آخذه معي. وقف صديقي عبد النور أمامي والدموع في عينيه، وأمسك بيدي ولم يتركها، ووقف الرجال الآخرون حولي كالأطفال، ومدوا أيديهم إليّ وتوسلوا إليّ ألا أتركهم.

بالكاد استطعت أن أنطق بكلمة وداع، ولم أستطع إلا أن أعدهم بأنني سأستمر في بذل كل ما في وسعي من أجلهم. لم أكن أشك في أنني سأعتبر متمرداً بلا حقوق. تحية أخيرة لرجالي الشجعان - وانطلقت العربة.

كان الظلام والأسوار العالية للقلعة يخفي الآن كل ما كان يربطني برفاق كفاحي هؤلاء من شجاعة وتضحية بالنفس.

في ميناء مليلية وُضعت على متن سفينة. ودعني القائد سيكوي شخصيًّا، ثم أبحرنا إلى مالقة

تحت إشراف ضابط وأربعة من رجال الحرس المدني. لقد كان فراقاً كئيباً عن المغرب، البلد الذي وطئت أرضه ذات يوم وأنا أحمل الكثير من الآمال.

حاول الضابط الإسباني تبديد أفكاري الكئيبة. تم إيواء جنود اللفيف في الجزء السفلي، ولم يُسمح لهم بالصعود إليّ على سطح السفينة.

وصلنا إلى مالقة في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

الفصل الثالث والعشرون

من إسبانيا إلى الوطن

عبرنا مرة أخرى شوارع المدينة كسجناء. وكان رجال الحرس المدني إلى جانبنا والضابط الإسباني وأنا على رأس موكبنا الصغير، وتوجهنا إلى مبنى حكومي. عند ورود نبأ وصولنا جاء القنصل الألماني وحصل دون أي صعوبة على إخلاء سبيلنا والإذن لنا بالإقامة في أحد الفنادق. هذه كانت الشهامة الإسبانية. تذكرت بشكل لا إرادي الإهانات والمعاملة السيئة التي تعرضنا لها أثناء عبورنا شوارع وهران.

بعد ثمانية أيام تلقيت تعليمات من الحكومة الإسبانية بالتوجه إلى ألكالا دي هيناريس (قلعة النهر)، مروراً بمدريد، حيث سمح لي بالسلام على أخي وزوجته. وهنا أُخذت في البداية إلى دوق تطوان، الذي قال لي: "لقد سمعت أنك خدعت الفرنسيين ببعض الحيل القذرة. هل هذا صحيح؟ " فأجبته بتواضع : " لقد كنت وديعاً مثل الحملان ". فأجابني: " إنها الحرب. أنا أعلم أن سي هيرمان قاتل من أجل وطنه. إذا وعدتني بأن تستشيرني أولاً قبل أن تذهب إلى أفريقيا مرة أخرى، يمكنك أن تذهب إلى حيث تشاء في ألكالا".

فشكرته بحرارة وذهبت إلى قائد معسكر الاعتقال الألماني، الذي أمرني أن أمتثل لنداء الحضور كل صباح. بصفتي نقيبًا أمازيغيًا عجوزًا، لم أكن أتصور أبدًا أن أضطر إلى القيام بذلك، لكنني لم أقل شيئًا، فقد كان ذلك مسلياً حقاً. لقد ساد هنا النظام الألماني. بعد بضعة أيام تم اكتشاف الخطأ، واعتذر قائد المعسكر شخصيًا عن الإهانة.

ثم وقعت عليَّ ضربة سأعاني من آثارها طوال حياتي. كان الخبر هو أن الوزير الأسباني رومانونيس قد سلم إلى فرنسا 66 من فرساني الذين كانوا معتقلين في قلعة كابريريزاس ألتاس، وذلك نتيجة لضغوط الحكومة الفرنسية، في تحد لجميع التأكيدات الخطية والشفهية!

سبق لي أن وجهت رسالة إلى الوزارة الإسبانية وضعت فيها نفسي تحت تصرف الفرنسيين وتعهدت فيها أن أبقى ثلاثين سنة في حصن أو أن أقتل رمياً بالرصاص، إذا سمح في المقابل بإطلاق سراح الأبرياء.

ذهب القائد سيكوي الذي كان قد أجاز في ذلك الحين عبور رجالي إلى الأراضي الإسبانية، إلى باريس بنفسه ليقدم إلى وزارة الحرب الفرنسية عروضاً في هذا الشأن. كان بإمكانه أن يعفي نفسه من هذا العناء، إذ لم يكن من المجدي منذ البداية أن يتوقع أي تنازلات من الشهامة الفرنسية. أما بالنسبة لمصير رجالي الشجعان، فقد علمت أنهم بعد تعذيبهم عذاباً لا إنسانيّاً سيقوا عبر البلاد مكبلين بالسلاسل، وأن بعضهم قد قتل بالرصاص. إن الجنرال الفرنسي ليوطي الذي كان قد أطلق النار على موظف بريد شاب وعدة ألمان آخرين عند اندلاع الحرب، لا لشيء إلا لأنهم ألمان، قد مارس هذه الوحشية من جديد على ضحايا عزل. أنا أحاكمه أمام العالم كله: " أيها المارشال ليوطي. كل ما يحدث سينتقم له. أفعالك أيضاً سينتقم لها. الزمن يمهل و لا يهمل! "

عندما تلقيت هذا النبأ الرهيب كدت أنتحر، وكنت سأفعل ذلك حقاً، لو أن الذكريات التي أردت أن أتركها خلفي كانت جاهزة.

كما أن نبأ تسليم رجالي ومصيرهم لم يبق دون تأثير داخل المغرب. هكذا تخلى عنهم الشيخ بو رحاير الذي كان قد انحاز بناء على نصيحتي إلى الإسبان عند تلقي هذا الخبر، وعاد إلى قتالهم. كما قتل صهره بل سيرغا الذي لقي في النهاية المصير الذي يستحقه تماماً.

عندما ذهبت ذات يوم إلى مدريد في زيارة لأخي، استدعيت إلى ألكالا ببرقية، لأن إشاعة راجت بأنني عدت إلى إفريقية مرة أخرى، وأن لقاءات كبيرة عقدت هناك بين القبائل بسببي.

كنت أتمتع آنذاك بقدر كبير من الحرية. خصصت لي عائلة إسبانية منزلاً رائعاً يقع في حديقة كبيرة كمقر إقامة لنا نحن الألمان المحتجزين، الذين كان من بينهم عدد من قادة الغواصات. ولسوء الحظ، سرعان ما اضطر هؤلاء لمغادرتنا بعد فترة وجيزة، حيث تلقوا أوامر بالتوجه إلى قرطاجنة وفيرول حيث كان مطلوباً منهم إصلاح الغواصات التي كان من المفترض أن تسلم إلى الحكومة الإسبانية.

عندما أصبحت المراكب جاهزة، اتضح أنه في غضون يومين كان من المقرر نقلها إلى بريست بواسطة قاطرات بحرية فرنسية. وبالتالي فإن فكرة تسليم هذه الغواصات إلى إسبانيا لم تكن سوى ذريعة لحث ضباطنا على القيام بأعمال الإصلاح. أما في الواقع فقد كانوا يعملون لصالح فرنسا، وهو ما لم يكن بأي حال من الأحوال ليروق لهم.

بناء على ذلك اقترحوا أن يسمح لهم بالقيام برحلة تجريبية، وقد تمت الموافقة على ذلك. بحضور العديد من الإنجليز والفرنسيين وحشد كبير من المتفرجين، انطلقوا في عرض البحر. ثم حدث شيء غير متوقع :

فُتحت البوابات؛ وأخرجت قوارب النجاة، ثم انزلقت الغواصات نحو مملكة نبتون. كان غضب الفرنسيين عظيماً. ضحك الإنجليز، وكانت وجوه المتفرجين المحبطة تبعث على السرور.

أرسل قباطنة الغواصات في النهاية إلى ألمانيا، ولم يبق سوى القبطان كيسويتر الذي أُخذ من باخرة إسبانية في دوفر وأودع سجن برج لندن. غير أن الضباط الإسبان احتجوا على ذلك، ورفع الاحتجاج إلى لندن، فأرسل الإنجليز قائد الغواصة إلى ألمانيا. !تحيا إسبانيا

وقعت حادثتان زادتا من الكآبة التي كانت تلقي بظلالها على معنوياتي.

فقد هوجمت في أحد الأيام في وضح النهار من قبل أربعة من جنود اللفيف الأجنبي الذين هربوا من معسكر الاعتقال في غرناطة. تمكنت من الدفاع عن نفسي، لأجدهم أثناء غيابي قد نهبوا منزلي وسرقوا العديد من الأشياء ذات القيمة العاطفية.

أما الحدث الثاني فكان الموت المفاجئ لكونتيسة إسبانية شابة، كنت قد قضيت في كنف أسرتها ساعات طويلة من الاسترخاء والاستجمام، وكانت تعرف كيف تبدد همومي المقلقة بأساليبها اللطيفة.

لقد أخرجتني من كآبتي جهود صديقي العزيز مؤرخ الفن الدكتور كونيل. لقد كان الصديق الوحيد الذي استطاع أن يتفهم حالتي الذهنية حقًا. أعلم أنه كان ناقداً وسيقول "ما أسهل أن أكتب عن كل هذه التجارب"،

لكنه سيعترف أيضاً أن هذه الذكريات لا تعكس إلا إلى جزءا بسيطا من كل الصعوبات والهموم التي لا تنتهي والمكائد والدسائس والتحذلق الذي كان يحيط بي.

في صحبته سافرت عبر إسبانيا إلى طليطلة وغرناطة وقرطبة. وشرح لي جميع آثار الفن المغربي والإسباني التي كتب عنها ببراعة في كتبه المعروفة.

قادني طريقي أيضاً إلى الجزيرة الخضراء. جلست على رصيف الميناء وحدقت في جبل طارق وساحل المغرب الممتد أمامي. ثم أقبل زورق ونزل منه ريفيون تعرفوا علي وتجاذبوا معي أطراف الحديث. كان من السهل عليّ أن أبحر إلى إفريقية مع هؤلاء الرجال، وما امتنعت عن ذلك إلا لأني كنت قد أعطيت كلمتي لإسبانيا. لو كنت فعلت ذلك ، ربما كنت سأكون سعيداً. ولربما كان بإمكاني أيضاً أن أتمكن من التأثير في الوضع الخطير جداً الذي نشأ بعد ذلك، مقابل كرم الضيافة الإسبانية.

سمعت خلال شهر يناير 1920 أن فرنسا كانت تصر على تسليمي. لم أصدق هذه الإشاعة التي يجب أن أحمل مسؤوليتها السادة الذين نقلوا لي هذا الخبر.

في شهر مايو، حين كنت قادراً على التوجه مع الدكتور فونسجن إلى الجبال، استدعيت إلى السفارة الألمانية، حيث أراني السيد فون هوش قصاصة من صحيفة فرنسية تتعلق بي، ورجاني أن أغادر البلاد وأعود إلى ألمانيا لمصلحة الحكومتين الألمانية والإسبانية.

اضطررت إلى الامتثال لهذه الرغبة، بقدر ما كنت أتأسف على أنها حطمت إلى الأبد الخطط التي كنت أفكر فيها باستمرار من أجل استعادة جهوزيتي للعمل في المغرب.

توجهت إلى ألمانيا عن طريق برشلونة وإيطاليا، ووصلت إلى هامبورغ في يوليو 1920.

هكذا عدت مرة أخرى إلى مدينتي القديمة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أطأ فيها أرصفتها منذ سنوات عديدة. يا لها من حيل تلاعب بها القدر بحياتي طوال هذه السنوات! وكانت النهاية هي انهيار كل ما كنت أحلم به وما كنت أتوق إليه عندما توجهت إلى المغرب؛ فتحول عملي في المغرب إلى كومة من الأنقاض، وتحطمت سعادة عائلتي، وسقط الوطن إلى الحضيض، وتقطع قلبي.

في هذه الحالة من العوز الخارجي واليأس الداخلي، لا بد لي أن أعتبره تدبيراً خاصاً من السماء أن قادني حظي، أنا الهارب المشرد، إلى عائلة تاجر هامبورغ والستاب حيث وجدت الإيمان الألماني والوفاء الألماني والقوة الألمانية.

هكذا تعافيت تدريجياً روحاً وجسداً. وتعلمت مرة أخرى أن أستعيد الأمل في مستقبل بلادنا، وأن أؤمن بأنها ستخرج في النهاية من مستنقع اليأس الحالي.

واتجهت أفكاري لا إراديًا نحو أفريقيا، وآمل أن تكون تجاربي التي سردتها في هذا الكتاب مصدر إلهام للشباب الألماني.

ذات مرة أطلقت النار على نسر وأصبت جناحيه. لم يكن هناك أي أمل في شفائه، ولكنني أخذته ورعيته. على الرغم من أن المغاربة أشاروا إليه وقالوا " إن هذا النسر الألماني لن يطير مرة أخرى"، لكني ثابرت .على علاجه، وتعلقت بالأمل في أن يستعيد قوة كافية ليطير مرة أخرى

عندما ذهبنا إليه ذات صباح، كما كانت عادتنا، مدّ جناحيه فجأة، وببضع خفقات قوية ارتفع مباشرة في .الهواء

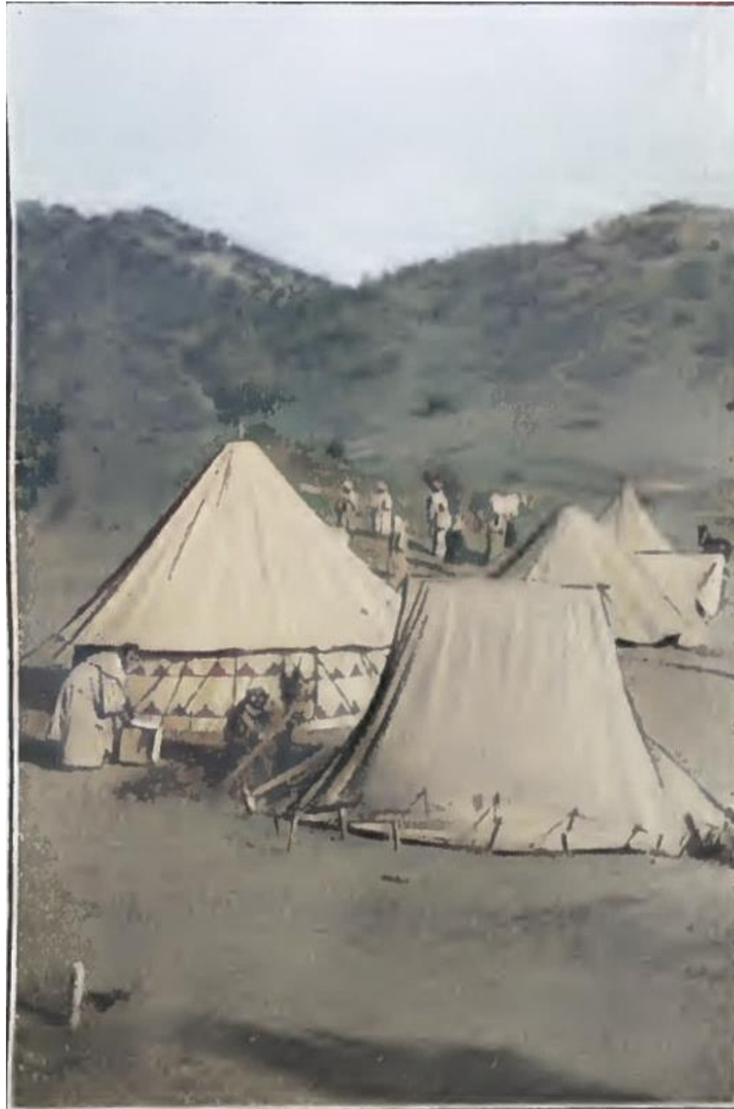
فوقف الجميع يحدق فيه بإعجاب، وصاح أحد المغاربة الذين كانوا واقفين بالجوار بصوت مرتفع : " ".انظروا، النسر الألماني يطير مجدداً

.هكذا قد يجد النسر الألماني، الذي يرقد الآن منبطحاً بجناح مشلول، القوة مرة أخرى ليحلق في السماء







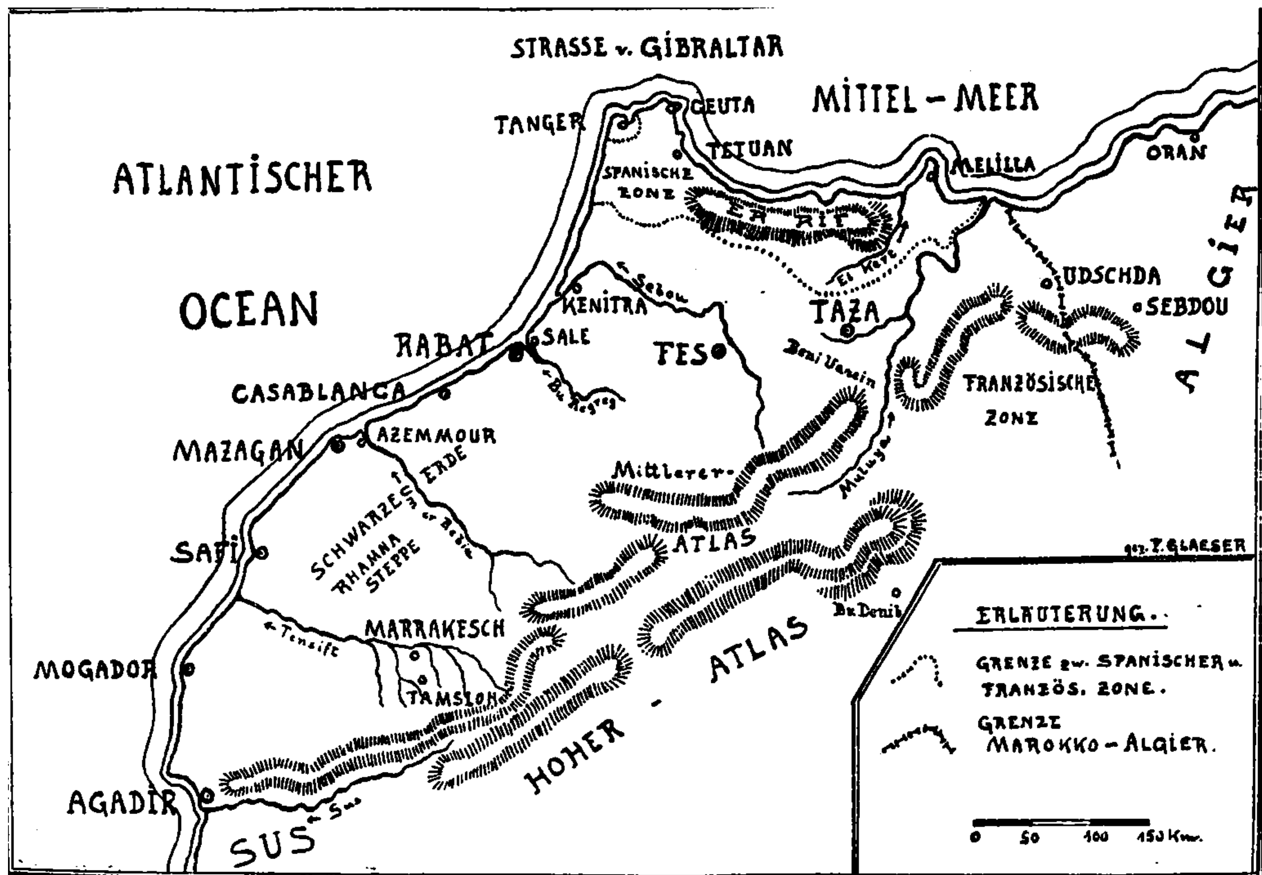


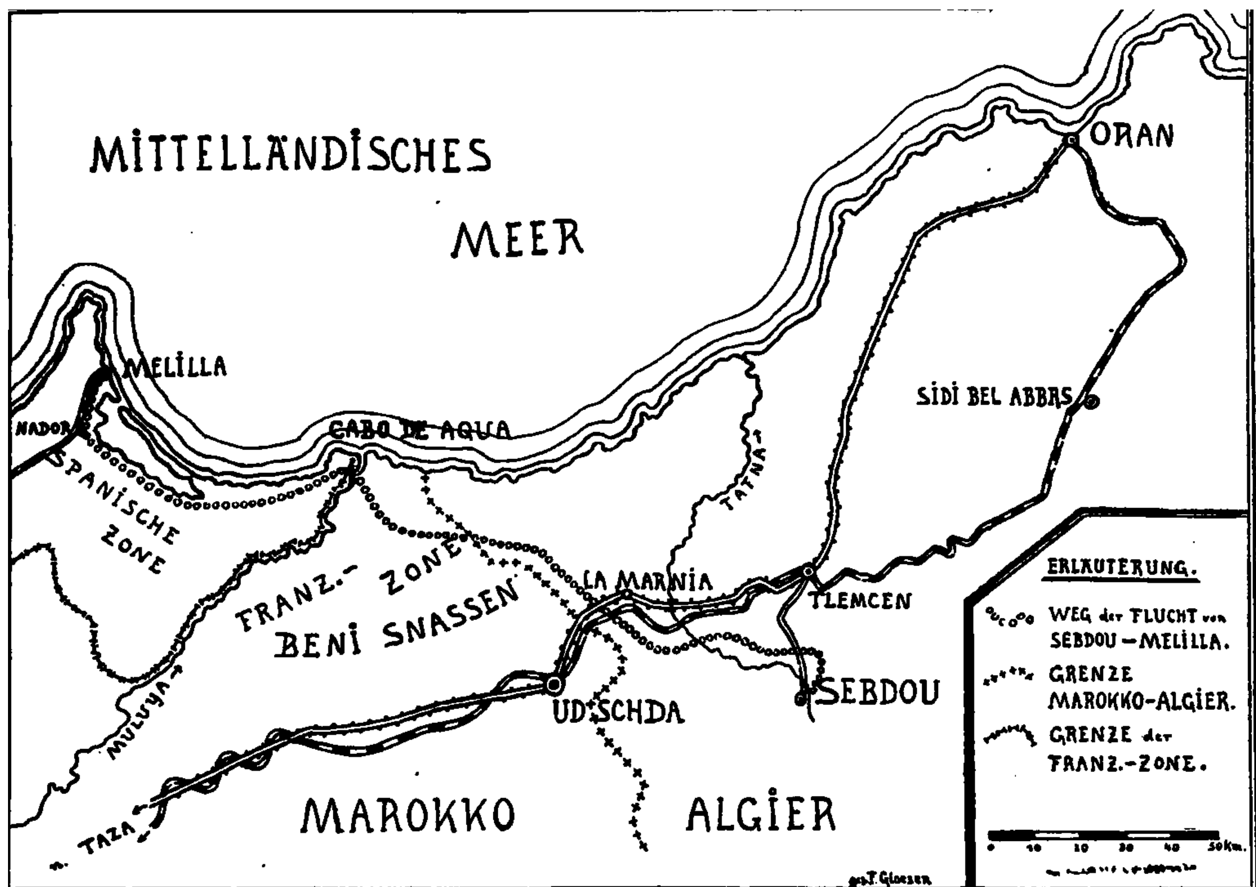


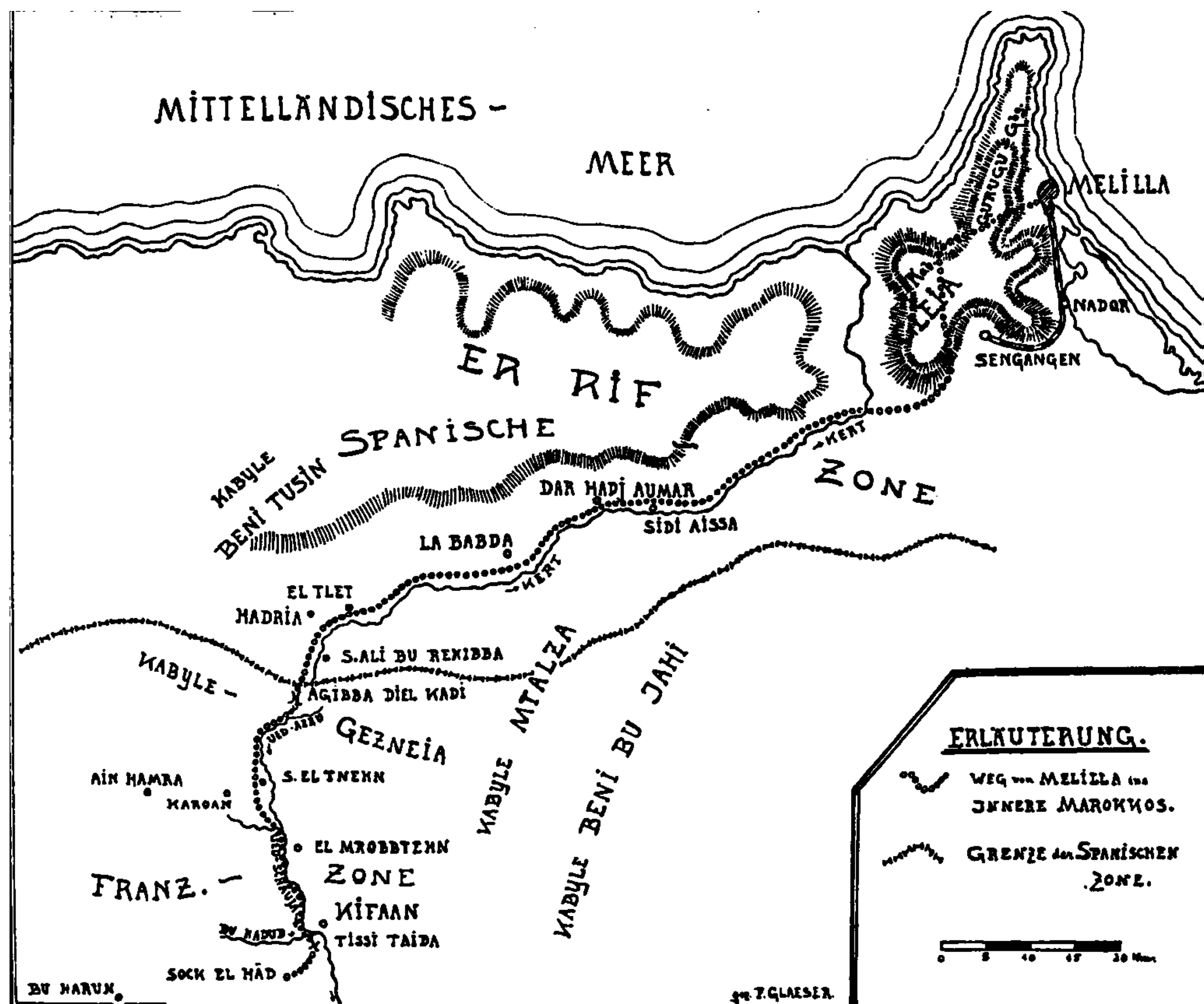




المعازيز العليا


STRASSE v. GIBRALTAR
MITTEL-MEER
ATLANTISCHER
OCEAN
TANGER
CEUTA
TETUAN
SPANISCHE ZONE
ER RIF
MELILLA
ORAN
ALGIER
UDSCHDA
SEBDOU
TAZA
KENITRA
SALE
RABAT
FES
CASABLANCA
AZEMMOUR
MAZAGAN
SCHWARZE ERDE
FRANZÖSISCHE ZONE
Mittlerer-
ATLAS
SAFI
RHAMNA STEPPE
MARRAKESCH
MOGADOR
TAMSLOH
HOHER - ATLAS
AGADIR
SUS
ERLÄUTERUNG.
GRENZE zw. SPANISCHER u. FRANZÖS. ZONE.
GRENZE MAROKKO-ALGIER.
0 50 100 150 Km.


MITTELLÄNDISCHES
MEER
MELILLA
NADOR
CABO DE AQUA
SPANISCHE
ZONE
FRANZ.- ZONE
BENI SNASSEN
MULUYA
TATNA
ORAN
SIDI BEL ABBAS
LA MARNIA
TLEMCEN
SEBDOU
UDSCHDA
TAZA
MAROKKO
ALGIER
ERLÄUTERUNG.
WEG der FLUCHT von SEBDOU – MELILLA.
GRENZE MAROKKO-ALGIER.
GRENZE der FRANZ.-ZONE.
0 10 20 30 40 50 Km.



MITTELLÄNDISCHES - MEER
MELILLA
NADOR
SENGANGEN
ER RIF
KABYLE BENI TUSIN
SPANISCHE ZONE
DAR HADJ AUMAR
SIDI AISSA
LA BABDA
EL TLET
HADRIA
S. ALI BU REKIBBA
KABYLE - GEZNEIA
AGIBBA DIEL KADI
AIN HAMRA
KAROAN
S. EL TNEHN
EL MROBBTEHN
FRANZ. - ZONE
KIFAAN
TISSI TAIDA
SOCK EL HÄD
BU HARUN
KABYLE MTALZA
KABYLE BENI BU JAHI
ERLÄUTERUNG.
WEG von MELILLA ins INNERE MAROKKOS.
GRENZE der SPANISCHEN ZONE.

فهرس المحتويات